الإخلاص

طريق الخلاص

تأليف

عبد الهادي بن حسن وهبي

دار الصديق
للنشر والتوزيع

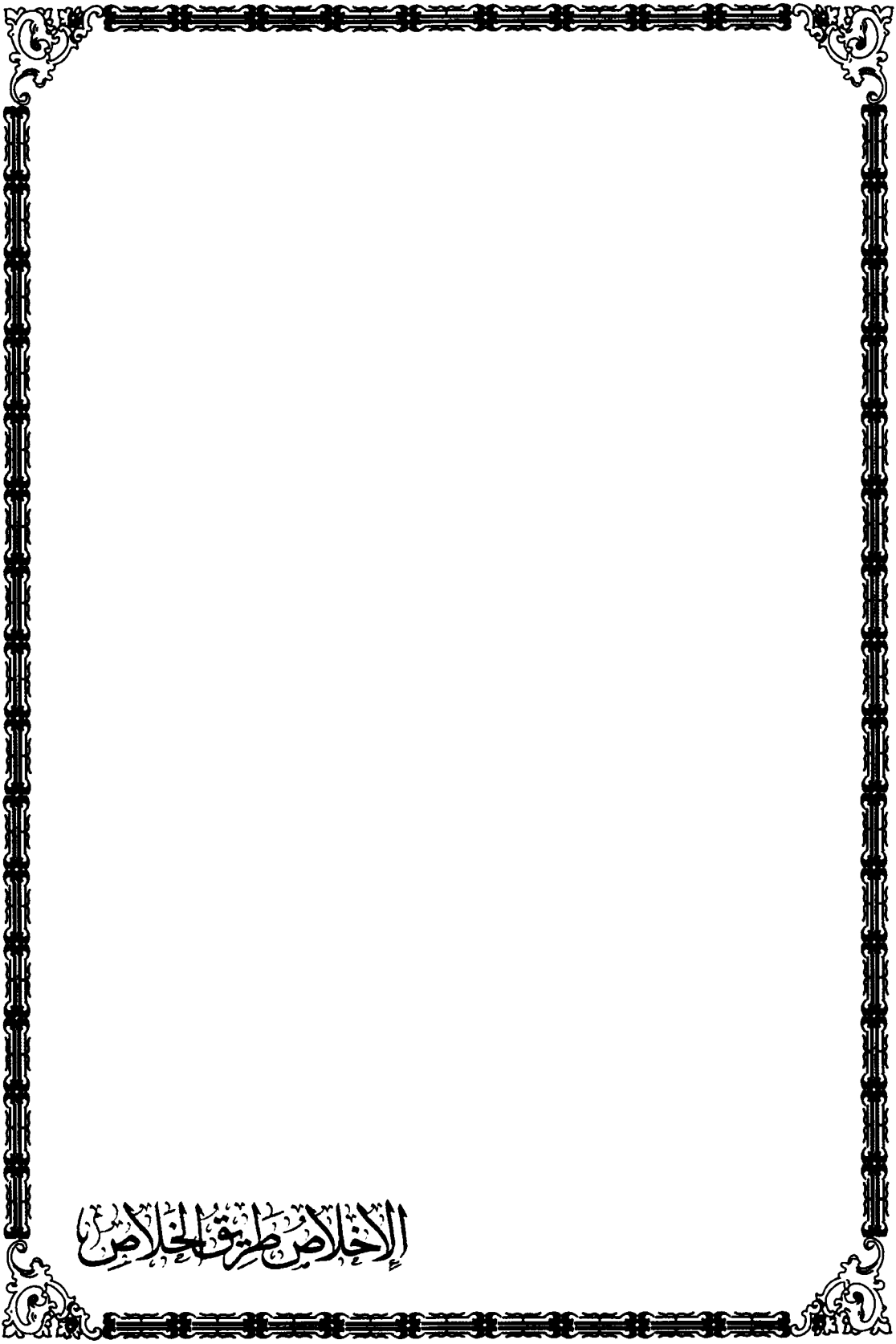

الإخلاص طريق الخلاص

جميع الحقوق محفوظة للناشر

بموجب حقوق الطبع والتأليف والنشر

فلا يجوز نشر أي جزء من الكتاب أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة
أو تصويره أو ترجمته دون موافقة خطية مسبقة من الناشر

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

دار الصديق

الجبيل - المملكة العربية السعودية

ص.ب: ٥٧٣ - رمز بريدي ٣١٩٥١ - هاتف: ٣٦٢٣٠١٨

التوزيع داخل المملكة العربية السعودية

مكتبة بيت السلام

هاتف: ٤٣٨١١٥٥ - ٤٣٨١١٢٢ - فاكس: ٤٣٨٥٩٩١

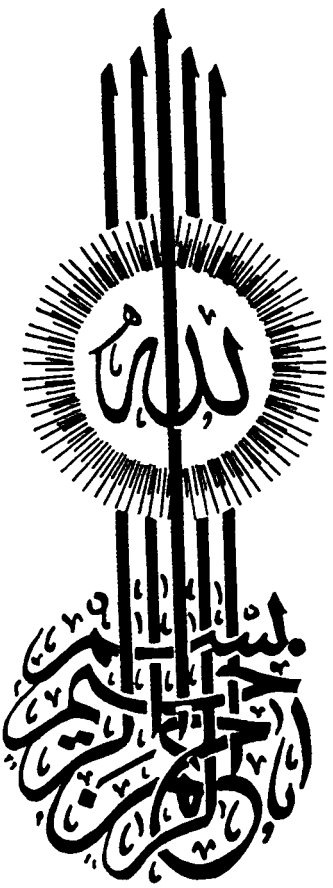
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إِنَّ الحَمدَ لِلَّهِ نَحمَدُهُ وَنَستَعِينُهُ وَنَستَغفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِن شُرُورِ أَنفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعمَالِنَا، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أَمَّا بَعدُ: فَإِنَّ أَصدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعدُ: فَقَد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(١).

هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ، مُجمَعٌ عَلَى عِظَمِ مَوقِعِهِ وَجَلَالَتِهِ، وَهُوَ أَحَدُ قَوَاعِدِ الإِيمَانِ، وَأَوَّلُ دَعَائِمِهِ وَأَشَدُّ الأَركَانِ(٢).

قَالَ الإِمَامُ أَحمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أُصُولُ الإِسلَامِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحَادِيثَ: «**الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»، وَ«**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ**»، وَ«**مَن أَحدَثَ فِي أَمرِنَا مَا لَيسَ مِنهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٣).

قَالَ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ أَبُو عَبدِ اللهِ (أَي: الإِمَامُ أَحمَدُ): لَيسَ فِي أَخبَارِ النَّبِيِّ ﷺ شَيءٌ أَجمَعَ وَأَغنَى وَأَكثَرَ فَائِدَةً مِن هَذَا الحَدِيثِ(٤).

وَهُوَ حَدِيثٌ جَلِيلُ القَدرِ، عَظِيمُ النَّفعِ، جَامِعٌ «لِلمَعَانِي الكَثِيرَةِ الجَلِيلَةِ فِي الأَلفَاظِ القَلِيلَةِ، وَهُوَ مِمَّا لَم يَقُلهُ أَحَدٌ قَبلَهُ»(٥).

وَهُوَ مِنَ الأَحَادِيثِ المُبَارَكَةِ، الجَامِعَةِ لِأَنوَاعٍ مِنَ العُلُومِ وَالفِقهِيَّاتِ، لَا غِنَى عَنْ بَرَكَتِهِ لِأَحَدٍ مِن أَهلِ الإِسلَامِ(٦).

وَكَانَ السَّلَفُ وَتَابِعُوهُم مِنَ الخَلَفِ رَحِمَهُمُ اللهُ يَستَحِبُّونَ استِفتَاحَ المُصَنَّفَاتِ بِهَذَا الحَدِيثِ، تَنبِيهًا لِلمُطَالِعِ عَلَى حُسنِ النِّيَّةِ، وَاهتِمَامِهِ بِذَلِكَ وَالاِعتِنَاءِ بِهِ(٧).

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) «بستان العارفين» (ص٢٩).

(٣) «طبقات الحنابلة» (١/ ٤٧).

(٤) «فتح الباري» (١/ ١١) [المكتبة السلفية - القاهرة].

(٥) «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» (٩/ ١٩٩).

(٦) «السراج الوهاج» (٦/ ٤٨٧).

(٧) «الأذكار» (ص٢٦).

وَمِمَّنِ ابتَدَأَ بِهِ فِي أَوَّلِ كِتَابِهِ: مُحَمَّدُ بنُ إِسمَاعِيلَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَمُحيِي السُّنَّةِ فِي كِتَابَي: شَرحِ السُّنَّةِ، وَالمَصَابِيحِ، «تَنبِيهًا عَلَى تَصحِيحِ النِّيَّةِ وَالإِخلَاصِ لِكُلٍّ مِنَ العَالِمِ وَالمُتَعَلِّم، وَأَنَّهُ الأَسَاسُ الَّذِي يُبنَى عَلَيهِ جَمِيعُ الأَحوَالِ مِنَ العَقَائِدِ وَالأَعمَالِ»(١).

وَإِنَّ مُعَامَلَةَ النَّاسِ بَعضَهُم لِبَعضٍ مَبنَاهَا عَلَى الظَّاهِرِ دُونَ الِالتِفَاتِ إِلَى البَاطِنِ، لِأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى مَعرِفَتِهِ، وَنَحنُ قَد أُمِرنَا أَن نَقبَلَ مِنَ النَّاسِ عَلَانِيَتَهُم، وَلَم نُؤمَر أَن نُنَقِّبَ عَن قُلُوبِهِم.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ؛ فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ؛ وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ(٢).

وَإِنَّ مُعَامَلَةَ العَبدِ رَبَّهُ «مَبنَاهَا عَلَى المَقَاصِدِ، وَالنِّيَّاتِ، وَالسَّرَائِرِ»(٣).

فَمَن أَظهَرَ قَولًا سَدِيدًا، وَلَم يَكُن قَد قَصَدَ بِهِ حَقِيقَتَهُ، كَانَ آثِمًا عَاصِيًا لِرَبِّهِ، وَإِن قَبِلَ النَّاسُ مِنهُ الظَّاهِرَ، كَالمُنَافِقِ الَّذِي يَقبَلُ مِنهُ المُسلِمُونَ عَلَانِيَتَهُ، وَهُوَ عِندَ اللهِ فِي الدَّركِ الأَسفَلِ مِنَ النَّارِ(٤).

فَمَنْ «ظَهَرَتْ لَنَا مِنْهُ عَلَانِيَةُ خَيْرٍ قَبِلْنَا شَهَادَتَهُ، وَوَكَلْنَا سَرِيرَتَهُ إِلَى اللهِ،

---

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١/ ٣٨).
(٢) رواه البخاري (٢٦٤١).
(٣) «بيان الدليل على بطلان التحليل» (ص٢٨٢).
(٤) المصدر السابق.

فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَجْعَلْ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى السَّرَائِرِ، بَلْ عَلَى الظَّوَاهِرِ، وَالسَّرَائِرُ تَبَعٌ لَهَا. وَأَمَّا أَحْكَامُ الْآخِرَةِ فَعَلَى السَّرَائِرِ، وَالظَّوَاهِرُ تَبَعٌ لَهَا»[١].

فَكَمْ بَيْنَ مُرِيدٍ بِالْفَتْوَى وَجْهَ اللهِ وَرِضَاهُ وَالْقُرْبَ مِنْهُ وَمَا عِنْدَهُ، وَمُرِيدٍ بِهَا وَجْهَ الْمَخْلُوقِ وَرَجَاءَ مَنْفَعَتِهِ وَمَا يَنَالُهُ مِنْهُ تَخْوِيفًا أَوْ طَمَعًا؟! فَيُفْتِي الرَّجُلَانِ بِالْفَتْوَى الْوَاحِدَةِ، وَبَيْنَهُمَا فِي الْفَضْلِ وَالثَّوَابِ، أَعْظَمُ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. هَذَا يُفْتِي لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَدِينُهُ هُوَ الظَّاهِرُ، وَرَسُولُهُ هُوَ الْمُطَاعُ؛ وَهَذَا يُفْتِي لِيَكُونَ قَوْلُهُ هُوَ الْمَسْمُوعُ، وَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ، وَجَاهُهُ هُوَ الْقَائِمُ، سَوَاءٌ وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ أَوْ خَالَفَهُمَا[٢].

فَالأَوَّلُ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، وَالثَّانِي أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ. هَلْ يَسْتَوِيَانِ؟ كَلَّا وَاللَّهِ لَا يَسْتَوِيَانِ أَبَدًا، كَمَا لَا يَسْتَوِي النُّورُ وَالظَّلَامُ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالمَاءُ وَالنَّارُ.

قَالَ ﷻ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة].

«شَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا؛ وَاحِدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ وَنِيَّتِهِ، وَآخَرُ يَدْخُلُ النَّارَ بِهِمَا، كُلُّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى مَا احتَوَت عَلَيهِ سُوَيدَاءُ القُلُوبِ مِنَ النِّيَّاتِ الحَسَنَةِ وَضِدِّهَا»[٣].

---

(١) «إعلام الموقِّعين» (١/ ١٧٣) [مكتبة ابن تيمية - القاهرة].
(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٥١).
(٣) «المدخل» (٢/ ٢/ ١٩)، لابن الحاج رَحِمَهُ اللَّهُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ**»(١).

فَانظُر كَيفَ جَعَلَ النِّيَّةَ الصَّالِحَةَ سَبَبًا قَوِيًّا لِلرِّزقِ وَأَدَاءِ اللهِ عَنهُ، وَجَعَلَ النِّيَّةَ السَّيِّئَةَ سَبَبًا لِلتَّلَفِ وَالإِتلَافِ؟!(٢)

عَن أَبِي بَكرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»(٣).

فَسَوَّتِ النِّيَّةُ الفَاسِدَةُ وَالإِرَادَةُ السَّيِّئَةُ بَينَ قَاتِلٍ مُستَوجِبٍ لِلنَّارِ وَبَينَ مَقتُولٍ، لَولَا نِيَّتُهُ الفَاسِدَةُ لَكَانَ مِن أَهلِ الجَنَّةِ(٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى صَدَاقٍ، وَهُوَ يَنْوِي أَلَّا يُؤَدِّيَهُ إِلَيْهَا، فَهُوَ زَانٍ؛ وَمَنِ ادَّانَ دَيْنًا، وَهُوَ يَنْوِي أَلَّا يُؤَدِّيَهُ إِلَى صَاحِبِهِ**» - أَحْسِبُهُ قَالَ -: «**فَهُوَ سَارِقٌ**»(٥).

فَبِالنِّيَّةِ السَّيِّئَةِ انقَلَبَ المُبَاحُ حَرَامًا، وَالجَائِزُ مَمنُوعًا، وَمَا كَانَ خَالِيًا مِنَ الحَرَجِ، أَصبَحَ ذَا حَرَجٍ(٦).

وَعَن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ غَزَا**

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨٧).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» (١/ ٢٣)، للعلَّامة السعدي رحمه الله.

(٣) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٤) «منهاج المسلم» (ص٥٣ - ٥٤) [طبعة مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة].

(٥) رواه البزار «البحر الزخَّار» (٨٧٢١)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٠٦).

(٦) «منهاج المسلم» (ص٥٤).

فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَمْ يَنْوِ إِلَّا عِقَالًا، فَلَهُ مَا نَوَى»[١].

وَالعِقَالُ: حَبْلٌ صَغِيرٌ تُشَدُّ بِهِ رُكبَتَا البَعِيرِ لِئَلَّا يَنفِرَ، وَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي قَطعِ النَّظَرِ عَنِ الغَنِيمَةِ، بَل يَكُونُ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى، غَيرَ مَشُوبٍ بِأَغرَاضٍ دُنيَوِيَّةٍ[٢].

وَبَعْثُ النَّاسِ سَيَكُونُ عَلَى حَسَبِ نِيَّاتِهِم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»[٣].

وَهَذِهِ النِّيَّةُ تُمَيِّزُ بَينَ مَن يُرِيدُ اللهَ بِعَمَلِهِ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، وَبَينَ مَن يُرِيدُ الدُّنيَا: مَالًا وَجَاهًا، وَمَدحًا وَثَنَاءً، وَتَعظِيمًا، وَغَيرَ ذَلِكَ[٤].

كُلُّ هَذَا يُؤَكِّدُ مَا يَعتَقِدُهُ المُسلِمُ فِي خَطَرِ النِّيَّةِ، وَعِظَمِ شَأنِهَا، وَكَبِيرِ أَهَمِّيَتِهَا؛ فَلِذَا هُوَ يَبنِي سَائِرَ أَعمَالِهِ عَلَى صَالِحِ النِّيَّاتِ، كَمَا يَبذُلُ جُهدَهُ فِي أَن لَا يَعمَلَ عَمَلًا بِدُونِ نِيَّةٍ، أَو نِيَّةٍ غَيرِ صَالِحَةٍ، إِذِ النِّيَّةُ رُوحُ العَمَلِ وَقِوَامُهُ، صِحَّتُهُ مِن صِحَّتِهَا وَفَسَادُهُ مِن فَسَادِهَا، وَالعَمَلُ بِدُونِ نِيَّةٍ، صَاحِبُهُ مُرَاءٍ مُتَكَلِّفٌ مَمقُوتٌ[٥].

وَإِنَّ «الفَرقَ الَّذِي وَقَعَ بَينَنَا وَبَينَ سَلَفِنَا فِي غَالِبِ أَحوَالِنَا: إِنَّمَا هُوَ مِن أَجلِ هَذِهِ النِّيَّةِ الَّتِي احتَوَت عَلَيهَا سُوَيدَاءُ القُلُوبِ، إِذ إِنَّا نُصَلِّي كَمَا كَانُوا يُصَلُّونَ، وَنَصُومُ كَمَا كَانُوا يَصُومُونَ، وَنَحُجُّ كَمَا كَانُوا يَحُجُّونَ،

---

(١) رواه النسائي (٣١٣٨)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٣٤).
(٢) «شرح الطيبي على المشكاة» (٨/ ٢٦٥٩ - ٢٦٦٠).
(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٢٩)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٥٦). (٥) «منهاج المسلم» (ص٥٤).

وَافترَقنَا لِأَجلِ النِّيَّاتِ»[١].

فَقَد كَانُوا «يَأتُونَ بِالمَسَائِلِ العَظِيمَةِ وَالفَوَائِدِ النَّفِيسَةِ، وَلَا يُرِيدُونَ أَن تُنسَبَ إِلَيهِم، خَوفًا عَلَى أَنفُسِهِم مِنَ الرِّيَاءِ وَالسُّمعَةِ، فَكَانُوا مِن ذَلِكَ بُرَآءَ لِشِدَّةِ إِخلَاصِهِم وَمُرَاقَبَتِهِم لِرَبِّهِم فِي أَعمَالِهِم؛ وَنَحنُ اليَومَ - مَعَ قِلَّةِ الإِخلَاصِ، وَقِلَّةِ اليَقِينِ، وَالجَزَعِ مِنَ الخَلقِ، وَالطَّمَعِ فِيمَا فِي أَيدِيهِم مِنَ المَالِ وَالجَاهِ -، نُحِبُّ أَنْ يُسمَعَ مَا نُلقِيهِ، وَيُخبَرَ عَنَّا بِهِ، وَيُشَاعَ وَيُذَاعَ»[٢].

قَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي جَمرَةَ (ت٦٩٩هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَدِدْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ مَنْ لَيْسَ لَهُ شُغْلٌ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ مَقَاصِدَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَيَقْعُدَ إِلَى التَّدْرِيسِ فِي أَعْمَالِ النِّيَّاتِ، لَيْسَ إِلَّا - أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ -؛ فَإِنَّهُ مَا أُتِيَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، إِلَّا مِنْ تَضْيِيعِ النِّيَّاتِ»[٣].

وَلَمَّا ضَعُفَ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، سَاءَتْ مَقَاصِدُهُم، وَابتَعَدُوا عَنِ النِّيَّاتِ الخَالِصَةِ لِلَّهِ، وَأَهمَلُوا صَلَاحَ قُلُوبِهِم وَسَرَائِرِهِم، وَتَفَشَّتِ الأَمرَاضُ المُزمِنَةُ: كَالرِّيَاءِ، وَالعُجبِ، وَالكِبرِ، وَالنِّفَاقِ، وَحُبِّ الشُّهرَةِ وَالظُّهُورِ، وَانتِشَارِ الذِّكرِ، وَعُلُوِّ الصِّيتِ، وَالرِّيَاسَةِ.

فَقَامَ «المُنكَرُ مَقَامَ المَعرُوفِ، وَالجَهلُ مَقَامَ العِلمِ، وَالرِّيَاءُ مَقَامَ الإِخلَاصِ، وَالبَاطِلُ مَقَامَ الحَقِّ، وَالكَذِبُ مَقَامَ الصِّدقِ، وَالمُدَاهَنَةُ

---

(١) «المدخل» (١/ ١/ ٢٣)، لابن الحاج رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) المصدر السابق (١/ ١/ ١٠٤)، باختصار.

(٣) نقله عنه ابن الحاج رَحِمَهُ اللَّهُ: في «المدخل» (١/ ١/ ١٠).

مَقَامَ النَّصِيحَةِ، وَالظُّلمُ مَقَامَ العَدلِ»[١]، وَسُوءُ الظَّنِّ مَقَامَ حُسنِ الظَّنِّ، وَالتَّعَامُلُ الرَّسمِيُّ مَقَامَ التَّعَامُلِ الأَخَوِيِّ. «فَتَحَابَبنَا بِالأَلسُنِ مَعَ الرُّؤيَةِ، وَتَبَاغَضْنَا بِالقُلُوبِ مَعَ فَقدِ الرُّؤيَةِ»[٢]. فَبَطْنُ الأَرضِ - وَاللَّهِ - خَيرٌ مِنْ ظَهرِهَا[٣].

فَلِشِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَى الإِخلَاصِ وَلِعِظَمِ شَأنِهِ، وَلِكَونِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ المُسلِمِينَ فِي أَشَدِّ الحَاجَةِ إِلَى الإِخلَاصِ، جَمَعتُ هَذَا البَحثَ تَذكِيرًا بِالإِخلَاصِ، وَحَثًّا عَلَى طَلَبِهِ وَالقِيَامِ بِحَقِّهِ، وَاضِعًا نُصبَ عَينَيَّ قَولَ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ، مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[٤].

أَسأَلُ اللهَ الحَيَّ القَيُّومَ ذَا الجَلَالِ وَالإِكرَامِ «التَّوفِيقَ لِحُسنِ النِّيَّاتِ، وَتَيسِيرَ أَنوَاعِ الطَّاعَاتِ، وَالهِدَايَةَ لَهَا دَائِمًا فِي ازدِيَادٍ حَتَّى المَمَاتِ، وَمَغفِرَةَ مَا ظَلَمتُ نَفسِي بِهِ فِي المُخَالَفَاتِ، وَأَن يَفعَلَ ذَاكَ بِوَالِدَيَّ وَمَشَايِخِي وَأَهلِينَا وَأَحبَابِنَا، وَسَائِرِ المُسلِمِينَ وَالمُسلِمَاتِ؛ وَأَن يَجُودَ عَلَينَا أَجمَعِينَ بِرِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ، وَدَوَامِ طَاعَتِهِ، وَيَجمَعَ بَينَنَا فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، وَغَيرَ ذَلِكَ مِن أَنوَاعِ المَسَرَّاتِ، وَأَن يَنفَعَنَا أَجمَعِينَ بِهَذَا الكِتَابِ، وَيَجمَعَ لَنَا المَثُوبَاتِ، وَأَلَّا يَنزِعَ مِنَّا مَا وَهَبَهُ لَنَا وَمَنَّ بِهِ عَلَينَا مِنَ الخَيرَاتِ، وَأَلَّا يَجعَلَ شَيئًا مِن ذَلِكَ فِتنَةً لَنَا، وَأَن يُعِيذَنَا مِن كُلِّ المُخَالَفَاتِ، إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَوَاتِ، جَزِيلُ العَطِيَّاتِ؛ اعتَصَمتُ بِاللَّهِ، تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ، مَا شَاءَ اللهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، حَسبِيَ اللهُ وَنِعمَ الوَكِيلُ،

---

(١) «فوائد الفوائد» (ص٤٤٠).

(٢) «المدخل» (٢/ ١/ ٦٣)، لابن الحاج رَحِمَهُ اللَّهُ. (٣) «فوائد الفوائد» (ص٤٤١).

(٤) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ»[١].

وَ اللهَ أَرجُو المَنَّ بِالإِخلَاصِ لِكَي يَكُونَ مُوجِبَ الخَلَاصِ[٢]

وَنَسْأَلُهُ ﷻ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الكِتَابَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، مِنَ الرِّيَاءِ وَالسُّمعَةِ، وَسَبَبًا لِلْفَوزِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَنِي وَمَنْ نَظَرَ فِيهِ، وَأَصْلَحَ مَا بِهِ مِنْ نَقْصٍ وَخَلَلٍ، وَدَعَا لِي بِقَلبِهِ وَفِيهِ، إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، وَبِالإِجَابَةِ جَدِيرٌ.

«**فَيَا أَيُّهَا القَارِئُ لَهُ**: مَا وَجَدتَ فِيهِ مِنْ صَوَابٍ وَحَقٍّ فَاقبَلهُ، وَلَا تَلتَفِت إِلَى قَائِلِهِ؛ بَلِ انظُر إِلَى مَا قَالَ، لَا إِلَى مَنْ قَالَ.

وَمَا وَجَدتَ فِيهِ مِن خَطَإٍ: فَإِنَّ قَائِلَهُ لَمْ يَأْلُ جَهدَ الإِصَابَةِ. وَيَأبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يَتَفَرَّدَ بِالكَمَالِ. كَمَا قِيلَ:

وَالنَّقصُ فِي أَصلِ الطَّبِيعَةِ كَامِنٌ فَبَنُو الطَّبِيعَةِ نَقصُهُم لَا يُجحَدُ»[٣]

وَإِنَّمَا هِيَ أَعمَالٌ بِنِيَّتِهَا خُذمَا صَفَا وَاحتَمِل بِالعَفوِ مَا كَدَرَا[٤]

الراجي عفو ربه
عبد الهادي بن حسن وهبي[٥]
abdelhadi.wihbi@hotmail.com

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ١/ ١٠)، للنووي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «متن الزبد» (ص٥)، لابن رسلان رَحِمَهُ اللَّهُ. (٣) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/ ١٠٨٣).

(٤) «الدرة الصقيلة في شرح أبيات العقيلة» (ص٥٩٦).

(٥) بيروت - لبنان. ص.ب ٦٠٩٣/ ١٣ شوران.
هاتف: ٦٢٦٧٨٧/ ٠٣ - فاكس: ٧٩١٠٥٠/ ٠١.
موقع الإنترنت: www.asseraj.net.

أَهَمِّيَّةُ الإِخلَاصِ

الحَدِيثُ عَنِ **الإِخلَاصِ**: حَدِيثٌ عَزِيزٌ وَغَرِيبٌ. غَرِيبٌ: أَوشَكَ أَن لَا يُعرَفَ، وَعَزِيزٌ: كَادَ أَن لَا يُوجَدَ.

الإِخلَاصُ عَظِيمُ القَدرِ، جَلِيلُ النَّفعِ. بِهِ يُنَالُ المَطلُوبُ وَالمَقصُودُ.

الإِخلَاصُ عَمَلٌ مِن أَعمَالِ القَلبِ، وَالقَلبُ مَحَلُّ نَظَرِ اللهِ تَعَالَى، وَالقَلبُ المُزَيَّنُ بِالإِخلَاصِ، كَالجَوهَرِ المَكنُونِ فِي الوِعَاءِ، وَلَن يَتَزَيَّنَ القَلبُ بِزِينَةٍ، هِيَ أَبهَى وَلَا أَجمَلُ مِنَ **الإِخلَاصِ**.

وَهُوَ سِرُّ العُبُودِيَّةِ وَرُوحُهَا وَلُبُّهَا، وَمَحَلُّهُ مِنَ العَمَلِ مَحَلُّ الرُّوحِ مِنَ الجَسَدِ، فَإِذَا خَلَا عَمَلُ الجَوَارِحِ مِنهُ، كَانَ كَالجَسَدِ المَوَاتِ بِلَا رُوحٍ؛ وَكَشَجَرَةٍ بِلَا ثَمَرٍ. وَهُوَ طَرِيقُ الخَلَاصِ.

وَشَتَّانَ بَينَ قَومٍ سَلَكُوا طَرِيقَ الرِّيَاءِ، وَقَومٍ سَلَكُوا طَرِيقَ الإِخلَاصِ.

الإِخلَاصُ سَفِينَةٌ مَأمُونَةٌ، مَن اعتَصَمَ بِرُكُوبِهَا نَجَا كَمَا نَجَا نُوحٌ عليه السلام وَمَن مَعَهُ، وَمَن تَخَلَّفَ عَنهَا غَرِقَ وَسَطَ أَمواجِ فِتَنِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَهُم أَكثَرُ أَهلِ الأَرضِ.

فَمَن عَزَمَ عَلَى قَطعِ بَحرِ الهَلَاكِ إِلَى سَاحِلِ السَّلَامَةِ، فَليَركَب مَركَبَ المُخلِصِينَ.

فَأَحكِم سَفِينَةَ الإِخلَاصِ، فَإِنَّ البَحرَ عَمِيقٌ، وَأَمواجُهُ مُتَلَاطِمَةٌ، وَلَا سَبِيلَ لِلوُصُولِ إِلَى بَرِّ الأَمنِ وَالأَمَانِ، إِلَّا بِرُكُوبِ سَفِينَةِ الإِخلَاصِ.

وَاللَّهُ ﷻ خَلَقَنَا لِعِبَادَتِهِ وَأَمَرَنَا بِالإِخلَاصِ فِي هَذِهِ العِبَادَةِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۝٥﴾ [البَيِّنَة].

أَي: مَا أُمِرُوا بِمَا أُمِرُوا بِهِ؛ إِلَّا لِتَحقِيقِ العِبَادَةِ، وَالإِخلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى فِيهَا[1].

وَهَذِهِ الآيَةُ مِنَ الأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُوبِ النِّيَّةِ فِي العِبَادَاتِ؛ لِأَنَّ الإِخلَاصَ فِي العَمَلِ مِن عَمَلِ القَلبِ[2].

وَكَفَى بِهَذِهِ الآيَةِ دَلِيلًا عَلَى شَرَفِ الإِخلَاصِ وَلُزُومِ الإِقبَالِ عَلَيهِ، فَحَقَّ لِلعَبدِ أَن لَا يَشتَغِلَ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَتعَبَ إِلَّا لَهُ، وَلَا يَنظُرَ إِلَّا فِيهِ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزُّمَر]، وَقَالَ ﷻ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزُّمَر]. «وَالعِبَادَةُ هِيَ الدِّينُ، وَالدِّينُ هُوَ العِبَادَةُ، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٣]؛ وَمَا لَيسَ بِخَالِصٍ فَلَيسَ لِلَّهِ، وَلَا يَقبَلُهُ اللهُ ﷻ»[3].

فَأَفَادَتِ الآيَةُ أَنَّ الإِخلَاصَ شَرطٌ فِي دِينِ الإِسلَامِ، وَهُوَ دِينُ الأَنبِيَاءِ أَجمَعِينَ، وَطَلَبُ الإِخلَاصِ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ: دَلِيلٌ عَلَى

---

(١) «شرح مقدمة المجموع» (ص٣٤)، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «فتح البيان» (١٥/ ٣٣٤).

(٣) المصدر السابق.

عِظَمِ مَنزِلَةِ هَذَا الخُلُقِ العَظِيمِ.

وَاستَثنَى اللهُ طَائِفَةً مِنَ البَشَرِ كُلِّهِمُ الهَالِكِينَ الخَاسِرِينَ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء]؛ فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخلَصُوا دِينَهُم لِلَّهِ، فَقَصَدُوا وَجهَ اللهِ بِأَعمَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَسَلِمُوا مِنَ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ. فَمَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، فَأُولَئِكَ مَعَ المُؤمِنِينَ: فِي الدُّنيَا، وَفِي البَرزَخِ، وَالقِيَامَةِ. وَسَوفَ يُؤتِيهِمُ اللهُ أَجرًا عَظِيمًا: مُشتَمِلًا عَلَى المَطَالِبِ العَالِيَةِ، وَالمَحَابِّ الغَالِيَةِ، لَا يَعرِفُ قَدرَهُ وَلَا يَبلُغُ كُنهَهُ إِلَّا اللهُ: مِمَّا لَا عَينٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

عَن أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الدُّنيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ اللهِ عز وجل**»(١).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله: «فَهَذَا هُوَ الَّذِي فِيهِ البَرَكَةُ خَاصَّةً»(٢).

فَالدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ، وَلَا يَكُونُ لِلَّهِ إِلَّا مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ المَشْرُوعُ. فَكُلُّ عَمَلٍ أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ اللهِ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُوَافِقُ شَرْعَ اللهِ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ، بَلْ لَا يَكُونُ لِلَّهِ إِلَّا مَا جَمَعَ الْوَصْفَيْنِ: أَن يَكُونَ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِمَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالمُسْتَحَبُّ. كَمَا قَالَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا

---

(١) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٦١٢)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٩).

(٢) «الداء والدواء» (ص١٣٤).

﴿...يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ۝١١٠﴾ [الكهف][١].

فَلِلَّهِ مَا أَعظَمَهَا مِن آيَةٍ! وَأَجلَّهَا وَأَعظَمَهَا فَائِدَةً! وَأَبلَغَهَا مَوعِظَةً وَتَحذِيرًا! وَأَشَدَّهَا تَرغِيبًا فِي الإِخلَاصِ، وَتَحذِيرًا مِنَ الرِّيَاءِ عَلَى غَايَةِ اختِصَارِهَا، وَجَزَالَةِ أَلفَاظِهَا، وَحُسنِ نَظمِهَا! فَتَبَارَكَ مَن تَكَلَّمَ بِهَا حَقًّا، وَبَلَّغَهَا رَسُولُهُ عَنهُ وَحيًا[٢].

«فَالعَمَلُ الصَّالِحُ: هُوَ الخَالِي مِنَ الرِّيَاءِ، المُقَيَّدُ بِالسُّنَّةِ»[٣].

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالعَمَلُ الصَّالِحُ لَا بُدَّ أَن يُرَادَ بِهِ وَجهُ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَقبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجهُهُ وَحدَهُ»[٤].

فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى، وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ، وَبِحَسَبِ تَحْقِيقِهِ يَكُونُ تَحْقِيقُ الدِّينِ، وَبِهِ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَإِلَيْهِ دَعَا الرَّسُولُ، وَعَلَيْهِ جَاهَدَ؛ وَبِهِ أَمَرَ، وَفِيهِ رَغَّبَ، وَهُوَ قُطْبُ الدِّينِ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ رَحَاهُ[٥].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: يُنبُوعُ الخَيرِ وَأَصلُهُ: إِخلَاصُ العَبدِ لِرَبِّهِ[٦].

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ - مُوضِحًا أَهَمِّيَّةَ الإِخلَاصِ وَمَكَانَتَهُ -: «العَمَلُ بِغَيرِ إِخْلَاصٍ وَلَا اقتِدَاءٍ، كَالمُسَافِرِ يَملَأُ جِرَابَهُ رَملًا يُثقِلُهُ وَلَا يَنفَعُهُ»[٧].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢١٣).

(٢) «عدة الصابرين» (ص٢٣٨)، بتصرُّف.

(٣) «الداء والدواء» (ص٢٠٢).

(٤) «الاستقامة» (٢/ ٢٢٧).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢١٤).

(٦) المصدر السابق (١٠/ ٦٥٩).

(٧) «فوائد الفوائد» (ص٤٤٢).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَو نَفَعَ العِلمُ بِلَا عَمَلٍ، لَمَا ذَمَّ اللهُ سُبحَانَهُ أَحبَارَ أَهلِ الكِتَابِ، وَلَو نَفَعَ العَمَلُ بِلَا إِخلَاصٍ، لَمَا ذَمَّ المُنَافِقِينَ»(١).

قَالَ العَلَّامَةُ ابنُ عَبدِ القَوِيِّ (ت٦٩٩هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَإِنَّ عِمَادَ الدِّينِ إِخلَاصُ نِيَّةٍ ... وَإِلَّا تَوَلَّى بِالعَنَا صَافِرَ اليَدِ(٢)

وَلِأَهَمِّيَّةِ الإِخلَاصِ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي أَدبَارِ الصَّلَوَاتِ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ**»(٣).

فَيَا لَهَا مِن مَرتَبَةٍ: مَا أَعلَاهَا! وَمَنقَبَةٍ: مَا أَجَلَّهَا وَأَسنَاهَا! وَحَقِيقٌ بِمَرتَبَةٍ هَذَا شَأنُهَا: أَن تُنفَقَ نَفَائِسُ الأَنفَاسِ عَلَيهَا، وَيَسبِقَ السَّابِقُونَ إِلَيهَا، وَتُوَفَّرَ عَلَيهَا الأَوقَاتُ، وَتَتَوَجَّهَ نَحوَهَا الطَّلَبَاتُ(٤).

وَحَقِيقٌ بِالعَبدِ أَنْ يُنْزِلَ الإِخلَاصَ مِنهُ، «مَنزِلَةَ حَيَاتِهِ الَّتِي لَا غِنَى لَهُ عَنهَا، وَمَنْزِلَةَ غِذَائِهِ الَّذِي إِذَا فَقَدَهُ فَسَدَ جِسْمُهُ وَهَلَكَ، وَبِمَنْزِلَةِ المَاءِ عِندَ شِدَّةِ العَطَشِ، وَبِمَنزِلَةِ اللِّبَاسِ فِي الحَرِّ وَالبَرْدِ»(٥).

فَنَسأَلُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ كُلِّ خَيرٍ: أَن يَفتَحَ عَلَينَا خَزَائِنَ رَحمَتِهِ، وَيَجعَلَنَا مِن أَهلِ الإِخلَاصِ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

---

(١) «الفوائد» (ص٦٦).
(٢) «الألفية في الأداب الشرعية» (ص٧١).
(٣) رواه مسلم (٥٩٤)، من حديث عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) «طريق الهجرتين» (ص٦١٩).
(٥) «الوابل الصيِّب» (ص١٠٥ - ١٠٦).

تَعرِيفُ الإِخلَاصِ

الإِخلَاصُ فِي اللُّغَةِ[1]: يُقَالُ عَنِ الشَّيءِ: خَالِصٌ، إِذَا صَفِيَ مِنَ الشَّوَائِبِ الَّتِي يُمكِنُ أَن تَشُوبَهُ، سُمِّيَ خَالِصًا؛ يُقَالُ: «أَخلَصتُ العَسَلَ وَغَيرَهُ: إِذَا صَفَّيتُهُ، وَأَفرَدتُهُ مِن شَوَائِبِ كَدَرِهِ؛ أَي: خَلَّصتُهُ مِنهَا»[2].

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ - مُمتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ -: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل].

فَهَذَا اللَّبَنُ صَافٍ، غَيرُ مُختَلِطٍ بِشَيءٍ مِنَ الدَّمِ وَالفَرثِ، فَيَخرُجُ هَذَا اللَّبَنُ الصَّافِي بِقُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَسَمَّاهُ اللهُ وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ خَالِصٌ.

وَالإِخلَاصُ شَرعًا: تَصفِيَةُ العَمَلِ مِن كُلِّ شَائِبَةٍ «تَشُوبُهُ مِن شَوَائِبِ إِرَادَاتِ النَّفسِ: إِمَّا طَلَبِ التَّزَيُّنِ فِي قُلُوبِ الخَلقِ، وَإِمَّا طَلَبِ مَدحِهِم، وَالهَرَبِ مِن ذَمِّهِم، أَو طَلَبِ تَعظِيمِهِم،

---

(١) يُنظر: «لسان العرب» (٤/ ١٧٣)، لابن منظور.

(٢) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٣/ ٧٤٢).

أَو طَلَبِ أَموَالِهِم»[١].

وَذَلِكَ بِأَن يَكُونَ الحَامِلُ عَلَى الطَّاعَةِ «وَالدَّاعِي إِلَيهَا: رَغبَةَ العَبْدِ فِي اللهِ، وَمَحَبَّتَهُ لَهُ، وَطَلَبَ مَرضَاتِهِ، وَالقُربَ مِنهُ، وَالتَّوَدُّدَ إِلَيهِ، وَامتِثَالَ أَمرِهِ، بِحَيثُ لَا يَكُونُ البَاعِثُ لَهُ عَلَيهَا حَظًّا مِن حُظُوظِ الدُّنيَا أَلبَتَّةَ؛ بَل يَأتِي بِهَا ابتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِ الأَعلَى، مَحَبَّةً لَهُ وَخَوفًا مِن عَذَابِهِ، وَرَجَاءً لِمَغفِرَتِهِ وَثَوَابِهِ»[٢].

قَالَ بَعضُ السَّلَفِ [كَمَا يُذكَرُ عَن حُذَيْفَةَ بنِ قَتَادَةَ الْمَرْعَشِيِّ رَحِمَهُ اللهُ]: «الإِخلَاصُ: استِوَاءُ أَعمَالِ العَبْدِ، فِي الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ»[٣].

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

إِذَا السِّرُّ وَالإِعلَانُ فِي المُؤمِنِ استَوَى ... فَقَد عَزَّ فِي الدَّارَينِ وَاستَوجَبَ الثَّنَا

فَإِن خَالَفَ الإِعلَانُ سِرًّا فَمَا لَهُ ... عَلَى سَعيِهِ فَضلٌ سِوَى الكَدِّ وَالعَنَا[٤]

قَالَ الإِمَامُ ابنُ شَيخِ الحَزَّامِيِّينَ (ت٧١١هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «الإِخلَاصُ: هُوَ تَخلِيصُ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ العَمَلِ، عَن رُؤيَةِ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وَمُلَاحَظَةِ غَيرِهِ مِن دُنيَا أَو جَاهٍ، أَو رِئَاسَةٍ أَو طَلَبِ مَنزِلَةٍ.

فَمَنِ اجتَمَعَ فِي أَعمَالِهِ، وَمَسَاعِيهِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ: الإِخلَاصُ؛ استَقَامَ عَمَلُهُ، وَرُفِعَ إِلَى اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]»[٥].

---

(١) «تهذيب المدارج» (١/ ٥١٦).

(٢) «رسالة ابن القَيِّم إلى أحد إخوانه» (ص٣٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٧٠).

(٤) «الإحياء» (٤/ ٣٤٠).

(٥) «مدخل أهل الفقه واللسان» (ص٦٦).

وَقَالَ ابنُ القَيِّم (ت ٧٥١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإِخلَاصُ: أَن يُخلِصَ لِلَّهِ فِي أَفعَالِهِ وَأَقوَالِهِ وَإِرَادَتِهِ وَنِيَّتِهِ، وَهَذِهِ هِيَ الحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبرَاهِيمَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ كُلَّهُم، وَلَا يَقبَلُ مِن أَحَدٍ غَيرَهَا، وَهِيَ حَقِيقَةُ الإِسلَامِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وَهِيَ مِلَّةُ إِبرَاهِيمَ: الَّتِي مَن رَغِبَ عَنهَا، فَهُوَ مِن أَسفَهِ السُّفَهَاءِ»(١).

وَقَالَ ابنُ رَجَبٍ (ت ٧٩٥هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَقَامُ الإِخلَاصِ: وَهُوَ أَن يَعمَلَ العَبدُ عَلَى استِحضَارِ مُشَاهَدَةِ اللهِ إِيَّاهُ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَيهِ، وَقُربِهِ مِنهُ، فَإِذَا استَحضَرَ العَبدُ هَذَا فِي عَمَلِهِ، وَعَمِلَ عَلَيهِ، فَهُوَ مُخلِصٌ لِلَّهِ؛ لِأَنَّ استِحضَارَهُ ذَلِكَ فِي عَمَلِهِ، يَمنَعُهُ مِنَ الِالتِفَاتِ إِلَى غَيرِ اللهِ، وَإِرَادَتِهِ بِالعَمَلِ»(٢).

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ عُثَيمِينَ (ت ١٤٢١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإِخلَاصُ لِلَّهِ مَعنَاهُ: أَنْ يَقصِدَ المَرءُ بِعِبَادَتِهِ التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَالتَّوَصُّلَ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ: بِأَنْ يَكُونَ العَبدُ مُخلِصًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي قَصدِهِ، مُخلِصًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي مَحَبَّتِهِ، مُخلِصًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي تَعظِيمِهِ، مُخلِصًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، لَا يَبتَغِي بِعِبَادَتِهِ إِلَّا وَجهَ اللهِ تَعَالَى، وَالوُصُولَ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام]»(٣).

وَأَجمَعُ تَعرِيفٍ لِلإِخلَاصِ رَأَيتُهُ، وَهُوَ جَامِعٌ لِشَتَاتِ مَا سَبَقَ،

---

(١) «الداء والدواء» (ص٢٠٨).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٢٩).
(٣) «رسائل في الأصول» (ص٤٩).

هُوَ مَا قَالَهُ **أَبُو عُثْمَانَ سَعِيدُ بنُ إِسمَاعِيلَ النَّيسَابُورِيُّ الحِيرِيُّ** (ت٢٩٨هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «صِدقُ الإِخلَاصِ: نِسيَانُ رُؤيَةِ الخَلقِ لِدَوَامِ النَّظَرِ إِلَى الخَالِقِ، وَالإِخلَاصُ: أَن تُرِيدَ بِقَلبِكَ وَعَمَلِكَ وَفِعلِكَ رِضَا اللهِ تَعَالَى، خَوفًا مِن سَخَطِ اللهِ؛ كَأَنَّكَ تَرَاهُ بِحَقِيقَةِ عَمَلِكَ بِأَنَّهُ يَرَاكَ، حَتَّى يَذهَبَ الرِّيَاءُ عَن قَلبِكَ. ثُمَّ تَذكُرُ مِنَّةَ اللهِ عَلَيكَ إِذ وَفَّقَكَ لِذَلِكَ العَمَلِ، حَتَّى يَذهَبَ العُجبُ مِن قَلبِكَ، وَتَستَعمِلَ الرِّفقَ فِي عَمَلِكَ، حَتَّى تَذهَبَ العَجَلَةُ مِن قَلبِكَ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا جُعِلَ الرِّفقُ فِي شَيءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا نُزِعَ مِن شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(١). وَالعَجَلَةُ اتِّبَاعُ الهَوَى، وَالرِّفقُ اتِّبَاعُ السُّنَّةِ، فَإِذَا فَرَغتَ مِن عَمَلِكَ، وَجِلَ قَلبُكَ خَوفًا مِنَ اللهِ: أَن يَرُدَّ عَلَيكَ عَمَلَكَ، فَلَا يَقبَلَهُ مِنكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾**﴾ [المؤمنون]؛ وَمَن جَمَعَ هَذِهِ الخِصَالَ الأَربَعَةَ، كَانَ مُخلِصًا فِي عَمَلِهِ إِن شَاءَ اللهُ»(٢).

فَليَتَأَمَّلِ العَاقِلُ الفَطِنُ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفسِهِ: هَذِهِ التَّعرِيفَاتِ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَمَا تَضَمَّنَتهُ مِنْ بَدَائِعِ الفَوَائِدِ، وَفَرَائِدِ القَلَائِدِ. وَليَشغَل بِهَا كُلَّ أَفكَارِهِ، وَليَجعَلهَا نُصبَ عَينَيهِ.

فَادخُل فِيهَا بِقَلبٍ سَلِيمٍ، وَتَدَبَّرهَا تَدَبُّرًا جَيِّدًا، وَاعرِضهَا عَلَى نَفسِكَ سَاعَةً بَعدَ سَاعَةٍ، تَظهَر عَلَيكَ فَوَائِدُهَا، وَتَعُد إِلَيكَ عَوَائِدُهَا إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَهُوَ المُستَعَانُ، وَبِيَدِهِ التَّوفِيقُ وَالإِحسَانُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤) بنحوه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البيهقي في «الجامع لشعب الإيمان» (٦٤٧٥) [طبعة مكتبة الرشد - الرياض].

مَجَالَاتُ الإِخلَاصِ

١ الإِخلَاصُ فِي طَلَبِ العِلمِ:

إِنَّ أَولَى مَا صُرِفَت إِلَيهِ العِنَايَةُ، وَجَرَى المُتَسَابِقُونَ فِي مَيدَانِهِ إِلَى أَفضَلِ غَايَةٍ، وَتَنَافَسَ فِيهِ المُتَنَافِسُونَ، وَشَمَّرَ إِلَيهِ العَامِلُونَ: العِلمُ المَورُوثُ عَن خَاتَمِ المُرسَلِينَ، وَرَسُولِ رَبِّ العَالَمِينَ، الَّذِي لَا نَجَاةَ لِأَحَدٍ إِلَّا بِهِ، وَلَا فَلَاحَ لَهُ فِي دَارَيهِ إِلَّا بِالتَّعَلُّقِ بِسَبَبِهِ، الَّذِي مَن ظَفِرَ بِهِ فَقَد فَازَ وَغَنِمَ، وَمَن صُرِفَ عَنهُ فَقَد خَسِرَ وَحُرِمَ[١].

فَأَخْلِصِ النِّيَّةَ فِي طَلَبِ العِلْمِ مِنَ الِالتِبَاسِ، وَطَهِّرِ البَاطِنَ مِنَ الأَدنَاسِ، وَاقْصِدْ بِهِ وَجْهَ اللهِ الكَرِيمِ الوَهَّابِ، وَابْتَغِ مَا عِندَهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ.

«وَكَمَا لَا تَصْلُحُ الصَّلَاةُ وَالعِبَادَةُ إِلَّا بِطَهَارَةِ الظَّاهِرِ، كَذَلِكَ لَا يَصْلُحُ العِلمُ إِلَّا بِطَهَارَةِ البَاطِنِ»[٢].

---

(١) «تهذيب سنن أبي داود» (١/ ٥)، لابن قيِّم الجوزيَّة رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) «الذخائر والأعلاق» (ص٧٩)، لأبي الحسن الإشبيليِّ رَحِمَهُ اللهُ.

وَالْقَلِيلُ مِنَ الْعِلْمِ، مَعَ حُسْنِ النِّيَّةِ فِيهِ، أَنْفَعُ وَأَعْظَمُ بَرَكَةً مِنَ الْكَثِيرِ مِنْهُ، مَعَ تَرْكِ الْمُبَالَاةِ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ[١].

فَابذُل نَفسَكَ فِي الإِخلَاصِ فِي طَلَبِ العِلمِ، وَليَكُنِ الطَّلَبُ طَلَبَ دِرَايَةٍ لَا طَلَبَ رِوَايَةٍ. وَاعلَم أَنَّ الخَطَرَ عَظِيمٌ فِي طَلَبِ العِلمِ، فَمَن طَلَبَهُ لِيَصرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيهِ، وَيُجَالِسَ بِهِ الأُمَرَاءَ، وَيُبَاهِيَ بِهِ النُّظَرَاءَ، أَو يَتَصَيَّدَ بِهِ الحُطَامَ: فَتِجَارَتُهُ بَائِرَةٌ، وَصَفقَتُهُ خَاسِرَةٌ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلمًا مِمَّا يُبتَغَى بِهِ وَجهُ اللهِ عز وجل، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنيَا، لَم يَجِد عَرفَ الجَنَّةِ يَومَ القِيَامَةِ**» - يَعنِي: رِيحَهَا -[٢].

فَهَذَا «طَلَبَ العِلمَ لِكَسبِ الأَموَالِ وَالجَاهِ، فَكَانَ عُقُوبَتُهُ أَن لَا يَجِدَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»[٣].

«وَسَبَبُ هَذَا - وَاللَّهُ أَعلَمُ -: أَنَّ فِي الدُّنيَا جَنَّةً مُعَجَّلَةً، وَهِيَ مَعرِفَةُ اللهِ وَمَحَبَّتُهُ، وَالأُنسُ بِهِ وَالشَّوقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَخَشيَتُهُ وَطَاعَتُهُ؛ وَالعِلمُ النَّافِعُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: فَمَن دَلَّهُ عِلمُهُ عَلَى دُخُولِ هَذِهِ الجَنَّةِ المُعَجَّلَةِ فِي الدُّنيَا دَخَلَ الجَنَّةَ فِي الآخِرَةِ، وَمَن لَم يَشُمَّ رَائِحَتَهَا لَم يَشُمَّ رَائِحَةَ الجَنَّةِ فِي الآخِرَةِ.

وَلِهَذَا كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الآخِرَةِ: عَالِمٌ لَم يَنفَعهُ اللهُ بِعِلمِهِ، وَهُوَ مِن أَشَدِّ النَّاسِ حَسرَةً يَومَ القِيَامَةِ، حَيثُ كَانَ مَعَهُ آلَةٌ يَتَوَصَّلُ بِهَا

---

(١) «المدخل» (١/ ٢/ ١٠٤)، لابن الحاج رحمه الله.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤١٢).

(٣) «جامع المسائل» (ص٢٦٧).

إِلَى أَعلَى الدَّرَجَاتِ وَأَرفَعِ المَقَامَاتِ، فَلَم يَستَعمِلهَا إِلَّا فِي التَّوَصُّلِ إِلَى أَخَسِّ الأُمُورِ وَأَدنَاهَا وَأَحقَرِهَا، فَهُوَ كَمَن كَانَ مَعَهُ جَوَاهِرُ نَفِيسَةٌ لَهَا قِيمَةٌ، فَبَاعَهَا بِبَعرَةٍ أَو شَيءٍ مُستَقذَرٍ لَا يُنتَفَعُ بِهِ»[(١)].

قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ (ت٤٦٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَن طَلَبَ العِلمَ لِلَّهِ، فَالقَلِيلُ يَكفِيهِ إِن شَاءَ اللهُ، وَبِاللَّهِ التَّوفِيقُ»[(٢)].

وَقَالَ الحَافِظُ أَبُو العَبَّاسِ القُرطُبِيُّ (ت٦٥٦هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَعَلُّمُ العِلمِ مِن أَعظَمِ العِبَادَاتِ وَأَهَمِّهَا، فَيَجِبُ فِيهَا النِّـيَّةُ وَالإِخلَاصُ. وَقَد رَوَى أَبُـو دَاوُدَ مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَن تَعَلَّمَ عِلمًا مِمَّا يُبتَغَى بِهِ وَجهُ اللهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنيَا، لَم يَجِد عَرفَ الجَنَّةِ»[(٣)]. وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ العُلُومِ الشَّرعِيَّةِ؛ سَوَاءٌ كَانَ مِنَ العُلُومِ المَقْصُودَةِ لِعَينِهَا، أَو لِلعَمَلِ بِهَا: كَعِلمِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ وَالفِقهِ، أَو مِنَ العُلُومِ المُوصِلَةِ إِلَى ذَلِكَ: كَعِلمِ الأُصُولِ وَاللِّسَانِ. وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ، وَالتَّخَلُّصُ مِنهُ بَعِيدٌ، إِذِ الإِخلَاصُ فِي طَلَبِ العِلمِ عَسِيرٌ، وَالمُجَاهِدُ نَفسَهُ عَلَيهِ قَلِيلٌ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ»[(٤)].

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ شَيخِ الحَزَّامِيِّينَ (ت٧١١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «اطلُبِ العِلمَ لِتَبتَغِيَ بِهِ وَجهَ اللهِ تَعَالَى، وَتَعرِفَ بِهِ أَحكَامَهُ وَفَرَائِضَهُ وَحُدُودَهُ، لِتَعمَلَ وَتُعَلِّمَ غَيرَكَ مِنَ المُؤمِنِينَ، فَتُقِيمَ بِهِ دِينَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) شرح حديث: «مَا ذِئبَانِ جَائِعَانِ» (ص٣٤). (٢) «التمهيد» (٢/ ٢٨٤).
(٣) سبق تخريجه (ص٢٤). (٤) «المفهم» (٦/ ٧٠١).

بَينَ أَظهُرِ المُسلِمِينَ، فَتَكُونَ بِذَلِكَ نَاصِرًا لِلشَّرِيعَةِ وَجُندِيًّا مِن جُنُودِ اللهِ ﷻ؛ إِذَا اهتَدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، كَانَ ذَلِكَ أَفضَلَ لَكَ مِمَّا طَلَعَت عَلَيهِ الشَّمسُ، وَتَصِيرُ بِهَذِهِ النِّيَّةِ إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِن خَوَاصِّ العُلَمَاءِ، أَهلِ القُلُوبِ المُنَوَّرَةِ، الَّذِينَ وَرِثُوا ثَمَرَةَ العِلمِ، وَوَصَلُوا إِلَى حَقِيقَتِهِ، وَهُم أَهلُ الخَشيَةِ وَالمَخَافَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وَاحذَر أَن يَكُونَ قَلبُكَ كَقُلُوبِ عُلَمَاءِ الدُّنيَا؛ فَإِنَّ قُلُوبَهُم لَاهِيَةٌ، وَعَلَى الدُّنيَا وَالمَنَاصِبِ مُقبِلَةٌ، يَفرَحُونَ بِوُجُودِ الدُّنيَا، وَيَحزَنُونَ عَلَى فَوَاتِهَا، يُحِبُّونَ الرِّفعَةَ وَالسُّمعَةَ؛ فَأُولَئِكَ صَارَ العِلمُ لَهُم كَسبًا يَنَالُونَ بِهِ دُنيَاهُم وَمَنَاصِبَهُم؛ إِذ لِكُلِّ امرِىءٍ مَا نَوَى، وَمَن عَامَلَ اللهَ لَم يَخسَر.

فَطُوبَى لِمَن كَانَت مُعَامَلَتُهُ مَعَ اللهِ ﷻ، وَرُزِقَ الزُّهدَ فِي الدُّنيَا وَالإِقبَالَ عَلَى الآخِرَةِ، وَأَرَادَ اللهَ ﷻ بِعِلمِهِ وَعَمَلِهِ، وَسَائِرِ سِعَايَاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ»[1].

وَقَالَ ابنُ جُمَاعَةَ (ت٧٣٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «حُسنُ النِّيَّةِ فِي طَلَبِ العِلمِ: بِأَن يَقصِدَ بِهِ وَجهَ اللهِ تَعَالَى، وَالعَمَلَ بِهِ، وَإِحيَاءَ الشَّرِيعَةِ، وَتَنوِيرَ قَلبِهِ، وَتَحلِيَةَ بَاطِنِهِ، وَالقُربَ مِنَ اللهِ تَعَالَى يَومَ القِيَامَةِ، وَالتَّعَرُّضَ لِمَا أَعَدَّ لِأَهلِهِ مِن رِضوَانِهِ، وَعَظِيمِ فَضلِهِ.

وَلَا يَقصِدُ بِهِ الأَغرَاضَ الدُّنيَوِيَّةَ: مِن تَحصِيلِ الرِّيَاسَةِ، وَالجَاهِ،

(١) «مفتاح طريق الأولياء» (ص٣٢ - ٣٣)، باختصار.

وَالمَالِ، وَمُبَاهَاةِ الأَقرَانِ، وَتَعظِيمِ النَّاسِ لَهُ، وَتَصدِيرِهِ فِي المَجَالِسِ، وَنَحوِ ذَلِكَ، فَيَستَبدِلَ بِهِ الأَدنَى بِالَّذِي هُوَ خَيرٌ.

وَالعِلمُ عِبَادَةٌ مِنَ العِبَادَاتِ، وَقُربَةٌ مِنَ القُرَبِ، فَإِن خَلُصَت فِيهِ النِّيَّةُ، قُبِلَ وَزَكَا وَنَمَت بَرَكَتُهُ؛ وَإِن قَصَدَ بِهِ غَيرَ وَجهِ اللهِ تَعَالَى، حَبِطَ وَضَاعَ وَخَسِرَت صَفقَتُهُ، وَرُبَّمَا تَفُوتُهُ تِلكَ المَقَاصِدُ، وَلَا يَنَالُهَا؛ فَيَخِيبَ قَصدُهُ، وَيَضِيعَ سَعيُهُ»(١).

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ جُزَيٍّ الكَلبِيُّ (ت ٧٤١هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنَ النِّيَّةِ الخَبِيثَةِ: مَن يَطلُبُ العِلمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَو لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَو لِيَصرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيهِ، لِأَنَّ هَذَا خِلَافُ مَا أُمِرَ بِهِ، وَالمَطلُوبُ مِمَّن تَعَلَّمَ العِلمَ: العَمَلُ بِهِ فِي خَاصَّةِ نَفسِهِ، أَو تَعلِيمُ جَاهِلٍ، أَو إِرشَادُ ضَالٍّ، وَشِبهُ ذَلِكَ»(٢).

وَقَالَ العَلَّامَةُ الذَّهَبِيُّ (ت ٧٤٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «تَصحِيحُ النِّيَّةِ مِنْ طَالِبِ العِلمِ مُتَعَيِّنٌ، فَمَنْ طَلَبَ الحَدِيثَ لِلمُكَاثَرَةِ أَوِ المُفَاخَرَةِ، أَو لِيَرْوِيَ، أَو لِيَتَنَاوَلَ الوَظَائِفَ، أَو لِيُثْنَى عَلَيهِ وَعَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَقَد خَسِرَ، وَإِنْ طَلَبَهُ لِلَّهِ، وَلِلعَمَلِ بِهِ، وَلِلْقُربَةِ بِكَثرَةِ الصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، وَلِنَفْعِ النَّاسِ، فَقَد فَازَ، وَإِن كَانَتِ النِّيَّةُ مَمزُوجَةً بِالأَمرَينِ؛ فَالحُكمُ لِلغَالِبِ.

وَإِن كَانَ طَلَبُهُ لِفَرْطِ المَحَبَّةِ فِيهِ، مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الأَجرِ وَعَن

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١١٢- ١١٤)، باختصار.

(٢) «الأنوار السَّنِيَّة في الألفاظ السُّنِّيَّة» (ص٢٤٥)، بتصرُّف يسير.

بَنِي آدَمَ، فَهَذَا كَثِيرًا مَا يَعتَرِي طَلَبَةَ العُلُومِ؛ فَلَعَلَّ النِّيَّةَ أَن يَرزُقَهَا اللَّهُ بَعدُ، وَأَيضًا فَمَن طَلَبَ العِلمَ لِلآخِرَةِ كَسَاهُ العِلمُ خَشيَةً لِلَّهِ، وَاستَكَانَ وَتَوَاضَعَ، وَمَن طَلَبَهُ لِلدُّنيَا تَكَبَّرَ بِهِ وَتَكَثَّرَ وَتَجَبَّرَ، وَازدَرَى بِالمُسلِمِينَ العَامَّةِ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمرِهِ إِلَى سَفَالٍ وَحَقَارَةٍ»[١].

وَقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ (ت١٣٧٦هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَتَعَيَّنُ عَلَى أَهلِ العِلمِ مِنَ المُتَعَلِّمِينَ وَالمُعَلِّمِينَ: أَن يَجعَلُوا أَسَاسَ أَمرِهِمُ الَّذِي يَبنُونَ عَلَيهِ حَرَكَاتِهِم وَسَكَنَاتِهِم: الإِخلَاصَ الكَامِلَ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِهَذِهِ العِبَادَةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ العِبَادَاتِ وَأَكمَلُهَا وَأَنفَعُهَا وَأَعَمُّهَا نَفعًا، وَيَتَفَقَّدُوا هَذَا الأَصلَ النَّافِعَ فِي كُلِّ دَقِيقٍ مِن أُمُورِهِم وَجَلِيلٍ، فَإِن دَرَسُوا أَو دَارَسُوا، أَو بَحَثُوا أَو نَاظَرُوا، أَو أَسمَعُوا أَو استَمَعُوا، أَو كَتَبُوا أَو حَفِظُوا، أَو كَرَّرُوا دُرُوسَهُمُ الخَاصَّةَ، أَو رَاجَعُوا عَلَيهَا أَو عَلَى غَيرِهَا الكُتُبَ الأُخرَى، أَو جَلَسُوا مَجلِسَ عِلمٍ، أَو نَقَلُوا أَقدَامَهُم لِمَجَالِسِ العِلمِ، أَوِ اشتَرَوا كُتُبًا، أَو مَا يُعِينُ عَلَى العِلمِ، كَانَ الإِخلَاصُ لِلَّهِ وَاحتِسَابُ أَجرِهِ وَثَوَابِهِ مُلَازِمًا لَهُم، لِيَصِيرَ اشتِغَالُهُم كُلُّهُ قُوَّةً وَطَاعَةً، وَسَيرًا إِلَى اللهِ وَإِلَى كَرَامَتِهِ»[٢].

وَقَالَ العَلَّامَةُ بَكرُ أَبُو زَيدٍ (ت١٤٢٩هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنْ فَقَدَ العِلمُ إِخلَاصَ النِّيَّةِ، انتَقَلَ مِن أَفضَلِ الطَّاعَاتِ إِلَى أَحَطِّ المُخَالَفَاتِ، وَلَا شَيءَ يُحَطِّمُ العِلمَ مِثلَ: الرِّيَاءِ؛ رِيَاءِ شِركٍ، أَو رِيَاءِ إِخلَاصٍ،

---

(١) «كفاية الحَفَظَة شرح المقدِّمَة الموقِظَة في علم مصطلح الحديث» (ص٢٧٤ - ٢٧٨)، شرح: الشيخ سليم الهلالي.

(٢) «المجموعة الكاملة» (٧/ ٤٤٩).

وَمِثلَ التَّسمِيعِ: بِأَن يَقُولَ مُسَمِّعًا: عَلِمتُ وَحَفِظتُ، وَعَلَيهِ؛ فَالتَزِمِ التَّخَلُّصَ مِن كُلِّ مَا يَشُوبُ نِيَّتَكَ فِي صِدقِ الطَّلَبِ: كَحُبِّ الظُّهُورِ، وَالتَّفَوُّقِ عَلَى الأَقرَانِ، وَجَعلِهِ سُلَّمًا لِأَغرَاضٍ وَأَعرَاضٍ: مِن جَاهٍ، أَو مَالٍ، أَو تَعظِيمٍ، أَو سُمعَةٍ، أَو طَلَبِ مَحمَدَةٍ، أَو صَرفِ وُجُوهِ النَّاسِ إِلَيكَ؛ فَإِنَّ هَذِهِ وَأَمثَالَهَا، إِذَا شَابَتِ النِّيَّةَ، أَفسَدَتهَا، وَذَهَبَت بَرَكَةُ العِلمِ، وَلِهَذَا يَتَعَيَّنُ عَلَيكَ أَن تَحمِيَ نِيَّتَكَ مِن شَوبِ الإِرَادَةِ لِغَيرِ اللهِ تَعَالَى، بَل وَتَحمِيَ الحِمَى؛ فَاستَمسِك - رَحِمَكَ اللهُ تَعَالَى - بِالعُروَةِ الوُثقَى العَاصِمَةِ مِن هَذِهِ الشَّوَائِبِ؛ بِأَن تَكُونَ - مَعَ بَذلِ الجَهدِ فِي الإِخلَاصِ - شَدِيدَ الخَوفِ مِن نَوَاقِضِهِ، عَظِيمَ الافتِقَارِ وَالالتِجَاءِ إِلَيهِ سُبحَانَهُ»[١].

وَقَولُهُ: «وَتَحمِي الحِمَى»: تَحمِي النِّيَّةَ، وَتَحمِي مَا حَولَهَا، وَحِمَى الشَّيءِ وَمَا حَولَهُ[٢]، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ»**[٣].

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبدِ القَوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَا تَطلُبَنَّ العِلمَ لِلمَالِ وَالرِّيَا ... فَإِنَّ مِلَاكَ الأَمرِ فِي حُسنِ مَقْصَدِ[٤]

وَالمَعنَى: وَلَا تَطلُبَنَّ العِلمَ لِنَيلِ المَالِ الَّذِي مَآلُهُ إِلَى التُّرَابِ، وَلَا لِطَلَبِ عِمَارَةِ الدُّنيَا الَّتِي سَبِيلُهَا إِلَى الخَرَابِ، وَلَا لِلرِّيَاءِ

---

(١) «حلية طالب العلم» (ص٩ - ١١) باختصار، للعلَّامة بكر أبو زيد رحمه الله.
(٢) «شرح حلية طالب العلم» (ص٢٨)، للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.
(٣) قطعة من حديث: رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.
(٤) «الألفية في الآداب الشرعية» (ص٩٩).

وَالسُّمعَةِ؛ فَتَحصُلَ عَلَى الخُسرَانِ مِن رَبِّ الأَربَابِ، وَتَضمَنَ التَّبِعَةَ يَومَ الحِسَابِ.

فَإِذَا عَلِمتَ هَذَا، فَقَد ظَهَرَ لَكَ أَنَّ مِلَاكَ الأَمرِ: فِي حُسنِ القَصدِ وَالإِخلَاصِ لِلَّهِ، وَرَفضِ شَائِبَةِ الرِّيَاءِ وَالسُّمعَةِ وَالأَغرَاضِ الدَّنِيَّةِ، وَالأَعرَاضِ الدُّنيَوِيَّةِ[١].

قَالَ العَلَّامَةُ صَالِحُ الفَوزَانُ حَفِظَهُ الرَّحمَنُ: اطلُبِ العِلمَ لِلَّهِ لَا تَطلُبهُ لِلمَالِ، لِأَنَّكَ إِن طَلَبتَهُ لِلمَالِ تَكُن مِمَّن طَلَبَ الدُّنيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، اطلُبِ العِلمَ مِن أَجلِ إِرضَاءِ اللهِ ﷻ، لَا مِن أَجلِ المَالِ، المَالُ تَابِعٌ وَلَيسَ مَقصُودًا، وَالَّذِي يَطلُبُ العِلمَ وَقَصدُهُ بِهِ المَالُ، هَذَا قَصدُهُ دَنِيٌّ، وَهَذَا مِنَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنيَا.

الأَمرُ الثَّانِي: احذَرِ الرِّيَاءَ، لَا تَطلُبِ العِلمَ مِن أَجلِ أَن يَمدَحَكَ النَّاسُ، أَو مِن أَجلِ أَن تَصِيرَ عَالِمًا، اترُك هَذَا القَصدَ، اطلُبِ العِلمَ لَيسَ لِأَجلِ الرِّيَاءِ، وَلَا لِأَجلِ الرِّيَاسَةِ، وَلَا لِأَجلِ المَدحِ، اطلُبهُ لِوَجهِ اللهِ ﷻ[٢].

فَلَا بُدَّ مِنَ الإِخلَاصِ لِتَنَالَ الخَلَاصَ، وَإِلَّا وَقَعتَ فِي قَيدِ الأَقفَاصِ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ[٣].

اللَّهُمَّ يَسِّر لَنَا طَرِيقًا إِلَى العِلمِ، وَتَوفِيقًا إِلَى الفَهمِ، وَأَصلِح نِيَّاتِنَا فِيهِمَا، إِنَّكَ لِمَا تَشَاءَ فَعَّالٌ، وَأَنتَ حَسبُنَا وَنِعمَ الوَكِيلُ[٤].

---

(١) «تحفة الأحباب شرح نظم الآداب» (ص١٢٤).

(٢) «إتحاف الطلَّاب بشرح منظومة الآداب» (ص٩٤١ - ٩٤٢)، للعلامة الفوزان ﷾.

(٣) «غذاء الألباب» (٢/ ٥١٩).

(٤) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٩/ ٣٦).

٢ الإخلاص في تلاوة القرآن:

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، وَسَلُوا اللهَ تعالى بِهِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجِيءَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ النَّاسَ بِهِ**»(١).

وَقَد وَقَعَ مَا أَخبَرَ بِهِ الصَّادِقُ المَصدُوقُ ﷺ. فَيَنبَغِي لِلمُسلِمِ أَن يَقرَأَ القُرآنَ لِوَجهِ اللهِ، لِيَنَالَ الأُجُورَ العَظِيمَةَ وَالدَّرَجَاتِ العَالِيَةَ.

فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ: عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا**»(٢).

وَالمُرَادُ: نِفَاقُ العَمَلِ، لَا نِفَاقُ الِاعتِقَادِ(٣).

قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ رحمه الله: «وَحَسبُكَ بِمَا تَرَى مِن تَضيِيعِ حُدُودِ القُرآنِ، وَكَثرَةِ تِلَاوَتِهِ فِي زَمَانِنَا هَذَا بِالأَمصَارِ وَغَيرِهَا، مَعَ فِسقِ أَهلِهَا. وَاللَّهَ أَسأَلُهُ العِصمَةَ وَالتَّوفِيقَ وَالرَّحمَةَ، فَذَلِكَ مِنهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»(٤).

قُلتُ: هَذَا فِي زَمَانِهِ، وَأَمَّا فِي زَمَانِنَا، فَالأَمرُ أَعظَمُ مِن ذَلِكَ. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ.

٣ الإخلاص في التوحيد:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ: لَا**

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٤٥)، والترمذي (٢٩١٧). وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٤١).

(٢) رواه أحمد (٦٦٣٣ و٦٦٣٤ و٦٦٣٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٧٥٠).

(٣) «بحر الفوائد» (ص١٦١).

(٤) «الاستذكار» (٢/ ٥٠١).

إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا، دَخَلَ الجَنَّةَ»(١).

فَإِنَّ الإِخلَاصَ يَنفِي أَسبَابَ دُخُولِ النَّارِ؛ فَمَن دَخَلَ النَّارَ مِنَ القَائِلِينَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لَم يُحَقِّق إِخلَاصَهَا المُحَرِّمَ لَهُ عَلَى النَّارِ؛ بَل كَانَ فِي قَلبِهِ نَوعٌ مِنَ الشِّركِ الَّذِي أَوقَعَهُ فِيمَا أَدخَلَهُ النَّارَ.

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا قَالَ عَبْدٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَطُّ مُخْلِصًا، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى العَرْشِ، مَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ»**(٢).

فَقَد شَرَطَ لِقَبُولِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وَنَفعِهَا عِندَ اللهِ: كَونَ القَائِلِ مُخلِصًا وَمُعتَقِدًا لِأُلُوهِيَّةِ رَبِّهِ، وَأَنْ يَجتَنِبَ الكَبَائِرَ كُلَّهَا. فَتَدَبَّرْ وَتَذَكَّرْ وَتَنَبَّهْ. وَفَّقَنِي اللهُ تَعَالَى وَإِيَّاكَ لِمَرضَاتِهِ(٣).

وَعَن مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَن شَهِدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُخلِصًا مِن قَلبِهِ، دَخَلَ الجَنَّةَ»**(٤).

قَولُهُ: «**مُخلِصًا**»: أَي: سَالِمًا مِن كُلِّ شَوبٍ، فَلَا يَشُوبُهَا رِيَاءٌ وَلَا سُمعَةٌ، بَل هِيَ شَهَادَةُ يَقِينٍ.

قَولُهُ: «**مِن قَلبِهِ**»، لِأَنَّ المَدَارَ عَلَى القَلْبِ، كَمَا قَالَ ﷺ: **«... أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَت فَسَدَ**

---

(١) رواه البزار «كشف الأستار» (٧)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «الصَّحيحة» (٢٣٥٥).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٩٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٧٣).
(٣) «مفتاح الجنة» (ص ٣١).
(٤) رواه أحمد (٥/ ٣٦ رقم ٢٢١٩٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصَّحيحة» (٢٣٥٥).

الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[١].

وَمَن قَالَ كَلِمَةَ الإِخلَاصِ خَالِصًا مِن قَلبِهِ، فَلَا بُدَّ أَن يَطلُبَ رِضَى هَذَا المَعبُودِ بِاتِّبَاعِ الأَوَامِرِ وَاجتِنَابِ النَّوَاهِي[٢]. لَا بُدَّ مِن أَعمَالٍ يَتَعَبَّدُ بِهَا الإِنسَانُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ[٣].

وَعَن عِتبَانَ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **فَإِنَّ اللهَ قَد حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ**»[٤]. وَهَذَا فَضلٌ عَظِيمٌ؛ نَسأَلُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا: أَن يَجعَلَنَا مِن أَهلِهِ[٥].

وَ«المُرَادُ بِالقَولِ هُنَا: القَولُ الَّذِي مَعَهُ تَمَامُ الشُّرُوطِ؛ كَقَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**»[٦]، يَعنِي: إِذَا أَتَى بِبَقِيَّةِ الأَركَانِ وَالوَاجِبَاتِ، فَيَكُونُ مَعنَى قَولِهِ هُنَا: «**مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» يَعنِي: بِاجتِمَاعِ شُرُوطِهَا، وَبِالإِتيَانِ بِلَازِمِهَا»[٧].

«وَمَن طَلَبَ وَجهًا، فَلَا بُدَّ أَن يَعمَلَ كُلَّ مَا فِي وُسعِهِ لِلوُصُولِ إِلَيهِ، لِأَنَّ مُبتَغِي الشَّيءِ يَسعَى فِي الوُصُولِ إِلَيهِ. فَالحَدِيثُ وَاضِحُ الدِّلَالَةِ عَلَى شَرطِيَّةِ العَمَلِ، لِمَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبتَغِي وَجهَ اللهِ»[٨].

---

(١) قطعة من حديث: أخرجه البخاري (٥٢ و٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ٣٤٤ - ٣٤٥)، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٣٣).

(٤) رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

(٥) «التمهيد لشرح كتاب التوحيد» (ص٢٧)، لصاحب المعالي: العلَّامة صالح بن عبد العزيز آل الشَّيخ حَفِظَهُ اللَّهُ.

(٦) رواه الترمذي (٨٨٩) من حديث عبد الرحمن بن يعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «التعليق على هداية الرواة» (٣/ ١١٤).

(٧) «التمهيد لشرح كتاب التوحيد» (ص٢٧).

(٨) «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ٧٧) ببعض تصرُّف، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَكُلُّ مَن قَالَهَا يَبتَغِي وَجهَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يُحَرِّمُهُ عَلَى النَّارِ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ إِذَا قَالَهَا يَبتَغِي بِهَا وَجهَ اللهِ، فَإِنَّهُ سَيَقُومُ بِمُقتَضَاهَا، وَيَعمَلُ بِمَا تَقتَضِيهِ هَذِهِ الكَلِمَةُ العَظِيمَةُ: مِن أَدَاءِ الوَاجِبِ، وَتَركِ المُحَرَّمِ؛ وَالإِنسَانُ إِذَا أَدَّى الوَاجِبَ وَتَرَكَ المُحَرَّمَ: أَحَلَّ الحَلَالَ وَحَرَّمَ الحَرَامَ، وَقَامَ بِالفَرَائِضِ، وَاجتَنَبَ النَّوَاهِيَ، فَإِنَّ هَذَا مِن أَهلِ الجَنَّةِ: يَدخُلُ الجَنَّةَ، وَيُحَرِّمُ اللهُ عَلَيهِ النَّارَ(١).

فَمَن «زَنَى، أَو شَرِبَ الخَمرَ، أَو سَرَقَ، فَإِذَا فَعَلَ شَيئًا مِن ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ حِينَ فَعَلَهُ: أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ؛ فَهُوَ كَاذِبٌ فِي زَعمِهِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَزنِي الزَّانِي حِينَ يَزنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ**»، فَضلًا عَن أَن يَكُونَ مُبتَغِيًا وَجهَ اللهِ»(٢).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَيسَ التَّوحِيدُ مُجَرَّدَ إِقرَارِ العَبدِ بِأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ وَمَلِيكُهُ، كَمَا كَانَ عُبَّادُ الأَصنَامِ مُقِرِّينَ بِذَلِكَ وَهُم مُشرِكُونَ، بَلِ التَّوحِيدُ يَتَضَمَّنُ - مِن مَحَبَّةِ اللهِ، وَالخُضُوعِ لَهُ، وَالذُّلِّ لَهُ، وَكَمَالِ الإِنقِيَادِ لِطَاعَتِهِ، وَإِخلَاصِ العِبَادَةِ لَهُ، وَإِرَادَةِ وَجهِهِ الأَعلَى بِجَمِيعِ الأَقوَالِ وَالأَعمَالِ، وَالمَنعِ، وَالعَطَاءِ، وَالحُبِّ، وَالبُغضِ-: مَا يَحُولُ بَينَ صَاحِبِهِ وَبَينَ الأَسبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَى المَعَاصِي، وَالإِصرَارِ عَلَيهَا، وَمَن عَرَفَ هَذَا، عَرَفَ قَولَ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ**»»(٣).

---

(١) «شرح رياض الصالحين» (٣/ ٣١١).

(٢) «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ٧٨) ببعض تصرُّف، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) «تهذيب مدارج السالكين» (١/ ٢٩٨ - ٢٩٩).

٤ الإخلاص في النية:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١).

والمراد التنبيه على تصحيح النية، وتصفية الطوية، بالإخلاص في الأعمال لرب البرية(٢).

وأنشد عبد الله الخجندي رحمه الله لنفسه:

اغرس نوى البر بأرض التقى ... به ثمار الخل مجنية
وأخلص النية في سقيها ... فإنما الأعمال بالنية(٣)

فببركة «حسن النية، ينال الرتبة العلية من العلم والعمل، وفيض اللطائف، وأنواع الحكم، وتنوير القلب، وانشراح الصدر؛ وتوفيق العزم، وإصابة الحق، وحسن الحال، والتسديد في المقال، وعلو الدرجات يوم القيامة»(٤).

ولله در القائل:

عمل إن لم يوافق نية ... فهو غرس لا يرى منه ثمر
«إنما الأعمال بالنيات» قد ... نصه عن سيد الخلق عمر(٥)

وهذا الحديث هو ميزان الأعمال الباطنة. «وأن التقرب إلى الله، إنما يكون بالإخلاص في الدين لله»(٦).

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).
(٢) «الفتوحات الربانية» (١/ ٥٣ - ٥٤).
(٣) المصدر السابق.
(٤) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٧).
(٥) «نفح الطيب» (٣/ ٢٦٩)، للتلمساني رحمه الله.
(٦) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٥٠).

وَهَذَا الحَدِيثُ مِن أَجمَعِ الكَلِمِ الجَوَامِعِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا، فَإِنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَعمَلُهُ عَامِلٌ مِن خَيرٍ وشَرٍّ هُوَ بِحَسَبِ مَا نَوَاهُ، فَإِن قَصَدَ بِعَمَلِهِ مَقصُودًا حَسَنًا كَانَ لَهُ ذَلِكَ المَقصُودُ الحَسَنُ، وَإِن قَصَدَ بِهِ مَقصُودًا سَيِّئًا كَانَ لَهُ مَا نَوَاهُ(١).

وَحَقِيقٌ «بِالمُؤمِنِ الَّذِي يُرِيدُ نَجَاةَ نَفسِهِ وَنَفعَهَا، أَن يَفهَمَ مَعنَى هَذَا الحَدِيثِ، وَأَن يَكُونَ العَمَلُ بِهِ نُصبَ عَينَيهِ فِي جَمِيعِ أَحوَالِهِ وَأَوقَاتِهِ»(٢).

قَالَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ الحُسَينِ الآجُرِّيُّ (ت ٣٦٠هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلَم - رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ -: أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ أَصلٌ مِن أُصُولِ الدِّينِ، لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ مِنَ المُسلِمِينَ أَن يُؤَدِّيَ مَا افتَرَضَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيهِ مِن فَرِيضَةٍ، وَلَا يَتَقَرَّبُ إِلَيهِ بِنَافِلَةٍ، إِلَّا بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ صَادِقَةٍ، لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمعَةَ، وَلَا يُرِيدُ بِهَا إِلَّا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يُشرِكُ فِيهَا مَعَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ غَيرَهُ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَقبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلَّا مَا أُخلِصَ لَهُ وَأُرِيدَ بِهِ وَجهُهُ، لَا يَختَلِفُ فِي هَذَا العُلَمَاءُ»(٣).

قَولُهُ ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» أَي: صَلَاحُ الأَعمَالِ وَفَسَادُهَا، بِحَسَبِ صَلَاحِ النِّيَّاتِ وَفَسَادِهَا، كَقَولِهِ ﷺ: «**وَإِنَّمَا الأَعمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**»(٤)؛ أَي: إِنَّ صَلَاحَهَا وَفَسَادَهَا، وَقَبُولَهَا وَعَدَمَهُ، بِحَسَبِ الخَاتِمَةِ(٥).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٥٤). (٢) «بهجة قلوب الأبرار» (ص٩).
(٣) «كتاب الأربعين حديثًا» (ص١٨)، للآجري رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٤) قطعة من حديث: رواه البخاري (٦٦٠٧)، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٦٥).

فَأَخْبَرَ ﷺ «أَنَّ الْأَعْمَالَ تَابِعَةٌ لِمَقَاصِدِهَا وَنِيَّاتِهَا، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ ظَاهِرِ قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، إِلَّا مَا نَوَاهُ وَأَبْطَنَهُ، لَا مَا أَعْلَنَهُ وَأَظْهَرَهُ»(١).

فَمَن نَوَى فِعلَ الخَيرِ، وَقَصَدَ بِهِ المَقَاصِدَ العُلَيَا - وَهِيَ مَا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ -، فَلَهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالجَزَاءِ، الجَزَاءُ الكَامِلُ الأَوفَى. وَمَن نَقَصَت نِيَّتُهُ وَقَصدُهُ، نَقَصَ ثَوَابُهُ. وَمَن تَوَجَّهَت نِيَّتُهُ إِلَى غَيرِ هَذَا المَقصَدِ الجَلِيلِ، فَاتَهُ الخَيرُ، وَحَصَلَ عَلَى مَا نَوَى مِنَ المَقَاصِدِ الدَّنِيئَةِ النَّاقِصَةِ(٢).

«فَلْيُرَاقِب كُلٌّ نَفسَهُ: هَل أَرَادَ بِحِفظِهِ لِلقُرآنِ، أَو طَلَبِهِ لِلعِلمِ، أَو قِيَامِهِ اللَّيلَ، أَو أَيِّ عَمَلٍ كَانَ، هَل أَرَادَ بِهِ وَجهَ اللهِ تَعَالَى؟ أَو أَرَادَ مَدحَ النَّاسِ وَثَنَاءَهُم، وَالنَّجَاةَ مِن ذَمِّهِم؟!

هَل أَرَادَ بِعَمَلِهِ دُخُولَ الجِنَانِ، وَالنَّظَرَ إِلَى وَجهِ رَبِّهِ الرَّحمَنِ، وَالتَّنَعُّمَ بِالحُورِ العِينِ، وَمُجَاوَرَةَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ؟ أَم أَرَادَ بِعَمَلِهِ مَالًا أَو مَنصِبًا أَو جَاهًا، أَو أَيَّ مَقصَدٍ آخَرَ مِنَ المَقَاصِدِ الدُّنيَوِيَّةِ الدَّنِيئَةِ؟!

فَلْيُصَحِّح كُلٌّ عَمَلَهُ قَبلَ الشُّرُوعِ فِيهِ، وَلْيَنظُر مَاذَا أَرَادَ بِهِ؟ وَلتَكُن نِيَّتُهُ لِلَّهِ خَالِصَةً»(٣).

وَقَالَ ابنُ الحَاجِّ (ت٧٣٧هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وَاعْلَمْ أَنَّ إِرَادَتَكَ الْعَمَلَ عَمَلٌ، فَانْظُرْ فِي إِرَادَتِكَ حَتَّى يَصِحَّ لَكَ عَمَلُكَ، وَيَرَاكَ اللهُ لِنِيَّتِكَ طَالِبًا، وَلَهَا مُصَحِّحًا كَمَا يَرَاكَ فِي عَمَلِكَ مُخْلِصًا، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ.

---

(١) «إعلام الموقِّعين» (٣/ ٢١٥).
(٢) «بهجة قلوب الأبرار» (ص٧).
(٣) «الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ» (ص٥٠ - ٥١).

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ ظَفِرْتَ بِتَصْحِيحِ النِّيَّةِ مَعَ قَلِيلِ الْعَمَلِ، رَبِحْتَ عَمَلَكَ، وَظَفِرْتَ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ عَدُوَّكَ يَنْظُرُ إِلَى ابْتِدَاءِ نِيَّتِكَ، وَابْتِدَاءِ عَمَلِكَ، وَقَدْ يَخْفَى عَلَيْكَ سَقَمُ نِيَّتِكَ، كَمَا يَخْفَى عَلَيْكَ سَقَمُ غَيْرِكَ، فَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ نِيَّتُكَ سَقِيمَةً، فَقُمْ عَلَى تَصْحِيحِهَا، فَإِنَّ الْعَمَلَ تَابِعٌ لِلنِّيَّةِ: إِنْ صَحَّتْ صَحَّ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ»[١].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَأَمَّا النِّيَّةُ: فَهِيَ رَأْسُ الْأَمْرِ وَعَمُودُهُ، وَأَسَاسُهُ وَأَصْلُهُ الَّذِي عَلَيْهِ يُبْنَى؛ فَإِنَّهَا رُوحُ الْعَمَلِ وَقَائِدُهُ وَسَائِقُهُ، وَالْعَمَلُ تَابِعٌ لَهَا: يُبْنَى عَلَيْهَا، يَصِحُّ بِصِحَّتِهَا، وَيَفْسُدُ بِفَسَادِهَا، وَبِهَا يُسْتَجْلَبُ التَّوْفِيقُ، وَبِعَدَمِهَا يَحْصُلُ الْخِذْلَانُ، وَبِحَسَبِهَا تَتَفَاوَتُ الدَّرَجَاتُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»[٢].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالنِّيَّةُ رُوحُ الْعَمَلِ وَلُبُّهُ وَقِوَامُهُ، وَهُوَ تَابِعٌ لَهَا: يَصِحُّ بِصِحَّتِهَا، وَيَفْسُدُ بِفَسَادِهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ قَالَ كَلِمَتَيْنِ كَفَتَا وَشَفَتَا، وَتَحْتَهُمَا كُنُوزُ الْعِلْمِ، وَهُمَا قَوْلُهُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» فَبَيَّنَ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى: أَنَّ الْعَمَلَ لَا يَقَعُ إِلَّا بِالنِّيَّةِ، وَلِهَذَا لَا يَكُونُ عَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، ثُمَّ بَيَّنَ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ: أَنَّ الْعَامِلَ لَيْسَ لَهُ مِنْ عَمَلِهِ إِلَّا مَا نَوَاهُ، وَهَذَا يَعُمُّ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْأَيْمَانَ وَالنُّذُورَ، وَسَائِرَ الْعُقُودِ وَالْأَفْعَالِ»[٣].

وَقَالَ الشَّوكَانِيُّ (ت ١٢٥٠هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلَم أَنَّ عُمدَةَ الأَعمَالِ الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَيهَا صِحَّتُهَا أَو فَسَادُهَا: هِيَ النِّيَّةُ وَالإِخلَاصُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمَا

---

(١) «المدخل» (٢/ ١/ ٥٣).

(٢) «إعلام الموقِّعين عن رب العالمين» (٤/ ٢٥٠).

(٣) المصدر السابق (٣/ ١٤٨).

مِنَ الأُمُورِ البَاطِنَةِ. فَمَن لَم تَكُن نِيَّتُهُ صَحِيحَةً، لَم يَصِحَّ عَمَلُهُ الَّذِي عَمِلَهُ، وَلَا أَجرُهُ المُترَتِّبُ عَلَيهِ، وَمَن لَم يُخلِص عَمَلَهُ لِلَّهِ سُبحَانَهُ، فَهُوَ مَردُودٌ عَلَيهِ، مَضرُوبٌ بِهِ فِي وَجهِهِ، وَذَلِكَ كَالعَامِلِ الَّذِي يَشُوبُ نِيَّتَهُ بِالرِّيَاءِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَة]»[1].

وَقَالَ صِدِّيقُ بنُ حَسَنِ خَانَ (ت١٣٠٧هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «مَن أَرَادَ المَوَاهِبَ السَّنِيَّةَ أَخلَصَ النِّيَّةَ، وَمَن أَخلَصَ الهِجرَةَ ضَاعَفَ الإِخلَاصُ أَجرَهُ؛ وَإِنَّمَا تُنَالُ المَطَالِبُ عَلَى قَدرِ هِمَّةِ الطَّالِبِ، وَإِنَّمَا تُدرَكُ المَقَاصِدُ عَلَى قَدرِ عَنَاءِ القَاصِدِ»[2].

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

عَلَى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتِي العَزَائِمُ ... وَتَأتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ[3]

وَقَالَ العَلَّامَةُ السِّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

وَنِيَّتُنَا شَرْطٌ لِسَائِرِ العَمَلْ ... بِهَا الصَّلَاحُ وَالفَسَادُ لِلعَمَلْ[4]

قَالَ حَافِظٌ الحَكَمِيُّ (ت١٣٧٧هـ) رَحِمَهُ اللهُ:

وَالنِّيَّةَ اجعَل لِوَجهِ اللهِ خَالِصَةً ... إِنَّ البِنَاءَ بِدُونِ الأَصلِ لَم يَقُمِ[5]

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

وَكُنْ حَرِيصًا عَلَى الإِخلَاصِ فِي عَمَلٍ ... فَإِنَّمَا العَمَلُ الزَّاكِي بِنِيَّاتِ[6]

---

(١) «قطر الولي على حديث الولي» (ص٢٩٣ - ٢٩٤).
(٢) «عون الباري» (١/ ٣٤)، باختصار.
(٣) «ديوان المُتَنَبِّي» (ص١٣١).
(٤) «القواعد الفقهية» (ص١١١).
(٥) «المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية» (ص١٤، البيت رقم ٦٨).
(٦) «مرقاة المفاتيح» (١/ ٤٧).

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «النِّيَّاتُ تَخْتَلِفُ اختِلَافًا عَظِيمًا، وَتَتَبَايَنُ تَبَايُنًا بَعِيدًا، كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ.

مِنَ النَّاسِ مَن نِيَّتُهُ فِي القِمَّةِ فِي أَعلَى شَيءٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَن نِيَّتُهُ فِي القُمَامَةِ فِي أَخَسِّ شَيءٍ وَأَدنَى شَيءٍ»(١).

فَيَجِبُ عَلَى مَن نَصَحَ نَفسَهُ: أَن يَكُونَ اهتِمَامُهُ بِتَصحِيحِ نِيَّتِهِ، وَتَخلِيصِهَا مِنَ الشَّوَائِبِ، فَوقَ اهتِمَامِهِ بِكُلِّ شَيءٍ، لِأَنَّ الأَعمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ امرِئٍ مَا نَوَى(٢).

٥ الإِخلَاصُ فِي الصَّومِ:

عَن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَامَ يَومًا فِي سَبِيلِ اللهِ، جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ، بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**»(٤).

يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ: فَضِيلَةُ الصَّومِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفَضِيلَةُ الإِخْلَاصِ؛ وَأَنَّ اليَومَ المُخلَصَ فِيهِ: يَكُونُ ثَوَابُهُ أَكبَرَ(٥).

٦ الإِخلَاصُ فِي الصَّدَقَةِ:

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ

---

(١) «شرح رياض الصالحين» (١/ ١٨). (٢) «الدرر السنية» (٢/ ٥٩٢).

(٣) رواه الترمذي (١٦٢٤)، وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٩١): «حسن صحيح».

(٤) رواه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣).

(٥) «شرح بلوغ المرام» (٣/ ٢٣٧) بتصرُّف يسير، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة]؛ هَذَا مَثَلُ الَّذِي مَصدَرُ نَفَقَتِهِ عَنِ الإِخلَاصِ وَالصِّدقِ، فَإِنَّ ابتِغَاءَ مَرضَاتِهِ سُبحَانَهُ هُوَ الإِخلَاصُ، وَالتَّثبِيتَ مِنَ النَّفسِ هُوَ الصِّدقُ فِي البَذلِ، فَإِنَّ المُنفِقَ يَعتَرِضُهُ عِندَ إِنفَاقِهِ آفَتَانِ، إِن نَجَا مِنهُمَا كَانَ مَثَلُهُ مَا ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: **إِحدَاهُمَا**: طَلَبُهُ بِنَفَقَتِهِ مَحمَدَةً أَو ثَنَاءً أَو غَرَضًا مِن أَغرَاضِهِ الدُّنيَوِيَّةِ، وَهَذَا حَالُ أَكثَرِ المُنفِقِينَ. **وَالآفَةُ الثَّانِيَةُ**: ضَعفُ نَفسِهِ وَتَقَاعُسُهَا وَتَرَدُّدُهَا: هَل يَفعَلُ أَم لَا؟ فَالآفَةُ الأُولَى تَزُولُ بِابتِغَاءِ مَرضَاةِ اللهِ؛ وَالآفَةُ الثَّانِيَةُ تَزُولُ بِالتَّثبِيتِ، فَإِنَّ تَثبِيتَ النَّفسِ: تَشجِيعُهَا وَتَقوِيَتُهَا، وَالإِقدَامُ بِهَا عَلَى البَذلِ. وَهَذَا هُوَ صِدقُهَا. وَطَلَبُ مَرضَاةِ اللهِ: إِرَادَةُ وَجهِهِ وَحدَهُ، وَهَذَا إِخلَاصُهَا. فَإِذَا كَانَ مَصدَرُ الإِنفَاقِ عَن ذَلِكَ، كَانَ مَثَلُهُ كَجَنَّةٍ[1]؛ بِرَبْوَةٍ وَهِيَ المَكَانُ المُرْتَفِعُ الَّذِي تَكُونُ الْجَنَّةُ فِيهِ نُصْبَ الشَّمْسِ وَالرِّيَاحِ، فَتَتَرَبَّى الْأَشْجَارُ هُنَاكَ أَتَمَّ تَرْبِيَةٍ، فَنَزَلَ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ مَطَرٌ عَظِيمُ الْقَطْرِ مُتَتَابِعٌ، فَرَوَاهَا وَنَمَّاهَا، فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْ مَا يُؤْتِيهِ غَيْرُهَا بِسَبَبِ ذَلِكَ الْوَابِلِ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ- مَطَرٌ صَغِيرُ الْقَطْرِ-، يَكْفِيهَا لِكَرَمِ مَنْبَتِهَا، يَزْكُو عَلَى الطَّلِّ وَيَنْمَى عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّ فِي ذِكْرِ نَوْعَيِ الْوَابِلِ وَالطَّلِّ، إِشَارَةً إِلَى نَوْعَيِ الْإِنْفَاقِ الْكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ. فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ إِنْفَاقُهُ وَابِلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِنْفَاقُهُ

(١) «طريق الهجرتين» (ص٦٤٤).

طَلًّا، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ(١)؛ وَكَمَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ المَطَرَينِ يُوجِبُ زَكَاءَ ثَمَرِ الجَنَّةِ وَنَحوَهُ بِالأَضعَافِ، فَكَذَلِكَ نَفَقَتُهُم كَثِيرَةً كَانَت أَو قَلِيلَةً، بَعدَ أَن صَدَرَت عَنِ ابتِغَاءِ مَرضَاةِ اللهِ وَالتَّثبِيتِ مِن نُفُوسِهِم، فَهِيَ زَاكِيَةٌ عِندَ اللهِ نَامِيَةٌ مُضَاعَفَةٌ(٢).

وَكُلٌّ يُنَمَّى لَهُ مَا أَنفَقَ أَتَمَّ تَنمِيَةٍ وَأَكمَلَهَا، وَالمُنَمِّي لَهَا هُوَ أَرحَمُ بِكَ مِن نَفسِكَ، الَّذِي يُرِيدُ مَصلَحَتَكَ حَيثُ لَا تُرِيدُهَا(٣).

وَفِي حَدِيثِ السَّبعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**»(٤).

وَهَذَا مِثَالٌ ضَرَبَهُ ﷺ فِي المُبَالَغَةِ فِي الِاستِتَارِ بِالصَّدَقَةِ(٥).

وَالمَعنَى: أَنَّهُ لِشِدَّةِ إِخفَائِهَا لَا تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَهَذَا لِكَمَالِ إِخلَاصِهِ لِلَّهِ ﷻ، وَكَمَالِ رَحمَتِهِ بِأَخِيهِ الَّذِي تَصَدَّقَ عَلَيهِ، لَا يُخجِلُهُ أَمَامَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، يَكرَهُ أَن يَطَّلِعَ النَّاسُ أَنَّهُ فَقِيرٌ يُتَصَدَّقُ عَلَيهِ، فَهَذَا الرَّجُلُ لِشِدَّةِ إِخلَاصِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَن يَمدَحَهُ أَحَدٌ لِنَفَقَاتِهِ أَو صَدَقَاتِهِ، وَلِشِدَّةِ رَحمَتِهِ بِأَخِيهِ، حَتَّى لَا يَرَى أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ مَنَّ عَلَيهِ بِالصَّدَقَةِ، أَخفَى هَذِهِ الصَّدَقَةَ(٦).

فَيُستَفَادُ مِن هَذَا الحَدِيثِ: فَضِيلَةُ إِخفَاءِ الصَّدَقَةِ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا أَخفَاهَا

---

(١) «إعلام الموقِّعين» (١/ ٢٣٩).
(٢) «طريق الهجرتين» (ص٦٤٥).
(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٣٥).
(٤) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) «منحة الباري بشرح صحيح البخاري» (٣/ ٥٠٨)، لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله.
(٦) «شرح بلوغ المرام» (٣/ ٩٠)، للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.

الإِنسَانُ، كَانَ ثَوَابُهُ أَكثَرَ.

فَإِن قُلتَ: أَلَيسَ اللهُ ﷻ يُثنِي عَلَى العِبَادِ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فَمَا هُوَ الجَمعُ بَينَ الحَدِيثِ وَبَينَ الآيَةِ؟ وَكَذَلِكَ مَا الجَمعُ بَينَ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧١].

قُلنَا: الأَصلُ فِي الصَّدَقَةِ مِن حَيثُ هِيَ: أَنَّ إِخفَاءَهَا أَفضَلُ؛ لِأَنَّهُ أَبعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ، وَأَبعَدُ عَن إِظهَارِ المِنَّةِ عَلَى مَن تَصَدَّقَ عَلَيهِ، وَأَبعَدُ أَيضًا عَن كَسرِ خَاطِرِهِ أَمَامَ النَّاسِ، هَذَا مِن حَيثُ هِيَ صَدَقَةٌ، فَإِنِ اقتَرَنَ بِهَا مَا يَجعَلُ إِعلَانَهَا خَيرًا مِن إِسرَارِهَا، صَارَ إِعلَانُهَا خَيرًا؛ لِأَنَّهُ قَد يَعرِضُ لِلمَفضُولِ مَا يَجعَلُهُ أَفضَلَ، كَيفَ يَكُونُ الإِعلَانُ خَيرًا مِنَ الإِسرَارِ؟ إِذَا كَانَ المَقصُودُ الِاقتِدَاءَ؛ يَعنِي: هَذَا الرَّجُلُ تَصَدَّقَ لِيَرَاهُ النَّاسُ فَيَقتَدُوا بِهِ، هَذَا وَاحِدٌ.

ثَانِيًا: رُبَّمَا يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي تُصُدِّقَ عَلَيهِ مُحتَاجًا وَلَا تَكفِيهِ صَدَقَتُهُ، فَيَتَصَدَّقُ إِظهَارًا لِحَاجَةِ الرَّجُلِ لِأَجلِ أَن يُعطِيَهُ النَّاسُ، فَإِذَن قَد يَكُونُ فِي إِظهَارِهَا خَيرٌ، إِمَّا لِلمُتَصَدِّقِينَ، أَو لِلمُتَصَدَّقِ عَلَيهِ، إِمَّا لِلمُتَصَدِّقِينَ: إِذَا اقتَدَوا بِهَذَا المُتَصَدِّقِ، وَإِمَّا لِلمُتَصَدَّقِ عَلَيهِ: إِذَا أَعطَاهُ النَّاسُ كَمَا أَعطَاهُ هَذَا الرَّجُلُ، وَإِلَّا فَإِنَّ الأَصلَ هُوَ الإِخفَاءُ[1].

وَقَالَ العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: إِخفَاءُ الصَّدَقَاتِ خَيرٌ مِن إِظهَارِهَا فِي حَقِّ مَن لَا يَأمَنُ الرِّيَاءَ، وَفِي حَقِّ مَن يَأمَنُ الرِّيَاءَ، وَلَكِن لَو أَظهَرَ

(١) «شرح بلوغ المرام» (٣/ ٩١).

طَاعَةً اقتُدِيَ بِهِ فَالإِظهَارُ أَفضَلُ، لِأَنَّهُ يُدرِكُ فَضِيلَةَ الطَّاعَةِ، وَفَضِيلَةَ التَّوَسُّلِ إِلَى الاِقتِدَاءِ بِهِ، وَلَا سِيَّمَا حَيثُ يَكثُرُ المُقتَدُونَ[١].

وَعَن مُعَاوِيَةَ بنِ حَيدَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ**»[٢].

وَإِنَّمَا كَانَت صَدَقَةُ السِّرِّ مُطفِئَةً لِغَضَبِ الرَّبِّ، لِأَنَّ صَاحِبَهَا لَم يُرِد بِهَا إِلَّا وَجهَ اللهِ تَعَالَى، وَلَم يَطلُب بِهَا جَزَاءً مِن مَخلُوقٍ، وَلَا رِيَاءً، وَلَا سُمعَةً، وَلَا مَحمَدَةً، وَلَا شُكُورًا.

وَاللَّهُ تَعَالَى «يَقبَلُ القَلِيلَ، وَيُعطِي الجَزِيلَ، وَيُرَبِّي النَّزرَ اليَسِيرَ مِنَ القُرُبَاتِ، وَيُجَازِي عَلَيهِ الكَثِيرَ مِنَ المَثُوبَاتِ»[٣].

فَالقَلِيلُ مِنَ الإِنفَاقِ مَعَ الإِخلَاصِ يَكُونُ كَثِيرًا، وَيُعطِي اللهُ صَاحِبَهُ مَغفِرَةً وَأَجرًا كَبِيرًا[٤].

«فَمَا بَالُ مَن عَرَفَ هَذَا يَغفُلُ عَنهُ؟! وَمَا التَّوفِيقُ إِلَّا بِاللَّهِ»[٥].

٧ الإخلاص في الحب:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن سَرَّهُ أَن يَجِدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ، فَليُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ**»[٦].

---

(١) «شجرة المعارف» (ص١٧٧).

(٢) رواه الطبراني ١٩/ رقم (١٠١٨)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٨).

(٣) «كتاب الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين» (ص١٦٧)، لأبي الفتوح الطَّائي رحمه الله.

(٤) «المجموعة الكاملة» (٦/ ٢٠١)، للعلَّامة السعدي رحمه الله.

(٥) «التمهيد» (٤/ ٣٠٢).

(٦) رواه الحاكم (١/ ٣) رقم (٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠١٢).

وَقَولُهُ: «فَلْيُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»، يَعنِي: بِالمَرءِ هُنَا: المُسْلِمَ المُؤمِنَ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمكِنُ أَن يُخْلِصَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَأَن يُتَقَرَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى بِاحتِرَامِهِ وَحُرْمَتِهِ، فَإِنَّهُ هُوَ المَوصُوفُ بِالأُخُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ، وَالمَحَبَّةِ الدِّينِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وَقَد أَفَادَ هَذَا الحَدِيثُ: أَنَّ مَحَبَّةَ المُؤمِنِ المُوصِلَةَ لِحَلَاوَةِ الإِيمَانِ لَا بُدَّ أَن تَكُونَ خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَى، غَيرَ مَشُوبَةٍ بِالأَغرَاضِ الدُّنيَوِيَّةِ، وَلَا الحُظُوظِ البَشَرِيَّةِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّهُ لِذَلِكَ، انقَطَعَتْ مَحَبَّتُهُ إِنْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ الغَرَضُ، أَو يَئِسَ مِنْ حُصُولِهِ.

وَمَحَبَّةُ المُؤمِنِ: وَظِيفَةٌ مُتَعَيِّنَةٌ عَلَى الدَّوَامِ، وُجِدَتِ الأَغْرَاضُ أَو عُدِمَتْ، وَلَمَّا كَانَتِ المَحَبَّةُ لِلأَغرَاضِ هِيَ الغَالِبَةَ، قَلَّ وِجْدَانُ تِلكَ الحَلَاوَةِ، بَل قَدِ انعَدَمَ، لَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ الأَزمَانِ، الَّتِي قَدِ امَّحَى فِيهَا أَكثَرُ رُسُومِ الإِيمَانِ.

وَعَلَى الجُملَةِ: فَمَحَبَّةُ المُؤمِنِينَ مِنَ العِبَادَاتِ الَّتِي لَا بُدَّ فِيهَا مِنَ الإِخلَاصِ فِي حُسْنِ النِّيَّاتِ[1].

وَاعلَم بِأَنَّ التَّحَابَّ فِي اللهِ: مِن أَصعَبِ الأُمُورِ وَأَشَدِّهَا، وَوُجُودُهُ فِي الأَشخَاصِ الإِنسَانِيَّةِ: أَعَزُّ مِنَ الكِبرِيتِ الأَحمَرِ. وَهَذِهِ الخَصلَةُ لَا يَقُومُ بِهَا: إِلَّا مَن سَبَقَت لَهُ العِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ.

وَالمَحَبَّةُ فِي هَذَا الزَّمَانِ قَائِمَةٌ عَلَى المَصَالِحِ الشَّخصِيَّةِ. «وَهَذِهِ

(١) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (١/ ٢١٤ - ٢١٥)، لأبي العبَّاس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

هِيَ المَحَبَّةُ الْعَرَضِيَّةُ الَّتِي تَزُولُ بِزَوَالِ مُوجِبِهَا؛ فَإِنَّ مَنْ وَدَّكَ لِأَمْرٍ، وَلَّى عَنْكَ عِنْدَ انْقِضَائِهِ»[١].

وَعَلَى هَذَا تَجْرِي عَامَّةُ مَحَبَّةِ الْخَلْقِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ، وَهَذَا لَا يُثَابُونَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ؛ بَلْ رُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى النِّفَاقِ وَالمُدَاهَنَةِ، فَكَانُوا فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَخِلَّاءِ الَّذِينَ ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف][٢].

فَالمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ تَدُومُ وَتَتَّصِلُ مَحَبَّتُهُم وَخِلَّتُهُم، بِدَوَامِ مَن كَانَتِ المَحَبَّةُ لِأَجلِهِ، كَمَا قِيلَ:

مَا كَانَ لِلَّهِ، دَامَ وَاتَّصَلَ؛ وَمَا كَانَ لِغَيرِ اللهِ، انقَطَعَ وَانفَصَلَ.

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

إِذَا تَصَدَّعَ شَملُ الوَصلِ بَينَهُم ... فَلِلمُحِبِّينَ شَملٌ غَيرُ مُنصَدِعِ

وَإِن تَقَطَّعَ حَبلُ الوَصلِ يَومَئِذٍ ... فَلِلمُحِبِّينَ حَبلٌ غَيرُ مُنقَطِعِ[٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ اليَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي**»[٤].

فَقَولُهُ: «**أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟**» تَنبِيهٌ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِم: مِن إِجلَالِ اللهِ وَتَعظِيمِهِ، مَعَ التَّحَابِّ فِيهِ، وَبِذَلِكَ يَكُونُونَ حَافِظِينَ لِحُدُودِهِ، دُونَ الَّذِينَ لَا يَحفَظُونَ حُدُودَهُ، لِضَعْفِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِم[٥].

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٧٠ - ٢٧١).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦١٠).
(٣) «روضة المحبين» (ص٢٨٧).
(٤) رواه مسلم (٢٥٦٦).
(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨٣).

قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ: «المُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي» أَي: المُتَحَابُّونَ فِيَّ، وَمِن أَجلِي إِجلَالًا وَمَحَبَّةً، وَابتِغَاءَ مَرضَاتِي.

وَالمَعنَى فِي ذَلِكَ: أَن يَكُونَ العَمَلُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ خَالِصًا، لَا يَكُونُ لِشَيءٍ مِن عَرَضِ الدُّنيَا، إِنَّهُ يُحِبُّهُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، مُؤمِنٌ بِهِ، مُخلِصٌ لَهُ، وَيُحِبُّهُ لِدُعَائِهِ إِلَى الخَيرِ، وَلِفِعلِهِ الخَيرَ، وَتَعلِيمِهِ الدِّينَ.

وَالدِّينُ جِمَاعُ الخَيرِ كُلِّهِ، فَإِذَا أَحَبَّهُ لِذَلِكَ، فَقَد أَحَبَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ. قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]»[١].

فَمِنَ الحُبِّ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ: حُبُّ أَولِيَاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ حُبُّ الأَتقِيَاءِ الأَولِيَاءِ؛ مِنهُمُ المُعَلِّمُونَ لِدِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، العَامِلُونَ بِهِ[٢].

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَن أَولِيَاءُ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا، ذُكِرَ اللهُ»[٣].

وَعَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ، عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا؛ فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ: لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ». وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

---

(١) «الاستذكار» (٨/ ٤٤٥).
(٢) المصدر السابق (٨/ ٤٤٧).
(٣) رواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٣٥)، وقوّاه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (١٧٣٣).

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ [يونس][(١)].

وَفَسَّرَهُم بِالمُتَحَابِّينَ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَيسَ المُرَادُ أَنَّ الأَنبِيَاءَ يَتَمَنَّونَ أَن يَكُونُوا بِمَنزِلَتِهِم لِقُصُورِهِم عَن دَرَجَاتِهِم، وَإِنَّمَا المُرَادُ أَنَّهُم يَبتَهِجُونَ وَيُسَرُّونَ بِهِم بِمَكَانِهِم مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[(٢)].

وَاعلَم أَنَّ هَذَا الثَّوَابَ فِي هَذِهِ المَحَبَّةِ، إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَت لِلَّهِ تَعَالَى خَالِصَةً، لَا يَشُوبُهَا شَيءٌ مِنَ الكَدَرِ.

فَلينَظُرِ الإِنسَانُ مَن يُؤَاخِي، وَمَن يُحِبُّ؟ وَلَا يَنبَغِي أَن يَتَخَيَّرَ، إِلَّا مَن قَد سَلِمَ دِينُهُ.

عَن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**»[(٣)].

مَا أَجمَلَ، وَمَا أَعظَمَ مَحَبَّةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ! وَمَا أَجمَلَ أَن يَتَلَاقَى المُحِبُّونَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، عَلَى طَاعَتِهِ وَابتِغَاءَ مَرضَاتِهِ! وَمَا أَجمَلَ أَن يَتَحَابُّوا فِي اللهِ، وَيَتَبَاذَلُوا فِيهِ! فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ ذَلِكَ مِنهُم، وَيُحِبُّهُم لِأَجلِ ذَلِكَ.

إِنَّهَا دَعوَةٌ إِلَى التَّحَابِّ فِي اللهِ، وَدَعوَةٌ لِمُجَالَسَةِ المُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ، وَدَعوَةٌ لِلتَّزَاوُرِ فِي اللهِ، وَدَعوَةٌ لِبَذلِ المَالِ.

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٢٧)، وصححه لغيره العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٢٦).

(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٧٤٢).

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (٢٩٥٩) [طبعة دار ابن حزم]، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠١٨).

أَجَل إِنَّهَا دَعوَةٌ إِلَى هَذِهِ الخِلَالِ الأَربَعِ، لِيُسَارِعَ النَّاسُ إِلَيهَا وَيَتَنَافَسُوا عَلَيهَا.

الأولى: الحُبُّ في اللهِ:

اعلَمُوا - بَارَكَ اللهُ فِيكُم - بِأَنَّ المَحَبَّةَ فِي اللهِ مِن تَمَامِ مَحَبَّةِ اللهِ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللهِ تَقتَضِي مَحَبَّةَ مَا يُحِبُّ، وَمَحَبَّةَ مَا يُعِينُ عَلَى حُبِّهِ وَيُوصِلُ إِلَى رِضَاهُ وَقُربِهِ، وَهُوَ يُحِبُّ الأَنبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَيُحِبُّ الأَعمَالَ الصَّالِحَةَ، فَحُبُّهَا لِلَّهِ هُوَ مِن تَمَامِ حُبِّهِ.

وَكَيفَ لَا يُحِبُّ المُؤمِنُ مَا يَستَعِينُ بِهِ عَلَى مَرضَاةِ رَبِّهِ، وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى حُبِّهِ وَقُربِهِ؟!

عَنْ أَبِي الدَّردَاءِ رضي الله عنه يَرفَعُهُ - أَي: إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ - قَالَ: «**مَا مِنْ رَجُلَيْنِ تَحَابَّا فِي اللهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، إِلَّا كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى اللهِ، أَشَدُّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ**»(١).

فَمَن أَحَبَّ أَخًا لَهُ فَليَقُل: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللهِ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ.

وَهَذِهِ أَوَّلُ ثَمَرَاتِ الإِخبَارِ بِالمَحَبَّةِ: أَن يَحظَى المُخبِرُ بِهَذَا الدُّعَاءِ العَظِيمِ، وَمَاذَا يُرِيدُ أَعظَمَ مِن أَن يُحِبَّهُ اللهُ سُبحَانَهُ؟!(٢)

هَذِهِ المَحَبَّةُ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا كَانَت خَالِيَةً مِنَ الغَرَضِ، إِيجَابِيَّةً فِي

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٢٧٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠١٦).

(٢) «شرح صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري» (٢/ ١٧٥)، للشيخ الفاضل حسين العوايشة.

الخَيرِ. فَإِنَّ مَن أَحَبَّ إِنسَانًا لِكَونِهِ يُعطِيهِ، فَمَا أَحَبَّ إِلَّا العَطَاءَ. وَمَن قَالَ: إِنَّهُ يُحِبُّ مَن يُعطِيهِ لِلَّهِ، فَهَذَا كَذِبٌ وَمُحَالٌ، وَزُورٌ مِنَ القَولِ.

وَكَذَلِكَ مَن أَحَبَّ إِنسَانًا لِكَونِهِ يَنصُرُهُ، إِنَّمَا أَحَبَّ النَّصرَ لَا النَّاصِرَ.

وَهَذَا كُلُّهُ مِنَ اتِّبَاعِ مَا تَهوَى الأَنفُسُ، لَم يُحِبَّ فِي الحَقِيقَةِ إِلَّا مَا يَصِلُ إِلَيهِ مِن جَلبِ مَنفَعَةٍ أَو دَفعِ مَضَرَّةٍ، فَهُوَ إِنَّمَا أَحَبَّ تِلكَ المَنفَعَةَ وَدَفعَ المَضَرَّةِ.

فَإِذَا كَانَ الحُبُّ لِمُجَرَّدِ كَونِ المَحبُوبِ مُسلِمًا صَالِحًا، وَأَدَّى بِالمُتَحَابِّينَ إِلَى النُّهُوضِ بِبَعضِهِم إِلَى اللهِ، وَالتَّوَاصِي بِالحَقِّ وَالصَّبرِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الخَيرِ وَالذِّكرِ وَالدَّعوَةِ وَالعِلمِ، فَتِلكَ مَحَبَّةٌ فِي اللهِ، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَن مُوسَى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه]؛ ثُمَّ بَيَّنَ الهَدَفَ مِن تَعَاوُنِهِ مَعَ أَخِيهِ، فَقَالَ: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ [طه]؛ فَالتَّسبِيحُ الكَثِيرُ، وَالذِّكرُ الكَثِيرُ: هُوَ الهَدَفُ مِنَ التَّآخِي فِي اللهِ.

فَالمَحَبَّةُ فِي اللهِ تَعَالَى لَيسَت - فَقَط - كَلِمَةً يَقُولُهَا كُلُّ امرِىءٍ لِصَاحِبِهِ، وَلَكِنَّهَا مَحَبَّةٌ فِي القَلبِ لَهَا آثَارُ أَعمَالٍ، مِنهَا:

أَنْ تَكُونَ نَاصِحًا لَهُ، نَاصِرًا لَهُ بِمَنعِهِ عَنِ الظُّلمِ وَالمَعصِيَةِ، نَاصِرًا لَهُ فِي الطَّاعَةِ، ذَابًّا عَن عِرضِهِ، دَاعِيًا لَهُ فِي غَيبَتِهِ بِالخَيرِ، عَائِدًا لَهُ فِي مَرَضِهِ، مُعِينًا لَهُ عَلَى دُنيَاهُ، تُحِبُّ لَهُ مِنَ الخَيرِ مَا تُحِبُّ لِنَفسِكَ، وَتَكرَهُ لَهُ مِنَ الشَّرِّ مَا تَكرَهُهُ لِنَفسِكَ.

فَلنَنظُر فِي وَاقِعِ هَذِهِ الأُخُوَّةِ، وَأَينَ نَحنُ مِنهَا؟!

فَالتَّحَابُبُ فِي اللهِ، عَظِيمٌ قَدرُهُ، وَهُوَ مِنَ المُهِمَّاتِ، وَهُوَ اليَومَ قَلِيلٌ، لَا يُوَفَّقُ لَهُ إِلَّا الشَّاذُّ الفَاذُّ مِنَ النَّاسِ. فَليُفَتِّش كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا عَن نَفسِهِ، بِأَن لَا يَكُونَ مَعَ الكَثرَةِ الَّتِي ضَيَّعَت هَذَا الأَمرَ العَظِيمَ، كَالَّذِينَ لَا يُوَالُونَ، إِلَّا عَلَى الحِزبِيَّةِ: فَمَن وَافَقَهُم عَلَى حِزبِيَّتِهِم أَحَبُّوهُ، وَلَو كَانَ فَاسِقًا، وَمَن خَالَفَهُم أَبغَضُوهُ، وَلَو كَانَ صَالِحًا.

اللَّهُمَّ وَفِّقنَا لِلحُبِّ فِيكَ، وَاجعَلنَا مِن أَهلِهِ.

الثانية: المجالسة في الله:

إِنَّ مُجَالَسَةَ الْمُخْلِصِينَ لِلتَّعَاوُنِ «عَلَى أَسبَابِ النَّجَاةِ وَالتَّوَاصِي بِالحَقِّ وَالصَّبرِ، فَهَذَا مِن أَعظَمِ الغَنِيمَةِ وَأَنفَعِهَا»[1]. وَفِي أَمثَالِ هَؤُلَاءِ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**هُمُ الْقَوْمُ، لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**»[2].

هَذِهِ مُبَالَغَةٌ فِي إِكرَامِهِم، وَزِيَادَةٌ فِي إِعلَاءِ مَكَانَتِهِم ...؛ وَهَذِهِ حَالَةٌ شَرِيفَةٌ، وَمَنزِلَةٌ مُنِيفَةٌ، لَا خَيَّبَنَا اللهُ مِنهُم، وَجَعَلَنَا مِن أَهلِهَا[3].

وَهَذَا يُذَكِّرُنَا بِمَجَالِسِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم. فَقَد كَانَت عَامِرَةً بِذِكرِ اللهِ تَعَالَى وَمَا يُقَرِّبُ مِنهُ.

عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ هِلَالٍ الْمُحَارِبِيِّ قَالَ: قَالَ لِي مُعَاذٌ: اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ

---

(١) «الفوائد» (ص٩٣).

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩) - واللفظ له -.

(٣) «المفهم» (٧/ ١٣).

سَاعَةً، يَعْنِي: نَذْكُرُ اللهَ[١].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ. قَالَ: آللَّهِ! مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ! مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي؛ وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ: «**آللهِ! مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**»[٢] قَالُوا: وَاللَّهِ! مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَأَخْبَرَنِي: أَنَّ اللهَ عز وجل يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ**»[٣].

فَقَولُهُ: «**يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ**» مَعنَاهُ: يُظهِرُ فَضلَكُم لَهُم، وَيُرِيهِم حُسنَ عَمَلِكُم، وَيُثنِي عَلَيكُم عِندَهُم؛ وَأَصلُ البَهَاءِ: الحُسنُ وَالجَمَالُ، وَفُلَانٌ يُبَاهِي بِمَالِهِ: أَي: يَفخَرُ وَيَتَجَمَّلُ بِهِم عَلَى غَيرِهِم، وَيُظهِرُ حُسنَهُم[٤].

فَهَذِهِ المُبَاهَاةُ مِنَ الرَّبِّ تعالى دَلِيلٌ عَلَى شَرَفِ الذِّكرِ عِندَهُ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَأَنَّ لَهُ مَزِيَّةً عَلَى غَيرِهِ مِنَ الأَعمَالِ[٥].

---

(١) رواه البخاري معلَّقًا مجزومًا به: قبل الحديث (٨). ووصله ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٣٥٤) - واللفظ له -، وصححه الألباني رحمه الله في تخريج «كتاب الإيمان» لابن تيميَّة (ص٩٢).

(٢) «آللهُ آللهِ! مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» أي: أستَحلِفُكُم بِاللهِ، مَا جَلَستُم إِلَّا مِن أَجلِ ذِكرِ اللهِ تَعَالَى؟

(٣) رواه مسلم (٢٧٠١).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ٢٣).

(٥) «الوابل الصيب» (١/ ١٠٢).

فَاحْرِصْ ﷺ عَلَى مُجَالَسَةِ المُخلِصِينَ المُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ، وَالتِقَاطِ «أَطَايِبِ ثَمَرَاتِ كَلَامِهِم، كَمَا تُنتَقَى أَطَايِبُ الثَّمَرِ؛ وَلَا تَتَكَلَّم إِلَّا إِذَا تَرَجَّحَت مَصلَحَةُ الكَلَامِ، وَعَلِمتَ أَنَّ فِيهِ مَزِيدًا لِحَالِكَ، وَمَنفَعَةً لِغَيرِكَ»(٦).

الثالثة: التَّزَاوُرُ فِي اللهِ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَل لَكَ عَلَيهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا! غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عز وجل، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ: بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ، كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**»(٧).

«**فَأَرْصَدَ اللهُ**» أَي: أَقعَدَهُ بِمِرصَادِهِ يَرقُبُهُ.

«**عَلَى مَدْرَجَتِهِ**» أَي: عَلَى مَوضِعِ مُرُورِهِ، وَهُوَ الطَّرِيقُ؛ سُمِّيَت بِالمَدرَجَةِ: لِأَنَّ النَّاسَ يَدرُجُونَ عَلَيهَا، أَي: يَمضُونَ وَيَمشُونَ عَلَيهَا، وَيَمُرُّونَ بِهَا.

«**تَرُبُّهَا**» أَي: تُرَاعِيهَا، وَتَقُومُ بِمُجَازَاتِهَا وَشُكرِهَا، بِذَهَابِكَ إِلَيهِ(٨).

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ «مَا يَدُلُّ: عَلَى أَنَّ الحُبَّ فِي اللهِ وَالتَّزَاوُرَ فِيهِ مِن أَفضَلِ الأَعمَالِ، وَأَعظَمِ القُرَبِ، إِذَا تَجَرَّدَ ذَلِكَ عَن أَغرَاضِ الدُّنيَا وَأَهوَاءِ النُّفُوسِ»(٩).

---

(٦) «تهذيب المدارج» (٢/ ٨١٤).
(٧) رواه مسلم (٢٥٦٧).
(٨) «منة المنعم في شرح صحيح مسلم» (٤/ ١٧٨)، للشيخ صفي الرحمن المباركفوري رحمه الله.
(٩) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٦/ ٥٤٣).

فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ نَالَ مَا نَالَهُ، لِحُبِّهِ لِذَلِكَ الأَخِ فِي اللهِ، ابتِغَاءَ وَجهِهِ؛ لَا مِن أَجلِ إِنعَامِهِ عَلَيهِ، وَلَا مِن أَجلِ مَصَالِحَ بَينَهُ وَبَينَهُ.

قَالَ العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: فَالتَّحَابُّ بِسَبَبِ جَلَالِ اللهِ، أَفضَلُ التَّحَابِّ؛ لِأَنَّ سَبَبَهَا أَفضَلُ الأَسبَابِ.

وَقَولُهُ: «كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»: يَعنِي: بِسَبَبِهِ، فَإِنَّ «فِي» تَكُونُ لِلسَّبَبِيَّةِ، كَقَولِهِ: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ [النور: ١٤]، أَي: بِسَبَبِ مَا أَفَضتُم فِيهِ[١].

«قَالَ المَرُوزِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: قِيلَ لِأَبِي عَبدِ اللهِ: مَا الحُبُّ فِي اللهِ؟ قَالَ: هُوَ أَن لَا تُحِبَّهُ لِطَمَعٍ فِي دُنيَاهُ»[٢].

الرابعة: التَّبَاذُلُ في الله:

وَبَذلُ المَالِ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ: أَهوَنُهَا: المُسَاهَمَةُ فِي المَالِ، وَأَوسَطُهَا: المُوَاسَاةُ، وَأَعلَاهَا: تَقدِيمُ الأَخِ فِي المَالِ عَلَى النَّفسِ. وَهَذِهِ رُتبَةُ الصِّدِّيقِينَ، وَمُنتَهَى دَرَجَاتِ المُتَحَابِّينَ، وَتُسَمَّى دَرَجَةَ الإِيثَارِ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَقَدْ أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ - أَو قَالَ: حِينٌ -، وَمَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، ثُمَّ الآنَ الدِّينَارُ وَالدِّرهَمُ أَحَبُّ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ؛ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «كَم مِن جَارٍ مُتَعَلِّقٍ بِجَارِهِ يَومَ القِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ! هَذَا أَغلَقَ بَابَهُ دُونِي، فَمَنَعَ مَعرُوفَهُ!»[٣].

---

(١) «شجرة المعارف» (ص٢١٩ - ٢٢٠). (٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٥٧).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١١١)، وحسنه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الأدب المفرد» (٨١).

وَأَبلَغُ مِنهُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

فَهَذَا كَانَ حَالُهُم فِي ذَلِكَ الوَقتِ الطَّيِّبِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ المُتَحَابُّونَ لِجَلَالِ اللهِ.

فَهَذِهِ هِيَ المَحَبَّةُ النَّافِعَةُ لَا لِمَحَبَّةِ الدُّنيَا، وَهِيَ الَّتِي أَوجَبَت لَهُمُ المُوَاسَاةَ وَالإِيثَارَ عَلَى الأَنفُسِ، وَ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١﴾﴾ [الحديد].

فَإِنْ لَم تُصَادِف نَفسَكَ فِي رُتبَةٍ مِنْ هَذِهِ الرُّتَبِ مَعَ أَخِيكَ، فَاعلَمْ أَنَّ عَقدَ الأُخُوَّةِ لَم يَنْعَقِدْ بَعْدُ فِي البَاطِنِ، وَإِنَّمَا الجَارِي بَينَكُمَا مُخَالَطَةٌ رَسمِيَّةٌ.

٨ الإخلاص في الزيارة في الله:

عَن أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِن عَبدٍ مُسلِمٍ أَتَى أَخًا لَهُ يَزُورُهُ فِي اللهِ، إِلَّا نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَن طِبتَ وَطَابَت لَكَ الجَنَّةُ، وَإِلَّا قَالَ اللهُ فِي مَلَكُوتِ عَرشِهِ: [عَبدِي] زَارَ فِيَّ، وَعَلَيَّ قِرَاهُ، فَلَم أَرضَ لَهُ بِقِرًى دُونَ الجَنَّةِ**»(١).

فَمَن زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ فِي مَلَكُوتِ عَرشِهِ - وَكَلَامُهُ البَلِيغُ الوَجِيزُ - : «**عَبدِي زَارَ فِيَّ، وَعَلَيَّ قِرَاهُ، فَلَم أَرضَ لَهُ بِقِرًى دُونَ الجَنَّةِ**».

---

(١) رواه البزَّار «البحر الزخَّار» (٦٤٦٦)، وأبو يعلى (٤١٤٠) - واللفظ له -. وقال الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٧٩): «حسن صحيح».

فَانظُر يَا أَخِي - وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ - إِلَى عَظِيمِ فَضلِ اللهِ ﷻ، وَتَأَمَّل هَذِهِ الأَلفَاظَ: «عَبدِي زَارَ فِيَّ، وَعَلَيَّ قِرَاهُ».

وَأَيُّ ضِيَافَةٍ أَجَلُّ، وَأَكبَرُ، وَأَعظَمُ، مِن هَذِهِ الضِّيَافَةِ؟! فَلِلَّهِ تِلكَ الضِّيَافَةُ، مَا أَجَلَّهَا وَأَجمَلَهَا! وَأَدوَمَهَا وَأَكمَلَهَا!

فَاحرِصْ ﷺ عَلَى زِيَارَةِ الإِخوَانِ فِي اللهِ، فَإِنَّهَا عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ، وَفِيهَا الزُّلفَةُ إِلَى اللهِ ﷻ، وَفِيهَا مِن ضُرُوبِ الفَوَائِدِ وَصَلَاحِ القُلُوبِ. وَتَذَكَّرِ الحَدِيثَ التَّالِيَ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا عَادَ الرَّجُلُ أَخَاهُ أَوْ زَارَهُ، قَالَ اللهُ لَهُ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مَنْزِلًا فِي الْجَنَّةِ**»(١).

وَفِي الحَدِيثِ: فَضلُ عِيَادَةِ المَرِيضِ، وَالزِّيَارَةِ فِي اللهِ ﷻ، وَسَعَةِ رَحمَةِ اللهِ تَعَالَى.

وَفِيهِ كَلَامُ اللهِ لِلعَبدِ عَلَى الحَقِيقَةِ؛ إِخبَارًا بِمَا أَعَدَّ لَهُ فِي الجَنَّةِ(٢).

٩ الإخلاص في إطعام الطعام:

قَالَ اللهُ ﷻ فِي حَقِّ نَفَرٍ مِنَ المُخلِصِينَ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان].

فَوَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى «بِالإِخلَاصِ، وَأَنَّهُم إِنَّمَا قَصَدُوا بِإِطعَامِ

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٤٥)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٦٢).

(٢) «شرح صحيح الأدب المفرد» (١/ ٤٤٦ - ٤٤٧).

الطَّعَامِ: وَجهَهُ، وَلَم يُرِيدُوا مِنَ المُطعَمِينَ: جَزَاءً وَلَا شُكُورًا»[١].

وَلِهَذَا كَانَ المُحَقِّقُونَ لِلإِخلَاصِ، لَا يَطلُبُونَ مِنَ المُحْسَنِ إِلَيهِ: لَا دُعَاءً وَلَا ثَنَاءً وَلَا غَيرَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ نَوعٌ مِنَ الجَزَاءِ وَالإِحسَانِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «... **وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَرَوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»[٢].

وَأَيضًا كَانُوا إِذَا كَافَأَهُمُ المُعطِي بِدُعَاءٍ وَغَيرِهِ، قَابَلُوهُ بِمِثلِ ذَلِكَ، لِيَبقَى أَجرُهُم عَلَى اللهِ تَعَالَى[٣].

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: أُهدِيَت لِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَاةٌ، فَقَالَ: «**اقسِمِيهَا**»، قَالَ: وَكَانَت عَائِشَةُ إِذَا رَجَعَتِ الخَادِمُ، قَالَت: مَا قَالُوا لَكَ؟ تَقُولُ [الخَادِمُ] مَا يَقُولُونَ، يَقُولُ: بَارَكَ اللهُ فِيكُم، فَتَقُولُ عَائِشَةُ: وَفِيهِم بَارَكَ اللهُ، نَرُدُّ عَلَيهِم مِثلَ مَا قَالُوا، وَيَبقَى أَجرُنَا لَنَا[٤].

إِنَّ مِن تَمَامِ إِخْلَاصِ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّها لَم تَكُن تَنتَظِرُ شَيئًا، حَتَّى الدُّعَاءَ.

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٥٢٢).

(٢) قطعة من حديث: رواه أبو داود (١٦٧٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٥٢).

(٣) «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٥٢٧ - ٥٢٩).

(٤) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣٠٣) بسند جيد، وأورده الألباني رحمه الله في «صحيح الكلم الطيب» (رقم: ١٨٥- ٢٣٩).

١٠ الإخلاص في الدعاء للميت:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى المَيِّتِ، فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ**»(١).

فَالمَعنَى: أَنَّكَ تَدعُو بِحُضُورِ قَلبٍ، وَإِلحَاحٍ عَلَى اللهِ لِأَخِيكَ المَيِّتِ، لِأَنَّهُ مُحتَاجٌ لِدُعَائِكَ(٢). فَهُنَاكَ فَرقٌ بَينَ دُعَاءِ الإِنسَانِ المُخلِصِ، وَبَينَ دُعَاءِ الغَافِلِ اللَّاهِي(٣).

١١ الإخلاص في الحب والبغض والعطاء والمنع:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه: عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وأَبغَضَ لِلَّهِ، وأَعْطَى لِلَّهِ، ومَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»(٤).

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ رحمه الله: «فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ حُبُّهُ لِلَّهِ، وَبُغْضُهُ لِلَّهِ، وَهُمَا عَمَلُ قَلْبِهِ؛ وَعَطَاؤُهُ لِلَّهِ، وَمَنْعُهُ لِلَّهِ، وَهُمَا عَمَلُ بَدَنِهِ: دَلَّ عَلَى كَمَالِ مَحَبَّتِهِ لِلَّهِ، وَ[دَلَّ] ذَلِكَ عَلَى كَمَالِ الْإِيمَانِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ كَمَالَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَذَلِكَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَالْعِبَادَةُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْحُبِّ، وَكَمَالَ الذُّلِّ، وَالْحُبُّ مَبْدَأُ جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ الْإِرَادِيَّةِ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ حُبٍّ وَبُغْضٍ؛ فَإِذَا كَانَتْ مَحَبَّتُهُ لِمَنْ يُحِبُّهُ اللهُ، وَبُغْضُهُ لِمَنْ يُبْغِضُهُ اللهُ، دَلَّ ذَلِكَ

---

(١) رواه أبو داود (٣١٩٩)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٢٩٩).

(٢) «شرح رياض الصالحين» (٤/ ٥٤٥)، للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.

(٣) «شرح بلوغ المرام» (٢/ ٥٣٤)، للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.

(٤) رواه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٤١).

عَلَى صِحَّةِ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، لَكِنْ قَدْ يَقْوَى ذَلِكَ وَقَدْ يَضْعُفُ، بِمَا يُعَارِضُهُ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَأَهْوَائِهَا، الَّذِي يَظْهَرُ فِي بَذْلِ الْمَالِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ النَّفْسِ؛ فَإِذَا كَانَ حُبُّهُ لِلَّهِ، وَعَطَاؤُهُ لِلَّهِ، وَمَنْعُهُ لِلَّهِ، دَلَّ عَلَى كَمَالِ الْإِيمَانِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا...؛ وَمَنْ كَانَ حُبُّهُ لِلَّهِ، وَبُغْضُهُ لِلَّهِ، لَا يُحِبُّ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُبْغِضُ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُعْطِي إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا لِلَّهِ: فَهَذِهِ حَالُ السَّابِقِينَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ»(١).

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالدِّينُ كُلُّهُ يَدُورُ عَلَى أَربَعِ قَوَاعِدَ: حُبٌّ وَبُغضٌ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيهِمَا فِعلٌ وَتَركٌ، فَمَنْ كَانَ حُبُّهُ وَبُغضُهُ وَفِعلُهُ وَتَركُهُ لِلَّهِ، فَقَدِ استكمَلَ الإِيمَانَ، بِحَيثُ إِذَا أَحَبَّ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَإِذَا أَبغَضَ أَبغَضَ لِلَّهِ، وَإِذَا فَعَلَ فَعَلَ لِلَّهِ، وَإِذَا تَرَكَ تَرَكَ لِلَّهِ، وَمَا نَقَصَ مِن أَصنَافِ هَذِهِ الأَربَعَةِ، نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ وَدِينِهِ بِحَسَبِهِ»(٢).

١٢ الإخلاص في كظم الغيظ:

عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ جُرعَةٍ أَعظَمَ أَجرًا عِندَ اللهِ، مِنْ جُرعَةِ غَيظٍ، كَظَمَهَا عَبدٌ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(٣).

يَكظِمُهَا: «أَي: يَبلَعُهَا وَيَمنَعُهَا مِن إِظهَارِهَا، مَعَ كَثرَتِهَا وَمَلءِ بَاطِنِهِ مِنهَا؛ مِن (كَظَمَ القُربَةَ): مَلأَهَا وَشَدَّ فَمَهَا»(٤).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٥٤). (٢) «الروح» (ص٣٤٢).

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٩٦) [طبعة مكتبة المعارف].

(٤) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٩/ ٣١٥).

وَمَتَى عَلِمَ العَبدُ مَا فِي كَظمِ الغَيظِ مِنَ الثَّوَابِ الجَزِيلِ، وَالأَجرِ الجَمِيلِ، سَهُلَ عَلَيهِ. وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ تَحَلَّى بِالأَخلَاقِ الجَمِيلَةِ، وَتَخَلَّى عَنِ الأَخلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَمِمَّنْ تَاجَرَ مَعَ اللهِ تَعَالَى.

فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ: قَالَ **ابنُ القَيِّمِ** رَحِمَهُ اللهُ: «أَوثِق غَضَبَكَ بِسِلسِلَةِ الحِلمِ، فَإِنَّهُ كَلبٌ إِذَا أَفلَتَ أَتلَفَ»(١).

١٣ الإِخلَاصُ فِي بِنَاءِ المَسَاجِدِ:

عَنْ عُثمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ بَنَى مَسجِدًا يَبتَغِي بِهِ وَجهَ اللهِ، بَنَى اللهُ لَهُ مِثلَهُ فِي الجَنَّةِ**»(٢).

وَلَمَّا فَهِمَ عُثمَانُ هَذَا المَعنَى، تَأَنَّقَ فِي بِنَاءِ المَسجِدِ، وَحَسَّنَهُ، وَأَتقَنَهُ، وَأَخلَصَ لِلَّهِ فِيهِ؛ رَجَاءَ أَن يُبنَى لَهُ فِي الجَنَّةِ قَصرٌ مُتقَنٌ مُشرِفٌ مُرَفَّعٌ، وَقَد فَعَلَ اللهُ تَعَالَى لَهُ ذَلِكَ وَزِيَادَةً، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ(٣).

قَالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «الإِخلَاصُ شَرطٌ لِحُصُولِ الثَّوَابِ فِي جَمِيعِ الأَعمَالِ، فَإِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِامرِئٍ مَا نَوَى، وَبِنَاءُ المَسَاجِدِ مِن جُملَةِ الأَعمَالِ، فَإِن كَانَ البَاعِثُ عَلَى عَمَلِهِ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ حَصَلَ لَهُ هَذَا الأَجرُ، وَإِن كَانَ البَاعِثُ عَلَيهِ الرِّيَاءَ وَالسُّمعَةَ أَوِ المُبَاهَاةَ، فَصَاحِبُهُ مُتَعَرِّضٌ لِمَقتِ اللهِ وَعِقَابِهِ، كَسَائِرِ مَن عَمِلَ شَيئًا مِن أَعمَالِ البِرِّ يُرِيدُ بِهِ الدُّنيَا، كَمَن صَلَّى يُرَائِي أَو

---

(١) «الفوائد» (ص٩١).
(٢) رواه البخاري (٤٣٩)، ومسلم (٥٣٣).
(٣) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٢/ ١٣١).

حَجَّ يُرَائِي أَو تَصَدَّقَ يُرَائِي»[١].

١٤ الإخلاص في ترك المعصية لله:

عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَرَجَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ فَأَصَابَهُمُ المَطَرُ، فَدَخَلُوا [فِي غَارٍ] فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَيهِم صَخْرَةٌ، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ... وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ امْرَأَةً مِن بَنَاتِ عَمِّي كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ، فَقَالَتْ: لَا تَنَالُ ذَلِكَ مِنهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِئَةَ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعتُهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وتَرَكْتُهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافرُجْ عَنَّا فُرْجَةً، قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُمُ الثُّلُثَيْنِ»[٢].

«فَهَذَا الرَّجُلُ دَعَا امرَأَةً يُحِبُّهَا حُبًّا جَمًّا لِيُجَامِعَهَا بِالزِّنَا - وَالعِيَاذُ بِاللهِ - فِي مَكَانٍ خَالٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيهِمَا أَحَدٌ، وَهُوَ فِيهِ شَهوَةٌ، وَيُحِبُّ المَرأَةَ، لَكِن لَمَّا قَالَتْ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، قَامَ عَنهَا.

فَانظُرْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ! المُقتَضِي مَوجُودٌ! لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الجِمَاعِ، وَالمَرأَةُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيهِ، وَالمَكَانُ خَالٍ؛ لَكِن مَنَعَهُ مَانِعٌ، أَقوَى مِنْ هَذَا المُقتَضِي: وَهُوَ خَوفُ اللهِ»[٣].

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ٣٢٢ - ٣٢٣)، لابن رجب الحنبلي رحمه الله.

(٢) رواه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٤٦٣ - ٤٦٤) بتصرُّف، للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.

«فَفِي هَذَا الحَدِيثِ مِنَ الفَوَائِدِ وَالعِبَرِ: فَضِيلَةُ العِفَّةِ عَنِ الزِّنَا، وَأَنَّ الإِنسَانَ إِذَا عَفَّ عَنِ الزِّنَا - مَعَ قُدرَتِهِ عَلَيهِ -، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَفضَلِ الأَعمَالِ. وَقَد ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ هَذَا مِنَ السَّبعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: **«وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»**[(١)].

«فَهَذَا الرَّجُلُ مَكَّنَتهُ هَذِهِ المَرأَةُ الَّتِي يُحِبُّهَا مِنْ نَفسِهَا، فَقَامَ [عَنهَا] خَوفًا مِنَ اللهِ ﷻ، فَحَصَلَ عِندَهُ كَمَالُ العِفَّةِ، فَيُرجَى أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»[(٢)].

وَرَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ:

لَا خَيرَ فِيمَنْ لَا يُرَاقِبُ رَبَّهُ ... عِندَ الهَوَى وَيَخَافُهُ إِيمَانَا

حَجَبَ التُّقَى سُبُلَ الهَوَى فَأَخُو التُّقَى ... يَخْشَى إِذَا وَافَى المَعَادَ هَوَانَا[(٣)]

وَاعلَم بِأَنَّ مَن تَرَكَ المَعصِيَةَ «صَادِقًا مُخلِصًا مِن قَلبِهِ لِلَّهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي تَركِهَا مَشَقَّةً، إِلَّا فِي أَوَّلِ وَهلَةٍ لِيُمتَحَنَ: أَصَادِقٌ هُوَ فِي تَركِهَا أَم كَاذِبٌ؟ فَإِن صَبَرَ عَلَى تِلكَ المَشَقَّةِ قَلِيلًا، استَحَالَت لَذَّةً»[(٤)].

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ وَأَبِي الدَّهْمَاءِ قَالَا: أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٨٢ - ٨٣).

(٣) «روضة المحبين» (ص٣٣٨). ولهذين البيتين: قصة ومناسبة، ساقها ابن القيِّم رحمه الله.

(٤) «فوائد الفوائد» (ص ٢٥٠).

الْبَادِيَةِ، فَقُلْنَا: هَلْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ، مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ**»(١).

وَأَجَلُّ ما يُعَوَّضُ بِهِ: الأُنسُ بِاللَّهِ وَمَحَبَّتُهُ، وَطُمَأنِينَةُ القَلبِ بِهِ، وَقُوَّتُهُ وَنَشَاطُهُ، وَفَرَحُهُ وَرِضَاهُ عَن رَبِّهِ تَعَالَى(٢).

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَيَدخُلُ فِي الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ الإِخلَاصِ: تَركُ مَا تَشتَهِيهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ المُحَرَّمَةِ، إِذَا تَرَكَهَا خَالِصًا مِن قَلبِهِ، وَلَم يَكُن لِتَركِهَا مِنَ الدَّوَاعِي غَيرُ الإِخلَاصِ»(٣).

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

فَإِذَا نَزَعتَ عَنِ الغِوَايَةِ فَليَكُن ... لِلَّهِ ذَاكَ النَّزعُ لَا لِلنَّاسِ(٤)

١٥ الإخلاص في الأضحية:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: ذَبَحَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الذَّبْحِ كَبْشَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مُوجَأَيْنِ، فَلَمَّا وَجَّهَهُمَا قَالَ: «**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ، عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ**

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٦٣)، وقال الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الضعيفة» (١/ ٦٢): «وسنده صحيح على شرط مسلم».

(٢) «فوائد الفوائد» (ص٢٥٠).

(٣) «المجموعة الكاملة» (٧/ ٣٥ - ٣٦).

(٤) «ديوان الحسن بن هانئ» (ص٥١١).

رَبِّ العَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا مِنَ المُسلِمِينَ؛ اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ، [وَ] عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ، بِاسْمِ اللهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» ثُمَّ ذَبَحَ(١).

كَبْشَيْنِ: مُثَنَّى كَبشٍ، وَهُوَ ذَكَرُ الغَنَمِ.

أَقْرَنَيْنِ: ذَوَي قُرُونٍ.

أَمْلَحَيْنِ: تَثنِيَةُ أَملَحٍ، وَهُوَ الَّذِي فِيهِ سَوَادٌ وَبَيَاضٌ.

مُوجَأَيْنِ: أَي: خَصِيَّيْنِ.

مِنْكَ: أَي: مِنكَ المَنُّ وَالفَضلُ وَالعَطَاءُ، **وَلَكَ**: أَي: ابتِغَاءَ وَجهِكَ الكَرِيمِ.

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَا لَم يَكُن بِاللَّهِ لَا يَكُونُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ وَمَا لَم يَكُن لِلَّهِ فَلَا يَنفَعُ وَلَا يَدُومُ»(٢).

فَإِنَّ جَمِيعَ الأَعْمَالِ تَفْنَى، وَلَا يَبقَى مِنهَا شَيءٌ يَنفَعُ صَاحِبَهُ إِلَّا مَا كَانَ لِوَجهِ ذِي الجَلَالِ وَالإِكرَامِ(٣).

كُلُّ عَمَلٍ لَا يُرَادُ لِأَجلِهِ فَهُوَ ضَائِعٌ وَبَاطِلٌ، وَمُضمَحِلٌّ وَمُنقَطِعٌ.

١٦ الإخلاص في الحج:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَجَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَحْلٍ رَثٍّ، وَقَطِيفَةٍ تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ، أَوْ لَا تُسَاوِي، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ حِجَّةٌ، لَا**

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٩٥)، وحسَّن إسناده الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٨/ ١٤٢) [الكتاب الأم، طبعة غراس].

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٢٤).

(٣) «جامع المسائل» (٩/ ٢٦٥).

رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ»[١].

فَمَن قَصَدَ بِعِبَادَةِ الحَجِّ «الرِّيَاءَ وَالتَّسمِيعَ أَثِمَ بِذَلِكَ، وَإِن قَصَدَ بِهَا وَجهَ اللهِ تَعَالَى أُجِرَ وَفَازَ بِخَيرِ الدَّارَينِ وَمَدحِهِمَا»[٢].

١٧ الإخلاص في الصبر:

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فَلَم يَكتَفِ مِنهُم لِمُجَرَّدِ الصَّبرِ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا لِوَجهِهِ»[٣].

فَإِنَّ هَذَا هُوَ الصَّبرُ النَّافِعُ، الَّذِي يَحبِسُ بِهِ العَبدُ نَفسَهُ، وَطَلَبًا لِمَرضَاةِ رَبِّهِ، وَرَجَاءً لِلقُربِ مِنهُ، وَالحَظوَةِ بِثَوَابِهِ[٤].

وَاللَّهُ ﷻ هُوَ الَّذِي يُعِينُ عَلَى الصَّبرِ. قَالَ ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

«فَأَخبَرَ أَنَّ صَبرَهُ بِاللَّهِ... فَمَا لَا يَكُونُ بِاللَّهِ لَا يَكُونُ، وَمَا لَا يَكُونُ لِلَّهِ لَا يَنفَعُ وَلَا يَدُومُ»[٥]، وَكُلُّ عَمَلٍ لَم يُرَد بِهِ وَجهُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ[٦].

١٨ الإخلاص في الجهاد:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،**

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٩٠)، وصححه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٢٢).

(٢) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/ ١٠١).

(٣) «عدة الصابرين» (ص٤٨).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥٧١).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٢٩).

(٦) المصدر السابق (٨/ ٣٧٩).

لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ -، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ»(١).

وَقَولُهُ: «وَاللَّهُ أَعلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ»؛ تَنبِيهٌ عَلَى: وُجُوبِ الإِخلَاصِ فِي الجِهَادِ، وَتَنوِيهٌ بِالـمُخلِصِ فِيهِ، وَاستِبعَادٌ لِلإِخلَاصِ، وَإِشعَارٌ بِقِلَّتِهِ(٢).

وَعَن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عز وجل: المُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ هُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ، إِن قَبَضتُهُ أَورَثتُهُ الجَنَّةَ، وَإِن رَجَعتُهُ رَجَعتُهُ بِأَجرٍ أَو غَنِيمَةٍ»(٣).

أَي: أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُخلِصًا فِي نِيَّتِهِ، لَم يُعدَمِ الخَيرَ؛ فَإِن تُوُفِّيَ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَإِن رَجَعَ وَقَد غَنِمَ، رَجَعَ بِأَجرٍ وَغَنِيمَةٍ، فَحَصَلَ لَهُ الخَيرُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَإِن لَم يُدرِكِ الغَنِيمَةَ، فَقَد حَصَلَ الثَّوَابُ، وَفَازَ بِالأَجرِ العَظِيمِ، فَهُوَ غَانِمٌ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ(٤).

قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ رحمه الله: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ أَيضًا أَصلٌ عَظِيمٌ، وَفَضلٌ جَسِيمٌ لِلمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَعمَالَ لَا يَزكُو مِنهَا، إِلَّا مَا صَحِبَتهُ النِّيَّةُ، وَالإِخلَاصُ لِلَّهِ عز وجل، وَالإِيمَانُ بِهِ.

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الغَنِيمَةَ لَا تُنقِصُ مِن أَجرِ المُجَاهِدِ

---

(١) رواه البخاري (٢٨٠٣)، ومسلم (١٨٧٦). (٢) «المفهم» (٣/ ٧٠٧).
(٣) رواه الترمذي (١٦٢٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣١٥).
(٤) «شرح عمدة الأحكام» (٣/ ١٤٣٩-١٤٤٠). للعلامة السّعدي رحمه الله.

شَيئًا، وَأَنَّ المُجَاهِدَ وَافِرُ الأَجرِ، غَنِمَ أَو لَم يَغنَم»[١].

نَسأَلُ اللهَ أَن يَجعَلَنَا وَإِيَّاكُم مِنَ المُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ[٢].

١٩ الإِخلَاصُ فِي الدَّعوَةِ:

مَقَامُ الدَّعوَةِ إِلَى اللهِ: أَفضَلُ مَقَامَاتِ العَبدِ[٣]. وَمِن «أَهَمِّ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يُرجَى بِهَا القُربُ مِنَ اللهِ ﷻ، فَتَحتَاجُ حَاجَةً عَظِيمَةً لِتَجرِيدِهَا لِلَّهِ ﷻ، فَلْيَقصِدِ الدَّاعِيَةُ وَجهَ اللهِ ﷻ مُبتَغِيًا الأَجرَ وَالمَثُوبَةَ، وَلْيَحذَر مِن أَن يَنحَرِفَ قَصدُهُ إِلَى أَيِّ غَرَضٍ دُنيَوِيٍّ: مِن طَلَبِ مَالٍ أَو جَاهٍ أَو شُهرَةٍ، أَو سُمعَةٍ أَو تَمَيُّزٍ عَلَى الأَقرَانِ وَالزُّمَلَاءِ، فَإِنَّ فُقدَانَ الإِخلَاصِ إِلَى أَحَدِ هَذِهِ النَّوَايَا وَنَحوِهَا مِن أَعظَمِ الآفَاتِ، وَمِن أَسبَابِ فَشَلِ الدَّاعِيَةِ، أَوِ الدَّعوَاتِ الإِصلَاحِيَّةِ»[٤].

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يُوسُف].

وَفِي الآيَةِ «التَّنبِيهُ عَلَى الإِخلَاصِ فِي الدَّعوَةِ، بِأَن لَا يَكُونَ لِلدَّاعِيَةِ مَقصَدٌ سِوَى وَجهِ اللهِ، لَا يَقصِدُ بِذَلِكَ تَحصِيلَ مَالٍ أَو رِئَاسَةٍ، أَو مَدحٍ

---

(١) «التمهيد» (١٨/ ٣٤١).
(٢) «شرح رياض الصالحين» (٣/ ٤٥٤).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٧٤).
(٤) «حديث: مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ مِنَ الهُدَى وَالعِلمِ» (ص٦٠ - ٦١)، للأستاذ الدكتور فالح الصغير حفظه الله.

مِنَ النَّاسِ، أَو دَعوَةٍ إِلَى حِزبٍ أَو مَذهَبٍ»[١].

لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَو دَعَا إِلَى الحَقِّ، فَهُوَ يَدعُو إِلَى نَفسِهِ؛ فَالَّذِي يَدعُو إِلَى اللهِ: هُوَ الَّذِي لَا يُرِيدُ إِلَّا أَن يَقُومَ دِينُ اللهِ، وَالَّذِي يَدعُو إِلَى نَفسِهِ: هُوَ الَّذِي يُرِيدُ أَن يَكُونَ قَولُهُ هُوَ المَقبُولَ، حَقًّا كَانَ أَم بَاطِلًا[٢].

قَالَ العَلَّامَةُ السِّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «الدَّاعِي إِلَى اللهِ وَإِلَى دِينِهِ: لَهُ طَرِيقٌ وَوَسِيلَةٌ إِلَى مَقصُودِهِ، وَلَهُ مَقصُودَانِ: فَطَرِيقُهُ الدَّعوَةُ بِالحَقِّ إِلَى الحَقِّ لِلحَقِّ، فَإِذَا اجتَمَعَت هَذِهِ الثَّلَاثَةُ، بِأَن كَانَ يَدعُو بِالحَقِّ، أَي: بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ، وَالمُجَادَلَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ، وَكَانَ يَدعُو إِلَى الحَقِّ، وَهُوَ سَبِيلُ اللهِ تَعَالَى وَصِرَاطُهُ المُوصِلُ لِسَالِكِهِ إِلَى كَرَامَتِهِ، وَكَانَت دَعوَتُهُ لِلحَقِّ، أَي: مُخلِصًا لِلَّهِ تَعَالَى، قَاصِدًا بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ، حَصَلَ لَهُ أَحَدُ المَقصُودَينِ لَا مَحَالَةَ، وَهُوَ ثَوَابُ الدَّاعِينَ إِلَى اللهِ، وَأَجرُ وَرَثَةِ الرُّسُلِ بِحَسَبِ مَا قَامَ بِهِ مِن ذَلِكَ. وَأَمَّا المَقصُودُ الآخَرُ، وَهُوَ حُصُولُ هِدَايَةِ الخَلقِ وَسُلُوكُهُم لِسَبِيلِ اللهِ الَّذِي دَعَاهُم إِلَيهِ، فَهَذَا قَد يَحصُلُ وَقَد لَا يَحصُلُ؛ فَلِيَجتَهِدِ الدَّاعِي فِي تَكمِيلِ الدَّعوَةِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَلِيَستَبشِر بِحُصُولِ الأَجرِ وَالثَّوَابِ.

وَإِذَا لَم يَحصُلِ المَقصُودُ الثَّانِي، وَهُوَ هِدَايَةُ الخَلقِ، أَو حَصَلَ

---

(١) «الملخص في شرح كتاب التوحيد» (ص٥٢ - ٥٣).

(٢) «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/ ١٣٩).

مِنهُم مُعَارَضَةٌ أَو أَذِيَّةٌ لَهُ بِالقَولِ أَو بِالفِعلِ، فَليَصبِر وَيَحتَسِب، وَلَا يُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ تَركَ مَا يَنفَعُهُ، وَهُوَ القِيَامُ بِالدَّعوَةِ عَلَى وَجهِ الكَمَالِ، وَلَا يَضِيقُ صَدرُهُ بِذَلِكَ، فَتَضعُفَ نَفسُهُ وَتَحضُرَهُ الحَسَرَاتُ، بَل يَقُومَ بِجِدٍّ وَاجتِهَادٍ، وَلَو حَصَلَ مَا حَصَلَ مِن مُعَارَضَةِ العِبَادِ. وَهَذَا المَعنَى تَضَمَّنَهُ إِرشَادُ اللهِ بِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود].

فَأَمَرَهُ بِالقِيَامِ بِهِ بِجِدٍّ وَاجتِهَادٍ، مُكمِلًا لِذَلِكَ، غَيرَ تَارِكٍ لِشَيءٍ مِنهُ، وَلَا حَرَجَ صَدرِهِ لِأَذِيَّتِهِم، وَهَذِهِ وَظِيفَتُهُ الَّتِي يُطَالَبُ بِهَا، فَعَلَيهِ أَن يَقُومَ بِهَا؛ وَأَمَّا هِدَايَةُ العِبَادِ وَمُجَازَاتُهُم: فَذَلِكَ إِلَى اللهِ، الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ[1].

٢٠ الإخلاص في التوبة:

بِأَن يَكُونَ الإِنسَانُ مُخلِصًا فِيهَا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا يَحمِلُهُ عَلَى التَّوبَةِ: مُرَاءَاةُ النَّاسِ، وَلَا تَسمِيعُهُم، وَلَا أَن يَتَقَرَّبَ إِلَيهِم بِشَيءٍ، وَإِنَّمَا يَقصِدُ بِالتَّوبَةِ: الرُّجُوعَ إِلَى اللهِ حَقِيقَةً؛ وَالإِخلَاصُ شَرطٌ فِي كُلِّ عَمَلٍ، وَمِن جُملَةِ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ: التَّوبَةُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور][2].

---

(١) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ٢٤).

(٢) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٤٩٨)، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢١ الإخلاص في قيام الليل:

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: تَأَمَّل كَيفَ قَابَلَ مَا أَخفَوهُ مِن قِيَامِ اللَّيلِ بِالجَزَاءِ الَّذِي أَخفَاهُ لَهُم؟! مِمَّا لَا تَعلَمُهُ نَفسٌ، وَكَيفَ قَابَلَ قَلَقَهُم وَخَوفَهُم وَاضطِرَابَهُم عَلَى مَضَاجِعِهِم؟! حَتَّى يَقُومُوا إِلَى صَلَاةِ اللَّيلِ بِقُرَّةِ الأَعيُنِ فِي الجَنَّةِ(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة](٢).

٢٢ الإخلاص في التواضع:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «... وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ، إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(٣).

فَقَولُهُ: «لِلَّهِ» يَعنِي: أَلَّا يَكُونَ تَوَاضُعُهُ لِأَهلِ الدُّنيَا، ثُمَّ يَتَكَبَّرُ عَلَى

---

(١) «حادي الأرواح» (٢/ ٥٩٣).

(٢) رواه البخاري (٣٢٤٤ و٤٧٧٩ و٤٧٨٠ و٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) قطعة من حديث: أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

أَهلِ الدِّينِ، وَلَكِن يَتَوَاضَعُ لِلَّهِ فَيَرفَعُهُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ[١].

أَي: رَفَعَ قَدرَهُ فِي القُلُوبِ لِإِخلَاصِهِ فِي التَّوَاضُعِ[٢].

وَالتَّوَاضُعُ: وَهُوَ انْكِسَارُ الْقَلْبِ لِلَّهِ، وَخَفْضُ جَنَاحِ الذُّلِّ وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ، فَلَا يَرَى لَهُ عَلَى أَحَدٍ فَضلًا، وَلَا يَرَى لَهُ عِندَ أَحَدٍ حَقًّا، بَل يَرَى الفَضْلَ لِلنَّاسِ عَلَيهِ، وَالحُقُوقَ لَهُم قَبلَهُ، وَهَذَا خُلُقٌ إِنَّمَا يُعطِيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَن يُحِبُّهُ وَيُكرِمُهُ وَيُقَرِّبُهُ[٣].

فَهُوَ فِي نَفسِهِ صَغِيرٌ، وَفِي أَعيُنِ النَّاسِ عَظِيمٌ[٤]. فَتَوَاضَعَ لِلحَقِّ، وَخَفَضَ جَنَاحَهُ لِلمُؤمِنِينَ[٥].

وَمَن كَانَ كَذَلِكَ، رَفَعَ اللهُ تَعَالَى قَدرَهُ فِي القُلُوبِ، وَطَيَّبَ ذِكرَهُ فِي الأَفوَاهِ، وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ فِي الآخِرَةِ. وَأَمَّا التَّوَاضُعُ لِأَهلِ الدُّنيَا، وَلِأَهلِ الظُّلمِ، فَذَلِكَ هُوَ الذُّلُّ الَّذِي لَا عِزَّ مَعَهُ، وَالخِسَّةُ الَّتِي لَا رِفعَةَ مَعَهَا، بَل: يَترَتَّبُ عَلَيهَا ذُلُّ الآخِرَةِ، وَكُلُّ صَفقَةٌ خَاسِرَةٌ - نَعُوذُ بِاللهِ مِن ذَلِكَ -[٦].

مِن فَوَائِدِ الحَدِيثِ: مُرَاعَاةُ الإِخلَاصِ، وَأَنَّ الإِخلَاصَ لَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي حُصُولِ الثَّوَابِ؛ وَمِن فَوَائِدِهِ: أَنَّ الأَمرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَأَنَّ مَن رَفَعَهُ اللهُ، لَا خَافِضَ لَهُ؛ وَمَن وَضَعَهُ، فَلَا رَافِعَ لَهُ[٧].

---

(١) «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٨/ ١٧٥).
(٢) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣/ ٥٨٦ - ٥٨٧).
(٣) «الروح» (ص٣١٢).
(٤) «المجموعة الكاملة» (٦/ ١١٤).
(٥) المصدر السابق (٦/ ١٥٩).
(٦) «المفهم» (٦/ ٥٧٥).
(٧) «شرح بلوغ المرام» (٦/ ٣٨٨) باختصار وتصرُّف، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

فَالمُتَوَاضِعُ لِلَّهِ: الَّذِي ذَلَّ وَاستَكَانَ لِلَّهِ تَعَالَى لَا لِخَلقِهِ يَكُونُ قَلبُهُ قَرِيبًا مِنَ اللهِ، فَيَرفَعُهُ اللهُ بِذَلِكَ، فَهُوَ فِي الظَّاهِرِ هَابِطٌ نَازِلٌ، وَفِي البَاطِنِ - وَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ - صَاعِدٌ عَالٍ[١]؛ كَما قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «**مَا مِن آدَمِيٍّ إِلَّا فِي رَأسِهِ حَكَمَةٌ[٢] بِيَدِ مَلَكٍ، فَإِذَا تَوَاضَعَ قِيلَ لِلمَلَكِ: ارفَع حَكَمَتَهُ، وَإِذَا تَكَبَّرَ قِيلَ لِلمَلَكِ: ضَع حَكَمَتَهُ**»[٣].

فَالمُتَكَبِّرُ الَّذِي يَطلُبُ الِاستِعلَاءَ، يُعَاقَبُ بِأَن يَخفِضَهُ اللهُ وَيَنكُسَهُ؛ وَالمُتَوَاضِعُ الَّذِي يَتَوَاضَعُ لِلَّهِ، يُثِيبُهُ اللهُ بِأَن يُنعِشَهُ وَيَرفَعَهُ[٤].

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «قَولُهُ ﷺ: «**مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ، إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»؛ فَلَو تَوَاضَعَ لِيَرْفَعَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ، لَمْ يَكُنْ مُتَوَاضِعًا، فَإِنَّهُ يَكُونُ مَقْصُودُهُ الرِّفْعَةَ، وَذَلِكَ يُنَافِي التَّوَاضُعَ»[٥].

يَعْنِي: أَنَّ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ إِرَادَةُ وَجْهِهِ، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ حَصَلَتِ [الرِّفعَةُ] تَبَعًا، فَإِذَا كَانَتِ [الرِّفعَةُ] هِيَ المَقْصُودَ ابْتِدَاءً، لَمْ يَقَعِ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّمَا وَقَعَ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٦/ ٦٧ - ٦٨) [طبعة مجمع الملك فهد].

(٢) الحَكَمَةُ: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه، وفيها العِذاران؛ وهما من الفرس كالعارضين من وجه الإنسان.

(٣) رواه الطبراني (١٢٩٣٩)، وحسنه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٩٥).

(٤) «بيان تلبيس الجهمية» (٦/ ٧٠) بتصرُّف يسير، لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.

(٥) «كتاب بيان الدليل على بطلان التحليل» (ص٤١٠)، لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.

إِخْلَاصٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ[١].

وَقَالَ العَلَّامَةُ السِّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِي قَولِهِ ﷺ: «**مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ**» تَنبِيهٌ عَلَى حُسنِ القَصدِ وَالإِخلَاصِ لِلَّهِ فِي تَوَاضُعِهِ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَد يُظهِرُ التَّوَاضُعَ لِلأَغنِيَاءِ لِيُصِيبَ مِن دُنيَاهُم، أَو لِلرُّؤَسَاءِ لِيَنَالَ بِسَبَبِهِم مَطلُوبَهُ، وَقَد يُظهِرُ التَّوَاضُعَ رِيَاءً وَسُمعَةً، وَكُلُّ هَذِهِ أَغرَاضٌ فَاسِدَةٌ، لَا يَنفَعُ العَبدَ إِلَّا التَّوَاضُعُ لِلَّهِ تَقَرُّبًا إِلَيهِ، وَطَلَبًا لِثَوَابِهِ، وَإِحسَانًا إِلَى الخَلقِ، فَكَمَالُ الإِحسَانِ وَرُوحُهُ الإِخلَاصُ لِلَّهِ»[٢].

قَالَ العَلَّامَةُ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَن تَوَاضَعَ لِلَّهِ؛ رَفَعَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ، وَهَذَا أَمرٌ مُشَاهَدٌ: أَنَّ الإِنسَانَ المُتَوَاضِعَ، يَكُونُ مَحَلَّ رِفعَةٍ عِندَ النَّاسِ وَذِكرٍ حَسَنٍ، وَيُحِبُّهُ النَّاسُ»[٣].

وَالإِنسَانُ رُبَّمَا يَقُولُ: لَو تَوَاضَعتُ لِلفَقِيرِ وَكَلَّمتُ الفَقِيرَ، أَو تَوَاضَعتُ لِلصَّغِيرِ وَكَلَّمتُهُ أَو مَا أَشبَهَ ذَلِكَ، فَرُبَّمَا يَكُونُ فِي هَذَا وَضعٌ لِي، وَحَطٌّ مِن رُتبَتِي، وَلَكِن هَذَا مِن وَسَاوِسِ الشَّيطَانِ، فَالشَّيطَانُ يَدخُلُ عَلَى الإِنسَانِ فِي كُلِّ شَيءٍ... فَالشَّيطَانُ يَأتِي الإِنسَانَ وَيَقُولُ لَهُ: كَيفَ تَتَوَاضَعُ لِهَذَا الفَقِيرِ؟ كَيفَ تَتَوَاضَعُ لِهَذَا الصَّغِيرِ؟ كَيفَ تُكَلِّمُ فُلَانًا؟ كَيفَ تَمشِي مَعَ فُلَانٍ؟ وَلَكِن مَن تَوَاضَعَ

---

(١) «كتاب بيان الدليل على بطلان التحليل» (ص ٤١٠)، بتصرُّف يسير.

(٢) «المجموعة الكاملة» (٢/ ٧٦).

(٣) «شرح رياض الصالحين» (٣/ ٥٢٦).

لِلَّهِ رَفَعَهُ اللهُ ﷻ، حَتَّى وَإِن كَانَ عَالِمًا أَو كَبِيرًا أَو غَنِيًّا، فَإِنَّهُ يَنبَغِي أَن يَتَوَاضَعَ لِمَن كَانَ مُؤمِنًا(٤).

فَمَن أَرفَعُ مَنزِلَةً، وَأَجَلُّ قَدرًا مِمَّن رَفَعَهُ اللهُ؟!

وَلِلَّهِ دَرُّ الإِمَامِ يَحْيَى بْنِ يُوسُفَ الصَّرْصَرِيِّ. فَقَد قَالَ فِي قَصِيدَتِهِ العَيْنِيَّةِ:

تَوَاضَعْ لِرَبِّ العَرشِ عَلَّكَ تُرْفَعُ فَقَد فَازَ عَبدٌ لِلمُهَيمِنِ يَخضَعُ(٥)

كُن مُتَوَاضِعًا، وَتَذَكَّر دَائِمًا الحَدِيثَينِ التَّالِيَينِ:

١ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ، مِثْلُ الْجَمَلِ الْأَنِفِ: إِنْ قُدْتَهُ انْقَادَ، وَإِنْ أَنَخْتَهُ اسْتَنَاخَ**»(٦).

وَالأَنِفُ - بِفَتحٍ فَكَسرٍ -: الَّذِي عَقَرَ الخِشَاشُ أَنفَهُ، فَهُوَ لَا يَمتَنِعُ عَن قَائِدِهِ؛ لِلوَجَعِ الَّذِي بِهِ(٧).

٢ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ سَهلًا لَيِّنًا قَرِيبًا، حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»(٨).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٥٤٣)، بتصرُّف يسير.

(٥) هذا البيت ضمن ديوان الصرصري، وهو ما زال مخطوطًا.

(٦) رواه البيهقي في «الجامع لشعب الإيمان» (٧٧٧٨)، وحسنه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٩٣٦).

(٧) «شرح كتاب الشهاب» (ص٢٧٣).

(٨) رواه أبو يعلى (٥٠٦٠)، وصححه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٩٣٨).

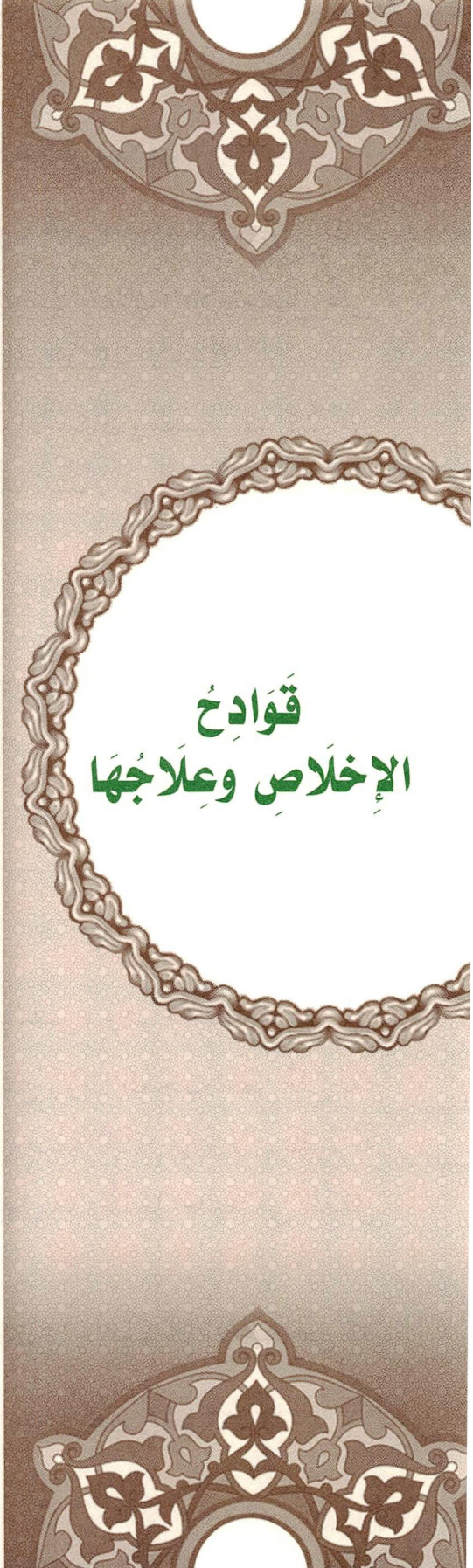

قَوادِحُ الإِخلَاصِ وعِلَاجُها

قبلَ البَدءِ بِذكرِ قَوادِحِ الإِخلَاصِ، يَنبَغِي أَن يُعلَمَ بِأَنَّهُ يُوجَدُ فِي النُّفُوسِ أَغـرَاضٌ تَمنَعُ الأَعـمَالَ أَن تَكُونَ لِلَّهِ خَالِصَةً، وَأَن تَصِلَ إِلَيهِ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيعمَلُ العَمَلَ حيثُ لَا يَرَاهُ بَشَرٌ أَلبَتَّةَ، وَهُوَ غيرُ خَالِصٍ لِلَّهِ، وَيَعمَلُ العَمَلَ وَالعُيُونُ قَدِ استَدَارَت عَلَيهِ نِطَاقًا، وَهُوَ خَالِصٌ لِوَجهِ اللهِ، وَلَا يُمَيِّزُ هَذَا إِلَّا أَهلُ البَصَائِرِ وَأَطِبَّاءُ القُلُوبِ، العَالِمُونَ بِأَدوَائِهَا وَعِلَلِهَا.

فَلَا يَتعَبُ المُخلِصُ، فقد أُقِيمَ عَلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ، فَيُسَارُ بِهِ وَهُوَ رَاقِدٌ، وَلَا يَتعَبُ مَنْ حُرِمَ الإِخلَاصَ، فَقَد قُطِعَت عَلَيهِ الطَّرِيقُ، وَاستَهوَتهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرضِ حيرَانَ، فَإِن شَاءَ فَليَعمَل، وَإِن شَاءَ فَليَترُك، فَلَا يَزِيدُهُ عَمَلُهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعدًا.

فَإِنَّ طَرِيقَ الإِخلَاصِ تَأخُذُ عُلُوًّا، صَاعِدَةً بِصَاحِبِهَا إِلَى العَلِيِّ الكَبِيرِ؛ وَطَرِيقُ الرِّيَاءِ تَأخُذُ سُفلًا، هَاوِيَةً بِسَالِكِهَا فِي أَسفَلِ سَافِلِينَ.

قَالَ المُوَفَّق ابنُ قُدَامَةَ المَقدِسِيُّ (ت٦٢٠هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاحتَرِس مِن مُفسِدَاتِ الأَعمَالِ؛ لِئَلَّا يَفسُدَ عَمَلُكَ، وَيَخِيبَ سَعيُكَ؛ فَلَا تَحصُلَ عَلَى أَجرِ العَامِلِينَ، وَلَا رَاحَةِ البَطَّالِينَ، وَتَفُوتَكَ الدُّنيَا وَالآخِرَةُ»(١).

وَقَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمُحبِطَاتُ الأَعمَالِ وَمُفسِدَاتُهَا أَكثَرُ مِن أَن تُحصَرَ، وَلَيسَ الشَّأنُ فِي العَمَلِ، إِنَّمَا الشَّأنُ فِي حِفظِ العَمَلِ مِمَّا يُفسِدُهُ وَيُحبِطُهُ.

فَالرِّيَاءُ - وَإِن دَقَّ - مُحبِطٌ لِلعَمَلِ، وَهُوَ أَبوَابٌ كَثِيرَةٌ لَا تُحصَرُ.

فَمَعرِفَةُ مَا يُفسِدُ الأَعمَالَ فِي حَالِ وُقُوعِهَا، وَيُبطِلُهَا وَيُحبِطُهَا بَعدَ وُقُوعِهَا: مِن أَهَمِّ مَا يَنبَغِي أَن يُفَتِّشَ عَلَيهِ العَبدُ، وَيَحرِصَ عَلَى عِلمِهِ وَيَحذَرَهُ»(٢).

فَمِن قَوَادِحِ الإِخلَاصِ:

١ العُجبُ بِالنَّفسِ:

العُجبُ بِالعَمَلِ مِن بَابِ الإِشرَاكِ بِالنَّفسِ، وَهُوَ مُحبِطٌ لِلعَمَلِ.

«وَزَوَالُ الجِبَالِ عَن أَمَاكِنِهَا، أَيسَرُ مِن زَوَالِ العُجبِ عَمَّن بُلِيَ بِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا صَارَ هَيئَةً رَاسِخَةً، وَمَلَكَةً وَصِفَةً ثَابِتَةً؛ فَإِنَّهُ لَا يَستَقِيمُ لَهُ مَعَهُ عَمَلٌ أَلبَتَّةَ، وَلَا تَزكُو نَفسُهُ مَعَ قِيَامِهَا بِهِ، وَكُلَّمَا اجتَهَدَ فِي العَمَلِ أَفسَدَهُ عَلَيه»(٣).

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ (ت٦٧٦هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلَم أَنَّ الإِخلَاصَ قَد

---

(١) «وصية ابن قدامة المقدسي» (ص٢٣). (٢) «الوابل الصيب» (ص٢٢ - ٢٣).

(٣) انظر: «فوائد الفوائد» (ص٢٨٨).

يَعرِضُ لَهُ آفَةُ العُجبِ، فَمَن أُعجِبَ بِعَمَلِهِ حَبِطَ عَمَلُهُ»[١].

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**المُهلِكَاتُ ثَلَاثٌ: إِعجَابُ المَرءِ بِنَفسِهِ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ**»[٢].

فَيَرَى نَفسَهُ أَنَّهُ قَد أَدَّى عِبَادَاتٍ، وَأَنَّهُ قَد وَصَلَ إِلَى مَرَاتِبَ بَينَهُ وَبَينَ نَفسِهِ؛ وَالَّذِي يُخَلِّصُهُ مِن رُؤيَةِ عَمَلِهِ عِدَّةُ أُمُورٍ، مِنهَا:

مُشَاهَدَتُهُ لِمِنَّةِ اللهِ عَلَيهِ، وَفَضلِهِ وَتَوفِيقِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ بِاللَّهِ لَا بِنَفسِهِ.

وَأَنَّهُ إِن وَكَلَهُ إِلَى نَفسِهِ هَلَكَ، فَمَا هَلَكَ مَن هَلَكَ إِلَّا حَيثُ وُكِلَ إِلَى نَفسِهِ.

وَأَنَّهُ لَو خُلِّيَ وَنَفسَهُ لَم يَكُن مِن فِعلِهِ الصَّالِحِ شَيءٌ أَلبَتَّةَ، فَإِنَّ النَّفسَ جَاهِلَةٌ ظَالِمَةٌ؛ طَبعُهَا الكَسَلُ، وَإِيثَارُ الشَّهَوَاتِ، وَالبَطَالَةُ، وَهِيَ مَنبَعُ كُلِّ شَرٍّ، وَمَأوَى كُلِّ سُوءٍ؛ وَمَا كَانَ هَكَذَا: لَم يَصدُر مِنهُ خَيرٌ، وَلَا هُوَ مِن شَأنِهِ.

فَالخَيرُ الَّذِي يَصدُرُ مِنهَا: إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللهِ، وَبِهِ، لَا مِنَ العَبدِ، وَلَا بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات]؛ فَهَذَا الحُبُّ وَهَذِهِ الكَرَاهَةُ لَم يَكُونَا فِي النَّفسِ وَلَا بِهَا، وَلَكِن هُوَ اللهُ الَّذِي مَنَّ بِهِمَا، فَجَعَلَ العَبدَ بِسَبَبِهِمَا

---

(١) «شرح الأربعين النووية» (ص١٠)، للنووي رحمه الله.

(٢) رواه البزّار «البحر الزخّار» (٣٣٦٦)، وحسنه الألباني رحمه الله بمجموع طرقه في «الصحيحة» (١٨٠٢).

مِنَ الرَّاشِدِينَ ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات]، فَهُوَ سُبحَانَهُ عَلِيمٌ بِمَن يَصلُحُ لِهَذَا الفَضلِ وَمَن لَا يَصلُحُ لَهُ، حَكِيمٌ يَضَعُهُ فِي مَوَاضِعِهِ وَعِندَ أَهلِهِ، لَا يَمنَعُهُ أَهلَهُ، وَلَا يَضَعُهُ عِندَ غَيرِ أَهلِهِ.

أَخِي المُسلِمَ: إِذَا قُمتَ بِطَاعَةٍ مِنَ الطَّاعَاتِ، فَاذكُر مِنَّةَ اللهِ عَلَيكَ فِي هَذِهِ الطَّاعَةِ، بِأَن يَسَّرَهَا حَتَّى عَمِلتَهَا؛ ثُمَّ مَعَ جَلَالَتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَاستِغنَائِهِ عَنكَ وَعَن طَاعَتِكَ، وَكَثرَةِ نِعَمِهِ عَلَيكَ: أَعَدَّ لَكَ عَلَى هَذَا العَمَلِ اليَسِيرِ، الثَّنَاءَ الجَزِيلَ وَالثَّوَابَ العَظِيمَ، مَا لَا تَستَحِقُّهُ، ثُمَّ شَكَرَكَ عَلَى ذَلِكَ وَأَثنَى عَلَيكَ، هَذِهِ كُلُّهَا بِفَضلِهِ العَظِيمِ لَا غَيرِ. فَاذكُر مِنَّةَ رَبِّكَ الكَرِيمِ الرَّحِيمِ ﷻ، فِيمَا أَحسَنَ إِلَيكَ فِي هَذِهِ الطَّاعَةِ، وَاستَحيِ مِن أَن تَلتَفِتَ إِلَى عَمَلِكَ، بَلِ الفَضلُ وَالمِنَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَينَا بِكُلِّ حَالٍ، فَلَا يَكُونُ لَكَ شُغلٌ بَعدَ حُصُولِ هَذِهِ الطَّاعَةِ، إِلَّا التَّضَرُّعَ وَالِابتِهَالَ إِلَى اللهِ ﷻ بِأَن يَتَقَبَّلَهَا. أَمَا تَسمَعُ قَولَ خَلِيلِهِ إِبرَاهِيمَ عليه السلام، لَمَّا فَرَغَ مِن خِدمَتِهِ فِي بِنَاءِ بَيتِهِ: كَيفَ ابتَهَلَ إِلَيهِ فِي أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيهِ بِالقَبُولِ؟! فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

فَلَئِن مَنَّ عَلَيكَ بِقَبُولِ هَذِهِ البِضَاعَةِ المُزجَاةِ، فَلَقَد أَكمَلَ المِنَّةَ وَأَعظَمَ النِّعمَةَ، وَإِن تَكُنِ الأُخرَى فَيَا لَهَا مِن خُسرَانٍ وَحِرمَانٍ، فَاهتَمَّ وَاشتَغِلْ بِهَذَا الشَّأنِ، فَإِذَا وَاظَبتَ عَلَى مِثلِ هَذَا، وَكَرَّرتَهُ عَلَى قَلبِكَ عِندَ الفَرَاغِ مِنَ طَاعَتِكَ، وَاستَعَنتَ بِاللَّهِ ﷻ، صَرَفَكَ عَنِ الِالتِفَاتِ إِلَى الخَلقِ وَالنَّفسِ، وَشَغَلَكَ عَن مُرَاءَاةٍ وَإِعجَابٍ، وَبَعَثَكَ عَلَى مَحضِ الإِخلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الطَّاعَاتِ، وَالتَّمَسُّكِ بِذِكرِ مِنَّةِ اللهِ تَعَالَى عَلَيكَ فِي جَمِيعِ الحَالَاتِ، وَيَحصُلُ لَكَ أَرجَى طَاعَاتٍ طَاهِرَةٍ لَا عَيبَ فِيهَا،

وَخَيرَاتٍ خَالِصَةٍ لَا شَوبَ فِيهَا، وَعِبَادَاتٍ مَقبُولَةٍ لَا نَقصَ فِيهَا، بَل مِثلُ هَذِهِ الطَّاعَةِ، وَإِن حَصَلَت فِي العُمُرِ مَثَلًا مَرَّةً وَاحِدَةً لَا غَيرَ، فَإِنَّهَا بِالحَقِيقَةِ لَكَبِيرَةٌ.

وَإِنَّهَا - وَإِن قَلَّ عَدَدُهَا - لَقَد كَثُرَ مَعنَاهَا وَعَظُمَ قَدرُهَا، وَكَثُرَ نَفْعُهَا وَطَابَ عُقْبَاهَا، وَإِنَّ التَّوفِيقَ لِمِثلِهَا عَزِيزٌ، وَالفَضْلَ بِهِ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى العَبْدِ لَكَبِيرٌ. فَأَيُّ سَعيٍ أَكرَمُ مِن سَعيٍ يَشكُرُهُ وَيُثنِي عَلَيهِ رَبُّ العَالَمِينَ، وَأَيُّ بِضَاعَةٍ أَعَزُّ مِن بِضَاعَةٍ اختَارَهَا وَرَضِيَهَا رَبُّ العَالَمِينَ؟!

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنفَعُ العَمَلِ: أَن تَغِيبَ فِيهِ عَنِ النَّاسِ بِالإِخلَاصِ، وَعَن نَفسِكَ بِشُهُودِ المِنَّةِ؛ فَلَا تَرَى فِيهِ نَفسَكَ، وَلَا تَرَى الخَلقَ»[1].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَا شَيءَ أَفسَدُ لِلأَعمَالِ مِنَ العُجْبِ وَرُؤيَةِ النَّفسِ. فَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ خَيرًا أَشهَدَهُ مِنَّتَهُ وَتَوفِيقَهُ وَإِعَانَتَهُ لَهُ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ وَيَفعَلُهُ، فَلَا يَعجَبُ بِهِ، ثُمَّ أَشهَدَهُ تَقصِيرَهُ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَرضَى لِرَبِّهِ بِهِ، فَيَتُوبُ إِلَيهِ مِنهُ وَيَستَغفِرُهُ، وَيَستَحْيِي أَن يَطْلُبَ عَلَيهِ أَجرًا.

وَإِذَا لَم يُشهِدْهُ ذَلِكَ وَغَيَّبَهُ عَنهُ، فَرَأَى نَفسَهُ فِي العَمَلِ، وَرَآهُ بِعَينِ الكَمَالِ وَالرِّضَا، لَم يَقَع ذَلِكَ العَمَلُ مِنهُ مَوقِعَ القَبُولِ وَالرِّضَا وَالمَحَبَّةِ.

فَالعَارِفُ يَعمَلُ العَمَلَ لِوَجهِهِ مُشَاهِدًا فِيهِ مِنَّتَهُ وَفَضلَهُ وَتَوفِيقَهُ، مُعتَذِرًا مِنهُ إِلَيهِ، مُستَحْيِيًا مِنهُ إِذ لَم يُوَفِّهِ حَقَّهُ؛ وَالجَاهِلُ يَعمَلُ العَمَلَ لِحَظِّهِ وَهَوَاهُ، نَاظِرًا فِيهِ إِلَى نَفسِهِ، يَمُنُّ بِهِ عَلَى رَبِّهِ، رَاضِيًا بِعَمَلِهِ؛ فَهَذَا

---

(١) «الفوائد» (ص١٠٥).

لَونٌ، وَذَاكَ لَونٌ آخَرُ»(١).

٢ الرِّياء:

الرِّيَاءُ - عَصَمَكَ اللهُ - مِن أَعظَمِ الكَبَائِرِ، وَأَخبَثِ السَّرَائِرِ، وَأَجَلِّ المَنَاكِرِ، وَمَا زَالَ صَاحِبُهُ مَمقُوتًا مَخزِيًّا، مَبغُوضًا، مَقلِيًّا(٢)، مُبعَدًا عَن كُلِّ خَيرٍ، مَنفِيًّا. قَد شَهِدَت بِمَقتِهِ الآيَاتُ وَالآثَارُ، وَتَوَاتَرَت بِمَذَمَّتِهِ القَصَصُ وَالأَخبَارُ، وَمَا زَالَ الرِّيَاءُ مُبطِلًا لِلأَعمَالِ، مُفسِدًا لِجَمِيعِ الأَحوَالِ(٣).

الرِّيَاءُ: أَقْبَحُ مَقَام قَامَهُ الإِنْسَانُ(٤)، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنِ المُنَافِقِينَ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء].

وَهُوَ «خُلُقٌ رَذِيلٌ سَاقِطٌ دَنِيءٌ جِدًّا، مِن أَخلَاقِ المُنَافِقِينَ الأَرذَلِينَ، المُنقَطِعِينَ عَن رَبِّ العَالَمِينَ؛ الَّذِينَ هُم فِي الدَّركِ الأَسفَلِ مِنَ النَّارِ، كَمَا كَانُوا فِي الدَّركِ الأَسفَلِ مِنَ الأَخلَاقِ»(٥).

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان].

«فَهَذِهِ الأَعمَالُ الَّتِي كَانَت فِي الدُّنيَا عَلَى غَيرِ سُنَّةِ رُسُلِهِ وَطَرِيقَتِهِم، وَلِغَيرِ وَجهِهِ، يَجعَلُهَا اللهُ هَبَاءً مَنثُورًا، وَلَا يَنتَفِعُ مِنهَا صَاحِبُهَا بِشَيءٍ أَصلًا؛ وَهَذَا مِن أَعظَمِ الحَسَرَاتِ عَلَى العَبدِ يَومَ القِيَامَةِ: أَن يَرَى سَعيَهُ

---

(١) «الفوائد» (ص٢٧٣) [مكتبة المؤيَّد - الرياض].

(٢) مقليًّا: مبغوضًا مهجورًا.

(٣) «الذخائر والأعلاق» (ص٤٥٩).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٢٦٩)، بتصرُّف يسير.

(٥) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ٤٨١) بتصرُّف يسير، للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

كُلَّهُ ضَائِعًا لَم يَنتَفِع مِنهُ بِشَيءٍ، وَهُوَ أَحوَجُ مَا كَانَ العَامِلُ إِلَى عَمَلِهِ، وَقَد سَعِدَ أَهلُ السَّعيِ النَّافِعِ بِسَعِيهِم»[١].

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَن لَم تَكُن نِيَّتُهُ صَالِحَةً، وَعَمَلُهُ عَمَلًا صَالِحًا لِوَجهِ اللهِ، وإِلَّا كَانَ عَمَلًا فَاسِدًا أَو لِغَيرِ وَجهِ اللهِ، وَهُوَ البَاطِلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [اللَّيل]»[٢].

قَالَ ابنُ قُدَامَةَ المَقدِسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَمَلُ بِغَيرِ نِيَّةٍ عَنَاءٌ، وَالنِّيَّةُ بِغَيرِ إِخلَاصٍ رِيَاءٌ، وَالإِخلَاصُ مِن غَيرِ تَحقِيقٍ هَبَاءٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفُرقَان]»[٣].

فَيَا شِدَّةَ الحَسرَةِ! عِندَمَا يُعَايِنُ [المُرَائِي] سَعيَهُ، وَكَدَّهُ هَبَاءً مَنثُورًا[٤].

وَهَذِهِ هِيَ المُصِيبَةُ الَّتِي لَا تُجبَرُ، عِيَاذًا بِاللَّهِ، وَاستِعَانَةً بِهِ وَافتِقَارًا، وَتَوَكُّلًا عَلَيهِ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ[٥].

كَم مِن مُجتَهِدٍ فِي العِبَادَةِ صَارَ لِلنِّيرَانِ حَطَبًا، وَصَارَت عِبَادَتُهُ هَبَاءً مَنثُورًا؟! لِأَنَّهَا لَم تَكُن خَالِصَةً لِوَجهِ اللهِ الكَرِيمِ.

«وَلَا تَكُ بِالأَعمَالِ يَومًا مُرَائِيًا ... فَإِنَّ الرِّيَا شِركٌ بِنَصِّ الدَّلَائِلِ
فَوَيلٌ لِمَن قَد كَانَ يَعمَلُ بِالرِّيَا ... بِطَاعَتِهِ لِلَّهِ لَيسَ بِعَامِلِ»[٦]

---

(١) «الرسالة التبوكية» (ص١٥٤).
(٢) «الاستقامة» (٢/ ٢٩٤).
(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٤٥٤).
(٤) «مدارج السالكين» (١/ ١٧)، بتصرُّف يسير.
(٥) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٦٤- ٢٦٥).
(٦) «نظم الجوهر في النواهي والأوامر» (ص٢٣).

وَأَسبَابُ الرِّيَاءِ ثَلَاثَةٌ:

الأَوَّلُ: حُبُّ لَذَّةِ الحَمدِ، فَيَعمَلُ العَمَلَ لِأَجلِ أَن يَمدَحَهُ النَّاسُ.

الثَّانِي: الفِرَارُ مِنَ الذَّمِّ، فَيُحسِنُ الصَّلَاةَ، حَتَّى لَا يُقَالَ عَنهُ: فُلَانٌ يُسرِعُ فِي صَلَاتِهِ مَثَلًا، فَيَنجُو مِن ذَمِّ النَّاسِ.

الثَّالِثُ: الطَّمَعُ فِيمَا أَيدِي النَّاسِ.

وَيَشهَدُ لِهَذَا: مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١).

فَمَعنَى قَولِ السَّائِلِ: «**يُقَاتِلُ شَجَاعَةً**»، أَي: لِيُذكَرَ وَيُحمَدَ.

وَمَعنَى قَولِهِ: «**يُقَاتِلُ حَمِيَّةً**»، أَي: يَأنَفُ أَن يُقهَرَ أَو يُذَمَّ.

وَمَعنَى قَولِهِ: «**يُقَاتِلُ رِيَاءً**»، أَي: لِيُرَى مَكَانُهُ(٢).

لَقَد وَضَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خُطُورَةَ الرِّيَاءِ فِي مَقَامَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَبِعِبَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ:

أولاً: الرِّياءُ أخطرُ على المُسلمينَ من فتنةِ المسيحِ الدَّجَّالِ:

عَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَنَحنُ نَتَذَاكَرُ المَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «**أَلَا أُخبِرُكُم بِمَا هُوَ أَخوَفُ عَلَيكُم عِندِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قَالَ: قُلنَا: بَلَى، فَقَالَ: «**الشِّركُ الخَفِيُّ: أَن يَقُومَ**

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤).

(٢) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٨٤).

الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِن نَظَرِ رَجُلٍ»[(١)].

وَإِنَّمَا سَمَّاهُ «خَفِيًّا» لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُظهِرُ، أَنَّ عَمَلَهُ لِلَّهِ، وَقَد قَصَدَ بِهِ غَيرَهُ، أَو شَرَكَهُ فِيهِ، وَزَيَّنَ صَلَاتَهُ لِأَجلِهِ[(٢)].

وَهَذَا الحَدِيثُ فِيهِ: أَنَّ الرِّيَاءَ شِركٌ خَفِيٌّ، وَوَجهُ كَونِهِ خَفِيًّا: أَنَّهُ فِي النِّيَّاتِ وَالمَقَاصِدِ وَأَعمَالِ القُلُوبِ، وَهَذِهِ لَا يَعلَمُهَا إِلَّا اللهُ ﷻ، لَا أَحَدَ يَعلَمُ النِّيَّاتِ، وَيَعلَمُ المَقَاصِدَ، إِلَّا اللهُ ﷻ.

وَفِي الحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى خُطُورَتِهِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَافَهُ عَلَى أَفضَلِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهُمُ الصَّحَابَةُ ﷺ، فَكَيفَ بِغَيرِهِم؟! وَأَنَّهُ ﷺ يَخَافُهُ عَلَيهِم أَشَدَّ مِمَّا يَخَافُ عَلَيهِم مِن فِتنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، لِأَنَّهُ قَلَّ مَن يَسلَمُ مِنهُ.

أَمَّا المَسِيحُ الدَّجَّالُ مَعَ عِظَمِ فِتنَتِهِ - وَقَانَا اللهُ وَإِيَّاكُم مِن فِتنَتِهِ -: فَإِنَّمَا ضَرَرُهُ عَلَى الَّذِينَ يُعَاصِرُونَهُ وَيَخرُجُ وَهُم أَحيَاءٌ، أَمَّا الرِّيَاءُ: فَهَذَا خَطَرُهُ عَلَى الجَمِيعِ فِي كُلِّ عَصرٍ، [وَ]فِي كُلِّ وَقتٍ[(٣)].

وَأَيضًا فَإِنَّ «أَمرَ المَسِيحِ أَمرٌ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَ مَا فِي شَأنِهِ، وَبَيَّنَ صِفَتَهُ، وَحَذَّرَ الأُمَّةَ مِنهُ، وَأَمَرَهُم بِأَن يَدعُوا آخِرَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَأَن يَستَعِيذُوا مِن فِتنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؛ أَمَّا الرِّيَاءُ: فَإِنَّهُ يَعرِضُ لِلقَلبِ كَثِيرًا، وَالشَّيطَانُ يَأتِي إِلَى القُلُوبِ. وَهَذَا الشِّركُ يَقُودُ العَبْدَ إِلَى أَن يَتَخَلَّى شَيئًا فَشَيئًا عَن مُرَاقَبَةِ اللهِ ﷻ، وَيَتَّجِهَ إِلَى مُرَاقَبَةِ المَخلُوقِينَ؛ لِذَلِكَ صَارَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسَّنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٠٨) [طبعة مكتبة المعارف].

(٢) «الدين الخالص» (٢/ ٣٨٥).

(٣) «إعانة المستفيد» (٢/ ٩٦).

أَخوَفَ عِندَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَينَا مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»[١].

فَلَا غَرَابَةَ أَن يَخَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ: مِن دَاءِ الرِّيَاءِ، وَقَصدِ السُّمعَةِ وَالمَدحَةِ؛ فَإِنَّ الإِخلَاصَ فِي العَمَلِ، لَا يُوَفَّقُ لَهُ إِلَّا القَلِيلُ مِن أَهلِ الإِيمَانِ الرَّاسِخِ، الَّذِينَ يُؤتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ أَنَّهُم إِلَى رَبِّهِم رَاجِعُونَ[٢].

ثانيا: الرِّياءُ هوَ الشِّركُ الخفيُّ:

عَن مَحمُودِ بنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَخوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الشِّركُ الأَصغَرُ**». قَالُوا: وَمَا الشِّركُ الأَصغَرُ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عز وجل لَهُم يَومَ القِيَامَةِ، إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعمَالِهِم: اذهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنتُم تُرَاؤُونَ فِي الدُّنيَا، فَانظُرُوا هَل تَجِدُونَ عِندَهُم جَزَاءً؟!**»[٣].

يَعنِي: أَنَّهُ يُبطِلُ أَعمَالَ المُرَائِينَ، وَأَنَّهُ يُحِيلُهُم عَلَى الَّذِينَ رَاءَوهُم فِي الدُّنيَا، فَيُقَالُ: انظُرُوا:

هَل يُثِيبُونَكُم، أَي: أُولَئِكَ الَّذِينَ تَزَيَّنتُم عِندَهُم، وَرَائَيتُمُوهُم فِي الدُّنيَا؟!

هَل تَجِدُونَ عِندَهُم ثَوَابًا؟!

هَل تَجِدُونَ عِندَهُم جَزَاءً عَلَى أَعمَالِكُم؟![٤]

---

(١) «التمهيد لشرح كتاب التوحيد» (ص٤٠١-٤٠٢).

(٢) «الأفنان النديَّة» (٦/ ٤٤٠).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٤٢٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢).

(٤) «منهاج المسلم» (ص١٨٧)، للعلَّامة عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله.

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

وَكُلُّ امرِئٍ يَومًا سَيُعرَفُ سَعيُهُ إِذَا حُصِّلَت عِندَ الإِلَهِ الحَصَائِلُ[١]

وَالرِّيَاءُ مَعنَاهُ: أَنَّ الإِنسَانَ يَتَصَنَّعُ أَمَامَ النَّاسِ بِالتَّقوَى، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِتقَانِ الصَّلَاةِ، وَغيرِ ذَلِكَ، مِن أَجلِ أَن يَمدَحُوهُ؛ فَالرِّيَاءُ مِنَ الرُّؤيَةِ: أَن يُحِبَّ الإِنسَانُ أَن يَرَاهُ النَّاسُ، وَهُوَ يَعمَلُ العَمَلَ الصَّالِحَ، مِن أَجلِ أَن يَمدَحُوهُ[٢].

وَالفَرقُ بَينَ الرِّيَاءِ وَالسُّمعَةِ: أَنَّ الرِّيَاءَ فِيمَا يُرَى مِنَ الأَعمَالِ الَّتِي ظَاهِرُهَا لِلَّهِ، وَبَاطِنُهَا لِغَيرِهِ، كَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ. أَمَّا السُّمعَةُ: فَهِيَ لِمَا يُسمَعُ مِنَ الأَقوَالِ الَّتِي ظَاهِرُهَا لِلَّهِ، وَالقَصدُ مِنهَا لِغَيرِ اللهِ، كَالقِرَاءَةِ وَالذِّكرِ وَالوَعظِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَقوَالِ؛ وَقَصدُ المُتَكَلِّمِ: أَن يَسمَعَ النَّاسُ كَلَامَهُ، فَيُثنُوا عَلَيهِ، وَيَقُولُوا: هُوَ جَيِّدٌ فِي الكَلَامِ، جَيِّدٌ فِي المُحَاوَرَةِ، جَيِّدٌ فِي الخُطبَةِ، إِنَّهُ حَسَنُ الصَّوتِ فِي القُرآنِ، إِذَا كَانَ يُحَسِّنُ صَوتَهُ بِالقُرآنِ، لِأَجلِ ذَلِكَ؛ فَإِذَا كَانَ يُلقِي المُحَاضَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ وَالدُّرُوسَ، مِن أَجلِ أَن يَمدَحَهُ النَّاسُ، فَهَذَا سُمعَةٌ[٣].

وَالرِّيَاءُ شِركٌ خَفِيٌّ، لِأَنَّ الشِّركَ عَلَى نَوعَينِ: شِركٌ ظَاهِرٌ وَشِركٌ خَفِيٌّ، الشِّركُ الظَّاهِرُ: الَّذِي يَتَمَثَّلُ فِي الأَعمَالِ وَالأَقوَالِ، بِأَن يَدعُوَ غَيرَ اللهِ، أَو يَذبَحَ لِغَيرِ اللهِ، أَو يَستَغِيثَ بِغَيرِ اللهِ، هَذَا ظَاهِرٌ يَرَاهُ النَّاسُ وَيَسمَعُونَهُ؛ لَكِن هُنَاكَ شِركٌ خَفِيٌّ لَا يَدرِي عَنهُ النَّاسُ، لِأَنَّهُ فِي القَلبِ،

---

(١) «إصلاح المجتمع» (ص١١).
(٢) «إعانة المستفيد» (١/ ٩٦).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٩٠).

لَا يَعلَمُهُ إِلَّا اللهُ ﷻ، وَهُوَ الشِّركُ فِي النِّيَّةِ وَالإِرَادَةِ؛ فَالإِنسَانُ إِذَا سَلِمَ مِنَ الشِّركِ الأَكبَرِ، فَإِنَّهُ قَد لَا يَسلَمُ مِنَ الشِّركِ الأَصغَرِ الَّذِي يَكُونُ فِي القُلُوبِ، وَهَذَا مِمَّا يُعطِي المُؤمِنَ الحَذَرَ الشَّدِيدَ[١].

فَهَذَا الحَدِيثُ: فِيهِ الخَوفُ مِنَ الشِّركِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَافَهُ عَلَى سَادَاتِ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ، وَعَلَى أَفضَلِ هَذِهِ الأُمَّةِ: مَعَ كَمَالِ عِلمِهِم، وَقُوَّةِ إِيمَانِهِم، وَغَايَةِ عَمَلِهِم، وَصِحَّةِ نِيَّتِهِم؛ فَكَيفَ لَا يَخَافُهُ مَن هُوَ دُونَهُم فِي العِلمِ وَالإِيمَانِ، وَالعَمَلِ، وَالنِّيَّةِ بِمَرَاتِبَ؟![٢]

فَتَأَمَّل - يَا هَذَا - فِي حَالِكَ، وَاعلَم أَنَّ إِلَى اللهِ مَصِيرَكَ، فَمَن نَصِيرُكَ؟ وَفِي القَبرِ مَقِيلُكَ، فَمَا قِيلُكَ؟[٣]

ثالثا: الرِّياءُ مُحبِطٌ لِلأَعمالِ:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: أَنَا أَغنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيرِي، تَرَكتُهُ وَشِركَهُ**»[٤].

لَمَّا كَانَ المُرَائِي قَاصِدًا بِعَمَلِهِ اللهَ تَعَالَى وَغَيرَهُ، كَانَ قَد جَعَلَ اللهَ تَعَالَى شَرِيكًا، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الغَنِيُّ عَلَى الإِطلَاقِ، وَالشُّرَكَاءُ بَل جَمِيعُ الخَلقِ فُقَرَاءُ إِلَيهِ بِكُلِّ اعتِبَارٍ، فَلَا يَلِيقُ بِكَرَمِهِ وَغِنَاهُ التَّامِّ: أَن يَقبَلَ العَمَلَ الَّذِي جُعِلَ لَهُ فِيهِ شَرِيكٌ، فَإِنَّ كَمَالَهُ ﷻ وَكَرَمَهُ وَغِنَاهُ: يُوجِبُ أَن لَا يَقبَلَ ذَلِكَ[٥].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٩٧).
(٢) «الدين الخالص» (١/ ٤١٩).
(٣) «الدين الخالص» (٢/ ٣٨٦).
(٤) رواه مسلم (٢٩٨٥).
(٥) «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٢٧).

قَالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَد يُحبَطُ العَمَلُ بِآفَةٍ: مِن رِيَاءٍ، أَو عُجبٍ بِهِ، وَنَحوِ ذَلِكَ، ولَا يَشعُرُ بِهِ صَاحِبُهُ»(١).

رابعا: الرِّياءُ سَبَبٌ لِدُخولِ النَّارِ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ؛ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ؛ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»(٢).

فَتَأَمَّل بِاللهِ عَلَيكَ هَذَا الحَدِيثَ حَقَّ تَأَمُّلِهِ! وَانظُرْ كَيفَ كَانَت هَذِهِ الأَعمَالُ العِظَامُ وَبَالًا عَلَى أَصحَابِهَا لَمَّا لَم تُصَاحِبْهَا النِّيَّةُ الصَّالِحَةُ، فَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ، مَا أَشَدَّ مُعَالَجَةَ هَذِهِ

(١) «المحجة في سير الدلجة» (ص٩٦). (٢) رواه مسلم (١٩٠٥).

النِّيَّةَ! وَمَا أَعظَمَ أَثَرَهَا فِي العَمَلِ![1]

فَإِذَا سَمِعتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ هَذَا الحَدِيثَ، العَظِيمَ نَبَؤُهُ، الكَبِيرَ خَطَرُهُ، الأَلِيمَ أَثَرُهُ، الَّذِي تَطِيرُ لَهُ القُلُوبُ وَتَحِيرُ لَهُ العُقُولُ، وَتَضِيقُ عَن حَملِهِ الصُّدُورُ، وَتَجزَعُ مِن هَولِهِ النُّفُوسُ، فَاعتَصِم بِمَولَاكَ إِلَـٰهِ العَالَمِينَ، وَالزَم البَابَ بِالتَّضَرُّعِ وَالِابتِهَالِ وَالبُكَاءِ آنَاءَ اللَّيلِ وَأَطرَافَ النَّهَارِ مَعَ المُتَضَرِّعِينَ المُبتَهِلِينَ، فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنَ الرِّيَاءِ إِلَّا بِرَحمَتِهِ وَتَوفِيقِهِ وَعِنَايَتِهِ، فَتَنَبَّه مِن رَقدَةِ الغَافِلِينَ، وَاعقِلِ الأَمرَ حَقَّهُ، وَجَاهِد نَفسَكَ عَلَى الإِخلَاصِ لَعَلَّكَ لَا تَهلَكُ مَعَ الهَالِكِينَ.

هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ «انظُر إِلَى أَعمَالِهِم مَا أَجمَلَهَا! وَانظُر إِلَى مَصِيرِهِم مَا أَقبَحَهُ! وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِفَسَادِ قُلُوبِهِم، وَخُبثِ ضَمَائِرِهِم، وَعَدَمِ إِخلَاصِهِم لِلَّهِ فِي أَعمَالِهِم»[2].

هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ قَامُوا بِأَعْمَالٍ عَظِيمَةٍ جَلِيلَةٍ، وَلَمَّا لَمْ يُطَهِّرُوا قُلُوبَهُم مِنَ الرِّيَاءِ، كَانَ مَصِيرُهُمُ النَّارَ يَومَ القِيَامَةِ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ ﷺ فِي الغَازِي وَالعَالِمِ وَالجَوَادِ، وَعِقَابُهُم عَلَى فِعلِهِم ذَلِكَ لِغَيْرِ اللهِ، وَإِدخَالُهُمُ النَّارَ: دَلِيلٌ عَلَى تَغلِيظِ تَحرِيمِ الرِّيَاءِ، وَشِدَّةِ عُقُوبَتِهِ، وَعَلَى الحَثِّ عَلَى وُجُوبِ الإِخلَاصِ فِي الأَعمَالِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البَيِّنَة: ٥]؛ وَفِيهِ أَنَّ العُمُومَاتِ الْوَارِدَةَ فِي فَضلِ الجِهَادِ: إِنَّمَا هِيَ لِمَن

(١) «اللآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية» (ص٦٦).
(٢) «الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ» (ص٥٣).

أَرَادَ اللهَ تَعَالَى بِذَلِكَ مُخلِصًا، وَكَذَلِكَ الثَّنَاءُ عَلَى العُلَمَاءِ، وَعَلَى المُنفِقِينَ فِي وُجُوهِ الخَيرَاتِ: كُلُّهُ مَحمُولٌ عَلَى مَن فَعَلَ ذَلِكَ، لِلَّهِ تَعَالَى مُخلِصًا»(١).

قَالَ شَيخُ الإِسلَام رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الرِّيَاءَ وَالسُّمعَةَ، هُم بِإِزَاءِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ بَعدَ النَّبِيِّينَ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

فَإِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ العِلْمَ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَعَلَّمَهُ لِوَجْهِ اللهِ، كَانَ صِدِّيقًا؛ وَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، وَقُتِلَ كَانَ شَهِيدًا؛ وَمنْ تَصَدَّقَ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ، كَانَ صَالِحًا»(٢).

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ جُزَيٍّ الكَلبِيُّ (ت ٧٤١هـ) رَحِمَهُ اللهُ: فِي هَذَا الحَدِيثِ الكَرِيمِ التَّحذِيرُ مِنَ الرِّيَاءَ وَمَا جَاءَ فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ الشَّدِيدِ، وَذِكرِ الثَّلَاثَةِ رِجَالٍ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُم تَلَبَّس بِفِعلِ طَاعَةٍ شَرِيفَةٍ عِندَ اللهِ يُغبَطُ عَلَيهَا فِي الظَّاهِرِ، وَكَانَتِ النِّيَّةُ، وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، فَكَانَ عَمَلُهُ هَبَاءً مَنثُورًا، وَجَزَاؤُهُ النَّارَ وَالخزيَ، وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ مِن ذَلِكَ. وَالَّذِي يَجِبُ عَلَى مَن أَرَادَ الجِهَادَ وَالأَخذَ فِي العِلمِ أَوِ الصَّدَقَةِ: أَن يَقصِدَ بِذَلِكَ وَجهَ اللَّهِ الكَرِيمِ الَّذِي وَفَّقَهُ لِذَلِكَ، وَأَعطَاهُ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى نَيلِ مَقصُودِهِ وَغَرَضِهِ، وَيَتَذَكَّرُ أَنَّ كَثِيرًا مِن أَقرَانِهِ قَد مُنِعَ مِن ذَلِكَ بِأُمُورٍ لَا يُحصَى عَدَدُهَا؛ فَكَم مِن غَنِيٍّ قَد مُنِعَ الصَّدَقَةَ بِدِرهَمٍ، وَكَم مِن قَادِرٍ عَلَى الجِهَادِ قَد حُرِمَ، وَكَم مِمَّن هُوَ مُهَيَّأٌ لِطَلَبِ العِلمِ وَقِرَاءَةِ

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٥٠ - ٥١).

(٢) شرح حديث: «لَا يَزنِي الزَّانِي حِينَ يَزنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ» (ص٤٧)، لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.

القُرآنِ قَد عَاقَهُ عَن ذَلِكَ قَوَاطِعُ، لَا خَلَاصَ لَهُ مِنهَا، وَإِذَا نَظَرَ الإِنسَانُ فِي مِثلِ هَذِهِ الأَحوَالِ، ظَهَرَ لَهُ فَضلُ اللهِ بِمَا أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِ، فَليُخلِصْ لَهُ النِّيَّةَ وَيَمتَثِلْ مَا أَمَرَهُ بِهِ(١).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَؤُلَاءِ - وَاللَّهُ أَعلَمُ - الَّذِينَ أَشرَكُوا بِاللَّهِ فِي أَفعَالِهِم مِن حَيثُ خَفِيَ عَلَيهِم، ...أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَالُوا: «قَاتَلتُ حَتَّى استُشهِدتُ» وَ «قَرَأتُ القُرآنَ وَعَلَّمتُ» وَ«أَنفَقتُ فِيهِ لَكَ»، ظَنَّ المَسَاكِينُ أَنَّهُم أَرَادُوا اللهَ بِأَعمَالِهِم، وَأَضمَرَت نُفُوسُهُمُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ مَا أَضمَرَت مِنَ الأَعوَاضِ عَلَيهَا فِي الدُّنيَا وَهُم لَا يَشعُرُونَ، جَهلًا مِنهُم بِمَكَائِدِ نُفُوسِهِم، وَاغتِرَارًا مِنهُم بِخَدعِهَا لَهُم، فَإِنَّها... تَأتِي صَاحِبَهَا مِن حَيثُ لَا يَشعُرُ، فَلَا يَنتَبِهُ لَهَا إِلَّا فَطِنٌ خَبِيرٌ، وَلَا يَقِفُ عَلَى خَدعِهَا إِلَّا عَالِمٌ نِحرِيرٌ(٢).

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكَمَا أَنَّ خِيَارَ خَلقِ اللهِ هُمُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، فَشِرَارُ الخَلقِ مَن تَشَبَّهَ بِهِم وَلَيسَ مِنهُم. فَمَن تَشَبَّهَ بِأَهلِ الصِّدقِ وَالإِخلَاصِ وَهُوَ مُرَاءٍ، كَمَن تَشَبَّهَ بِالأَنبِيَاءِ وَهُوَ كَاذِبٌ»(٣).

وَقَالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوَّلُ مَن تُسَعَّرُ بِهِ النَّارُ مِنَ المُوَحِّدِينَ: العِبَادُ المُرَاؤُونَ بِأَعمَالِهِم، وَأَوَّلُهُمُ العَالِمُ وَالمُجَاهِدُ وَالمُتَصَدِّقُ لِلرِّيَاءِ، لِأَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِركٌ.

---

(١) «الأنوار السَّنِيَّة في الألفاظ السُّنِّيَّة» (ص٣٩١).

(٢) «بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار» (٢/ ٨٦٣).

(٣) «عدة الصابرين» (ص٢٠٥).

مَا نَظَرَ المُرَائِي إِلَى الخَلقِ بِعَمَلِهِ، إِلَّا لِجَهلِهِ بِعَظَمَةِ الخَالِقِ»[١].

وَقَالَ صِدِّيقُ حَسَنٍ خَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذَا الحَدِيثُ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِعلَ الطَّاعَاتِ العَظِيمَةِ مَعَ سُوءِ النِّيَّةِ، مِن أَعظَمِ الوَبَالِ عَلَى فَاعِلِهِ. فَإِنَّ الَّذِي أَوجَبَ سَحبَهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجهِهِ: هُوَ فِعلُ تِلكَ الطَّاعَةِ المَصحُوبَةِ بِتِلكَ النِّيَّةِ الفَاسِدَةِ. وَكَفَى بِهَذَا رَادِعًا، لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

اللَّهُمَّ! إِنَّا نَسأَلُكَ صَلَاحَ النِّيَّةِ، وَخُلُوصَ الطَّوِيَّةِ»[٢].

وَقَالَ العَلَّامَةُ السِّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحَذَرَ الحَذَرَ مِن طَلَبِ العِلمِ لِلأَغرَاضِ الفَاسِدَةِ وَالمَقَاصِدِ السَّيِّئَةِ: مِنَ المُبَاهَاةِ، وَالمُمَارَاةِ، وَالرِّيَاءِ، وَالسُّمعَةِ، وَأَن يَجعَلَهُ وَسِيلَةً لِلأُمُورِ الدُّنيَوِيَّةِ وَالرِّيَاسَةِ؛ فَلَيسَت هَذِهِ حَالُ أَهلِ العِلمِ، الَّذِينَ هُم أَهلُهُ فِي الحَقِيقَةِ. وَمَن طَلَبَ العِلمَ، أَوِ استَعمَلَهُ فِي أَغرَاضِهِ السَّيِّئَةِ، فَلَيسَ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ»[٣].

«فَمَن أَرَادَ الدُّنيَا وَنَعِيمَهَا وَمَلَذَّاتِهَا [وَآثَرَهَا عَلَى نَعِيمِ الآخِرَةِ]، فَإِنَّهُ قَد يَنَالُهَا، وَلَكِنَّهُ حِينَئِذٍ مُطَالَبٌ بِأَن يُعِدَّ نَفسَهُ لِلنَّارِ - وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ -، أَيًّا كَانَ عَمَلُهُ!

فَلَو كَانَ مُجَاهِدًا لِلكُفَّارِ، وَأُزهِقَت رُوحُهُ فِي القِتَالِ، وَلَم يَكُن لِلَّهِ مُخلِصًا؛ فَلْيَنتَظِرِ النَّارَ!

وَلَو كَانَ حَافِظًا لِلقُرآنِ، وَمُتَفَقِّهًا فِي شَرِيعَةِ رَبِّ الأَنَامِ، وَدَاعِيَةً

---

(١) «كلمة الإخلاص» (ص٤٦).
(٢) «السراج الوهاج» (٦/ ٥٠٩).
(٣) «المجموعة الكاملة» (٧/ ٤٥٣).

إِلَى اللهِ وَإِلَى الإِسلَامِ، وَلَم يَكُن لِلَّهِ مُخلِصًا؛ فَلْيَنتَظِرِ النَّارَ!

وَلَو كَانَ مِنَ الأَثرِيَاءِ، وَأَنفَقَ كُلَّ مَالِهِ عَلَى المَسَاكِينِ وَالفُقَرَاءِ، وَتَعلِيمِ المُسلِمِينَ شَرِيعَةَ اللهِ السَّمحَاءَ، وَلَم يَكُن لِلَّهِ مُخلِصًا؛ فَلْيَنتَظِرِ النَّارَ!»[١].

أَيُّهَا المُرَائِي: «قَلبُ مَن تُرَائِيهِ بِيَدِ مَن أَعرَضتَ عَنهُ، يَصرِفُهُ عَنكَ إِلَى غَيرِكَ، فَلَا عَلَى ثَوَابِ المُخلِصِينَ حَصَلتَ! وَلَا إِلَى مَا قَصَدتَهُ بِالرِّيَاءِ وَصَلتَ! وَفَاتَ الأَجرُ وَالمَدحُ! فَلَا هَذَا وَلَا هَذَا»[٢].

خامسا: الرِّياءُ أَشَدُّ فَتكًا مِنَ الذِّئبِ في الغَنَمِ:

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ، لِدِينِهِ**»[٣].

وَذَلِكَ يُبَيِّنُ أَنَّ الدِّينَ السَّلِيمَ، لَا يَكُونُ فِيهِ هَذَا الحِرصُ[٤].

فَهَذَا مَثَلٌ عَظِيمٌ جِدًّا، ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِفَسَادِ دِينِ المُسلِمِ، بِالحِرصِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنيَا، [وَهُمَا اللَّذَانِ يُحَرِّكَانِ الرِّيَاءَ فِي النَّفسِ]؛ وَأَنَّ فَسَادَ الدِّينِ بِذَلِكَ، لَيسَ بِدُونِ فَسَادِ الغَنَمِ بِذِئبَينِ جَائِعَيْنِ ضَارِيَيْنِ بَاتَا فِي الغَنَمِ، وَقَد غَابَ عَنهَا رِعَاؤُهَا لَيلًا، فَهُمَا يَأكُلَانِ فِي الغَنَمِ وَيَفتَرِسَانِ فِيهَا. مَاذَا يَبقَى مِنَ الغَنَمِ؟

---

(١) «الكلمات الحسان فيما يعين على الحفظ» (ص٥٢).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٢٥).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٧٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧١٠).

(٤) «العبودية مع شرح الشيخ الراجحي» (ص١٣٨).

وَمَعلُومٌ أَنَّهُ لَا يَنجُو مِنَ الغَنَمِ مِن إِفسَادِ الذِّئبَينِ المَذكُورَينِ - وَالحَالَةُ هَذِهِ - إِلَّا قَلِيلٌ، فَأَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ حِرصَ المَرءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ: إِفسَادٌ لِدِينِهِ، لَيسَ بِأَقَلَّ مِن إِفسَادِ الذِّئبَينِ لِهَذِهِ الغَنَمِ، بَل إِمَّا أَن يَكُونَ مُسَاوِيًا، وَإِمَّا أَكثَرَ؛ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَسلَمُ مِن دِينِ المُسلِمِ، مَعَ حِرصِهِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنيَا، إِلَّا القَلِيلُ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسلَمُ مِنَ الغَنَمِ، مَعَ إِفسَادِ الذِّئبَينِ المَذكُورَينِ فِيهَا، إِلَّا القَلِيلُ.

فَهَذَا المَثَلُ العَظِيمُ: يَتَضَمَّنُ غَايَةَ التَّحذِيرِ، مِن شَرِّ الحِرصِ عَلَى المَالِ، وَالشَّرَفِ فِي الدُّنيَا. وَهُوَ حُبُّ انتِشَارِ الصِّيتِ وَالِاشتِهَارِ، وَذَلِكَ خَطَرٌ عَظِيمٌ، وَطَامَّةٌ كُبرَى، وَمُصِيبَةٌ عُظمَى، وَسُمٌّ قَاتِلٌ. «وَدَاءٌ قَلَّ مَن نَجَا مِنهُ، إِلَّا مَن عَصَمَ اللهُ»(١).

وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

حُبُّ الرِّئَاسَةِ دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ ... وَقَلَّمَا تَجِدُ الرَّاضِينَ بِالْقَسْمِ(٢)

وَمَا أَحسَنَ مَا قَالَ أَبُو الفَتحِ البُستِيُّ:

أَمرَانِ مُفتَرِقَانِ لَستَ تَرَاهُمَا ... يَتَشَوَّقَانِ لِخُلطَةٍ وَتَلَاقِي
طَلَبُ المَعَادِ مَعَ الرِّيَاسَةِ وَالعُلَى ... فَدَعِ الَّذِي يَفنَى لِمَا هُوَ بَاقِي(٣)

وَلِهَذَا يَجِبُ أَن تَكُونَ نِيَّتُكَ بَعِيدَةً عَن هَذَا، بَعِيدَةً عَنِ المَالِ، وَبَعِيدَةً عَنِ الشَّرَفِ؛ نَسأَلُ اللهَ أَن يُعِينَنَا عَلَى ذَلِكَ.

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَيسَ هَمَّهُ إِلَّا أَن يُحَصِّلَ المَالَ، أَو يُحَصِّلَ الشَّرَفَ،

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٣٦). (٢) «أدب الدنيا والدين» (ص١٨٩).
(٣) شرح حديث: «مَا ذِئبَانِ جَائِعَانِ» (ص٥٦).

وَيَكُونَ مِمَّن يُشَارُ إِلَيهِ بِالأَصَابِعِ، وَ «الإِشَارَةُ إِلَى الرَّجُلِ بِالأَصَابِعِ فِتنَةٌ، وَإِن كَانَ فِي الخَيرِ»(١).

وَهَذَا يُفسِدُ الدِّينَ، لِأَنَّ النَّفسَ تَمِيلُ إِلَى المَالِ، وَتَمِيلُ إِلَى الشَّرَفِ، وَتَنسَى مَا هُوَ أَهَمُّ وَهُوَ مَسأَلَةُ الدِّينِ.

إِذِ النُّفُوسُ مَجبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الرِّئَاسَةِ وَالمَنزِلَةِ فِي قُلُوبِ الخَلقِ، وَحُبِّ المَحمَدَةِ وَنَيلِ الشُّهرَةِ، وَانتِشَارِ الصِّيتِ وَالسُّمعَةِ، إِلَّا مَن سَلَّمَ اللهُ، وَقَد أَحسَنَ الشَّاعِرُ حَيثُ يَقُولُ:

يَهوَى الثَّنَاءَ مُبَرِّزٌ وَمُقَصِّرٌ حُبُّ الثَّنَاءِ طَبِيعَةُ الإِنسَانِ(٢)

وَرُبَّمَا مَاتَ فِي طَلَبِ الشُّهرَة، وَلَم يَنَل شَيئًا مِنهَا، يُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ ﷻ.

وَلَو لَم يَكُنِ البَاعِثَ عَلَى مِثلِ هَذَا، إِلَّا كَونُهُ بَعِيدًا عَنِ الإِخلَاصِ، لَكَفَى بِهِ مَحذُورًا، وَزَلَلًا بَغِيضًا عِندَ اللهِ أَوَّلًا، ثُمَّ عِندَ خَلقِهِ.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَاقَةٌ تُسَمَّى الْعَضْبَاءَ لَا تُسْبَقُ، - أَوْ: لَا تَكَادُ تُسْبَقُ -، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى عَرَفَهُ فَقَالَ: «**حَقٌّ عَلَى اللهِ: أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيءٌ مِنَ الدُّنْيَا، إِلَّا وَضَعَهُ**»(٣).

وَفِي لَفظٍ: «**إِنَّ حَقًّا عَلَى اللهِ: أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا، إِلَّا وَضَعَهُ**»(٤).

---

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٧٥٦).
(٢) «مقاصد المكلفين» (ص ٤٤٠).
(٣) رواه البخاري (٢٨٧٢).
(٤) رواه البخاري (٦٥٠١).

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَجعَلَ الوَضعَ لِمَا رُفِعَ وَارتَفَعَ، لَا لِمَا رَفَعَهُ سُبحَانَهُ؛ فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ إِذَا رَفَعَ عَبدَهُ بِطَاعَتِهِ، وَأَعَزَّهُ بِهَا، لَا يَضَعُهُ أَبدًا»[١].

وَقَالَ ابنُ الوَزِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَم يَقُل فِي الحَدِيثِ: مَا رَفَعَ اللهُ شَيئًا إِلَّا وَضَعَهُ؛ لِأَنَّ مَا رَفَعَهُ اللهُ، فَلَا وَاضِعَ لَهُ فِي الدُّنيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ[٢].

فَإِن كُنتَ أَنتَ ذَلِكَ الشَّيءَ، يَا مَن تُحِبُّ الشُّهرَةَ وَالظُّهُورَ! فَانتَظِر وَضعَ اللهِ إِيَّاكَ.

وَإِن كُنتَ تُحِبُّ المَنزِلَةَ، وَحُبَّ الثَّنَاءِ، وَطَلَبَ الرِّيَاسَةِ، وَلِيُقبَلَ قَولُكَ؛ «فَقَد شَرِبتَ السُّمَّ الَّذِي لَا يُبقِي وَلَا يَذَرُ، وَلَا عَاصِمَ مِن ذَلِك إِلَّا اللهُ»[٣].

وَمِن هُنَا كَانَت عِنَايَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ بِهَذَا الأَمرِ، وَبَيَانُ خُطُورَتِهِ عَلَى عَمَلِ الإِنسَانِ.

وَمَا «زَالَ الصَّادِقُونَ مِنَ العُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ يَكرَهُونَ الشُّهرَةَ، وَيَتَبَاعَدُونَ عَن أَسبَابِهَا، وَيُحِبُّونَ الخُمُولَ، وَيَجتَهِدُونَ عَلَى حُصُولِهِ»[٤].

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا مِن أَحَدٍ أَحَبَّ الرِّيَاسَةَ؛ إِلَّا حَسَدَ، وَبَغَى، وَتَتَبَّعَ عُيُوبَ النَّاسِ، وَكَرِهَ أَن يُذكَرَ أَحَدٌ بِخَيرٍ»[٥].وَقَالَ

---

(١) «الفروسية المحمَّديَّة» (ص١٦)، لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «االإفصاح عن معاني الصحاح» (٥/ ٣٠٩).

(٣) «المدخل» (٢/ ١/ ٥٠) بتصرُّف يسير، لابن الحاج رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٧٥٥).

(٥) أورده ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٤٣)، وهو في «صحيح جامع بيان العلم وفضله» (ص١٨٦).

أَبُو نُعَيْمٍ: «وَاللَّهِ مَا هَلَكَ مَن هَلَكَ، إِلَّا بِحُبِّ الرِّيَاسَةِ»(١).

وَقَالَ ابنُ الحَدَّادِ المَغرِبِيُّ، صَاحِبُ سُحنُونٍ: «مَا صَدَّ عَنِ اللهِ: مِثلُ طَلَبِ المَحَامِدِ، وَطَلَبِ الرِّفعَةِ»(٢).

وَعَنِ الفَضلِ بنِ مُهَلهَلٍ قَالَ: قَالَ لِي سُفيَانُ: فِيمَ السَّلَامَةُ؟ قُلتُ: أَن لَا تُعرَفَ؛ قَالَ: «هَذَا مَا لَا يَكُونُ، وَلَكِنِ السَّلَامَةُ فِي أَن لَا تُحِبَّ أَن تُعرَفَ»(٣).

وَعَن بِشرِ بنِ الحَارِثِ قَالَ: «لَا تَعمَل لِتُذكَرَ، وَرِد لِلَّهِ مَا يُرِيدُ»(٤).

وَعَنِ ابنِ المُبَارَكِ قَالَ: «قَالَ لِي سُفيَانُ: إِيَّاكَ وَالشُّهرَةَ، فَمَا أَتَيتُ أَحَدًا، إِلَّا وَقَد نَهَانِي عَنِ الشُّهرَةِ»(٥).

وَعَن إِبرَاهِيمَ بنِ أَدهَمَ قَالَ: «لَم يَصدُقِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، مَن أَحَبَّ الشُّهرَةَ»(٦).

وَعَنِ الحُسَينِ بنِ مُحَمَّدٍ البَغدَادِيِّ قَالَ: سَمِعتُ أَبِي يَقُولُ: زُرتُ بِشرَ بنَ الحَارِثِ، فَقَعَدتُ مَعَهُ مَلِيًّا؛ فَمَا زَادَنِي عَلَى كَلِمَةٍ، قَالَ: «مَا اتَّقَى اللهَ، مَن أَحَبَّ الشُّهرَةَ»(٧).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

جِمَاعُ الخَيرِ فِي تَركِ الظُّهُورِ ... وَإِظهَارِ التَّوَاضُعِ وَالبُرُورِ

---

(١) أورده ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/١٤٣)، وهو في «صحيح جامع بيان العلم وفضله» (ص١٨٧).

(٢) أورده الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٤/٢١٤).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/١٣)، وأورده مختصرًا الذهبي في «السير» (٧/٢٥٨).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٤٦)، وأورد بعضه الذهبي في «السير» (١٠/٤٧٦).

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٢٣).

(٦) رواه أحمد في «الزهد» (ص٤٥٦)، ومن طريقه: أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٩-٢٠). وأورده ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٣/٦٠٦) [لقمان: ١٩].

(٧) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٤٦)، وأورده الذهبي في «السير» (١٠/٤٧٦).

وَفِي أَضْدَادِهَا مِن غَيرِ شَكٍّ ... جَمِيعُ وُجُوهِ أَنوَاعِ الشُّرُورِ[١]

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَن لَم يَكُن يَقصِد أَن يُحمَدَا ... يَعِش هَنِيئًا وَيَنَل أَسعُدَا
مَن يَبتَغِي المِدحَةَ لَا بُدَّ أَن ... يَلحَقَهُ الذُّلُّ وَأَن يَجهَدَا[٢]

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

حُبُّ الرِّيَاسَةِ يَا لَهُ مِن دَاءِ ... كَم فِيهِ مِن مِحَنٍ وَطُولِ عَنَاءِ
طَلَبُ الرِّيَاسَةِ فَتَّ أَعضَادَ الوَرَى ... وَأَذَاقَ طَعمَ الذُّلِّ لِلكُبَرَاءِ
إِنَّ الرِّيَاسَةَ دُونَ مَرتَبَةِ التُّقَى ... فَإِذَا اتَّقَيتَ عَلَوتَ كُلَّ عَلَاءِ[٣]

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

العِزُّ عَاقِبَةُ التُّقَى ... وَالذُّلُّ عَاقِبَةُ الرِّيَاسَهْ
فَإِذَا اتَّقَيتَ عَلَوتَ فِي ... أَهلِ المَجَادَةِ وَالنَّفَاسَهْ
وَإِذَا رَأَستَ نَزَلتَ فِي ... طُرُقِ التَّخَلُّقِ وَالسِّيَاسَهْ
فَلتَختَرِ التَّقوَى وَلَا ... تَرأَس فَتُخطِيَكَ الكِيَاسَهْ[٤]

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا نَعَايَا الْعَرَبِ! يَا نَعَايَا الْعَرَبِ! إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ، وَالشَّهوَةُ الخَفِيَّةُ»**[٥].

---

(١) «نفح الطيب» (٧/ ٣٠١).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٥١١).
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٦١١).
(٤) المصدر نفسه (٧/ ٩٢١).
(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، ومن طريقه: الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٩/ ٣٧١ رقم ٣٤٢). وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٩٠).

«وَالشَّهَوَاتُ الخَفِيَّةُ النَّفسَانِيَّةُ، وَمَكَائِدُ النَّفسِ وَغَوَائِلُهَا، وَمَكرُ الشَّيطَانِ، مِمَّا قَلَّ أَن يَنجُوَ مِنهَا إِلَّا الصِّدِّيقُونَ؛ فَالخُمُولُ وَالذُّهُولُ، هُوَ الأَولَى وَالأَسلَمُ»(١).

قَالَ أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ صَاحِبُ السُّنَنِ (ت٢٧٥هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشَّهوَةُ الخَفِيَّةُ: حُبُّ الرِّيَاسَةِ»(٢).

وَقَالَ شَيخُ الإِسلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: حُبُّ الرِّئَاسَةِ شَهوَةٌ خَفِيَّةٌ(٣). فَهِيَ خَفِيَّةٌ تَخْفَى عَلَى النَّاسِ، وَكَثِيرًا مَا تَخْفَى عَلَى صَاحِبِهَا(٤).

وَقَالَ ابنُ الأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إِنَّ الشَّهوَةَ الخَفِيَّةَ**: حُبُّ اطِّلَاعِ النَّاسِ عَلَى العَمَلِ»(٥).

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو الحَسَنِ الإِشبِيلِيُّ (ت٥٥٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعلَمْ أَنَّ الرِّيَاءَ شَهوَةٌ مِنَ الشَّهَوَاتِ العِظَامِ، يَجِدُ لَهَا صَاحِبُهَا لَذَّةً كَلَذَّةِ الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ، فَهُوَ الدَّاءُ الدَّوِيُّ، وَالغَرَضُ الخَفِيُّ، الَّذِي لَا يَسلَمُ مِنهُ إِلَّا صِدِّيقٌ أَو وَلِيٌّ(٦).

وَقَالَ الإِمَامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي لِلعَالِمِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِنِيَّةٍ وَحُسْنِ قَصدٍ، فَإِن أَعجَبَهُ كَلَامُهُ فَليَصْمُتْ، فَإِن أَعجَبَهُ الصَّمتُ فَليَنطِق، وَلَا يَفتُرْ عَن مُحَاسَبَةِ نَفسِهِ، فَإِنَّهَا تُحِبُّ الظُّهُورَ وَالثَّنَاءَ»(٧).

وَقَالَ العَلَّامَةُ الأَلبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حُبُّ الظُّهُورِ، يَقصِمُ الظُّهُورَ»(٨).

---

(١) «الدين الخالص» (٢/ ٣٨١).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٥٨)، وإسناده صحيح.

(٣) «جامع الرسائل» (١/ ٢٣٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٤٦).

(٥) «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٥١٦).

(٦) «الذخائر والأعلاق» (ص٤٦٥).

(٧) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٩٤).

(٨) نقله عنه الشيخ صالح عبد الواحد: في «حياة السعداء» (ص١٤).

حُبُّ الظُّهُورِ بَحرٌ عَمِيقٌ، مَن قَصَدَهُ غَرِقَ.

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ شَيخِ الحَزَّامِيِّينَ (ت٧١١هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «فَلْيَتَفَقَّدِ العَبدُ مَحَلَّ النِّيَّةِ وَالإِخلَاصِ مِنْ قَلْبِهِ: فِي أَعمَالِهِ وَسِعَايَاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَيَحفَظ نِيَّتَهُ مِنَ الرِّيَاءِ، فَلَا يَلْحَظ بِأَعمَالِهِ أَحَدًا مِنَ الخَلقِ، وَيَحفَظ قَلبَهُ مِنَ العُجبِ مَعَ الإِخلَاصِ، فَقَد يُعجَبُ العَبدُ بِإِخلَاصِهِ وَلَا يَشعُرُ»[(١)].

وَقَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ - عَنِ الرِّيَاءِ -: «لَا يَتَمَكَّنُ فِي مَعرِفَةِ حَقِيقَتِهِ وَالِاطِّلَاعِ عَلَى غَوَامِضِ خَفِيَّاتِهِ إِلَّا مَن أَرَادَ الإِخلَاصَ، فَإِنَّهُ يَجتَهِدُ أَزمَانًا فِي مُطَاوَلَةِ البَحثِ وَالفِكرِ وَالتَّنقِيبِ عِندَهُ، حَتَّى يَعرِفَهُ أَو يَعرِفَ بَعضَهُ، وَلَا يَحصُلُ هَذَا لِكُلِّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يَحصُلُ هَذَا لِلخَوَاصِّ. وَأَمَّا مَن يَزعُمُ مِن آحَادِ النَّاسِ: أَنَّهُ يَعرِفُ الرِّيَاءَ، فَهُوَ جَهلٌ مِنهُ بِحَقِيقَتِهِ»[(٢)].

وَقَالَ ابنُ الجَوزِيِّ (ت٥٩٧هـ) رَحِمَهُ اللهُ: اعلَمْ أَنَّ المُؤمِنَ لَا يُرِيدُ بِعَمَلِهِ إِلَّا اللهَ تبارك وتعالى، وَإِنَّمَا يَدخُلُ عَلَيهِ خَفِيُّ الرِّيَاءِ، فَيُلَبِّسُ الأَمرَ، فَنَجَاتُهُ مِنهُ صَعبَةٌ[(٣)].

قَالَ الشَّاعِرُ:

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا[(٤)]

يَعنِي: أَنَّ هَذَا الأَمرَ شَدِيدٌ، وَيَجِبُ أَن تُوَطِّنَ نَفسَكَ عَلَى إِخرَاجِ

---

(١) «مدخل أهل الفقه واللسان» (ص٦٥).

(٢) «بستان العارفين» (ص١٢٤).

(٣) «المنتقى النفيس من تلبيس إبليس» (ص١٩٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٤١)، من كلام صِلَةَ بنِ أَشيَمَ رَحِمَهُ اللهُ. وهو في «ديوان ذي الرُّمَّة» (ص٢٩٢) [دار الكتب العلمية - بيروت].

المَخلُوقِينَ مِن قَلبِكَ، وَأَن يَكُونَ القَلبُ خَالِصًا لِلَّهِ مُتَوَجِّهًا لِلَّهِ؛ فِي تَحَرُّكِهِ، وَسَكَنَاتِهِ، وَأَمرِهِ، وَنَهيِهِ، وَفِي تَصَرُّفِكَ مَعَ أَهلِكَ، وَمَعَ أَقَارِبِكَ، وَفِي الأُمُورِ العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ، فَإِذَا كَانَ كُلُّ شَيءٍ لِلَّهِ، تَمَّ الإِخلَاصُ[(١)].

وَلِهَذَا قَالَ العَلَّامَةُ أَبُو الحَسَنِ الإِشبِيلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالرِّيَاءُ يَفتَرِقُ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ لَا تُحصَى، وَيَقتَرِنُ بِوُجُوهٍ لَا يُمكِنُ فِيهَا الِاستِقصَاءُ، وَلَهُ دَرَجَاتٌ مُختَلِفَةٌ، وَمَنَازِلُ مُتَبَايِنَةٌ بَعضُهَا فَوقَ بَعضٍ، لَا سَبِيلَ إِلَى أَوصَافِهَا لِكَثرَةِ أَصنَافِهَا، لِأَنَّهَا بُحُورٌ لَو اقتَحَمنَاهَا لَبَعُدَت سَوَاحِلُهَا، وَأَفكَارٌ لَو سَلَكنَاهَا لَصَعُبَت مَنَازِلُهَا، وَكُلُّهَا مَذمُومٌ»[(٢)].

قَد بَانَ لَكَ بِمَا سَبَقَ أَنَّ الرِّيَاءَ مُحبِطٌ لِلأَعمَالِ، وَسَبَبٌ لِلمَقتِ عِندَ اللهِ، وَاللَّعنِ وَالطَّردِ، وَأَنَّهُ مِن كَبَائِرِ المُهلِكَاتِ، وَمَا هَذَا وَصفُهُ: فَجَدِيرٌ بِأَنَّ يُشَمِّرَ كُلُّ مُوَفَّقٍ عَن سَاقِ الجِدِّ فِي إِزَالَتِهِ بِالمُجَاهَدَةِ، وَتَحَمُّلِ المَشَاقِّ الشَّدِيدَةِ وَالمُكَابَدَةِ لِقُوَّةِ الشَّهَوَاتِ، إِذ لَا يَنفَكُّ أَحَدٌ عَنِ الِاحتِيَاجِ لِذَلِكَ؛ إِلَّا مَن رُزِقَ قَلبًا سَلِيمًا، نَقِيًّا خَالِصًا عَن شَوَائِبِ مُلَاحَظَةِ الْأَغْرَاضِ وَالْمَخْلُوقِينَ، وَمُستَغرِقًا دَائِمًا فِي شُهُودِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَقَلِيلٌ مَا هُم[(٣)].

الخَطبُ جَلِيلٌ، وَالمُتَفَطِّنُ قَلِيلٌ، فَهَل إِلَى الخَلَاصِ سَبِيلٌ؟![(٤)]

---

(١) «شرح الأربعين النووية» (ص٥٠٤- ٦٠٤)، لمعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله.
(٢) «الذخائر والأعلاق» (ص٤٦١).
(٣) «الزواجر» (١/ ٨٥) بتصرُّف يسير، لابن حجر الهيتمي.
(٤) «نفح الطيب» (٨/ ٤٢).

كَيفِيَّةُ تَحصِيلِ الإِخلَاصِ

الإِخـلَاصُ - عِـبَـادَ اللهِ - أُمنِيَـةٌ عَزِيزَةٌ، وَخَصلَةٌ حَمِيدَةٌ، وَمَعَ وُضُوحِهِ وَجِلَائِهِ، إِلَّا أَنَّهُ مِن أَشَقِّ الأُمُورِ عَلَى النَّفسِ، لِأَنَّهُ يَحُولُ بَينَهَا وَبَينَ تَطَلُّعَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا؛ فَتَحقِيقُهُ وَالِاستِمرَارُ فِيهِ، عَمَلِيَّةٌ شَاقَّةٌ بِمَجهُودٍ كَبِيرٍ، وَيَقَظَةٍ تَامَّةٍ. وَلِهَذَا كَانَ تَحصِيلُ الإِخلَاصِ صَعبًا، وَلَيسَ سَهلًا.

فَأَعَزُّ شَيءٍ فِي الدُّنيَا: الإِخلَاصُ. لِأَنَّ «الإِنسَانَ يَصعُبُ عَلَيهِ جِدًّا جِدًّا: أَن يَكُونَ مُخلِصًا فِي العَمَلِ. وَلِهَذَا يَجِبُ أَن يُجَاهِدَ النَّفسَ عَلَى هَذِهِ المَسأَلَةِ، أَن يُجَاهِدَ أَن لَا يُرِيدَ رِيَاءً وَلَا سُمعَةً، وَلَا إِعجَابًا بِالنَّفسِ، وَلَا ظُهُورًا عَلَى الأَصحَابِ؛ بَل يَكُونَ عَمَلُ الإِنسَانِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَبِاللَّهِ، وَفِي اللهِ»[1].

فَأَصعَبُ شَيءٍ عَلَى النَّفسِ المُطمَئِنَّةِ: تَخلِيصُ الأَعمَالِ لِلَّهِ؛ مِنَ الكِبرِ وَالإِعجَابِ، وَرُؤيَةِ العَمَلِ، وَنِسيَانِ مِنَّةِ اللهِ عَلَيهِ. «فَمَن وَصَلَ لَهُ عَمَلٌ وَاحِدٌ عَلَى هَذَا الوَجهِ: وَصَلَ

---

(١) «شرح مقدمة المجموع» (ص ٤٠).

إِلَى اللهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى شَكُورٌ، إِذَا رَضِيَ مِنَ العَبْدِ عَمَلًا مِن أَعمَالِهِ: نَجَّاهُ، وَأَسعَدَهُ بِهِ، وَثَمَّرَهُ لَهُ، وَبَارَكَ لَهُ فِيهِ؛ وَأَوصَلَهُ بِهِ إِلَيهِ، وَأَدخَلَهُ بِهِ عَلَيهِ، وَلَم يَقطَعهُ بِهِ عَنهُ»(١). وَلَكِنْ أَبَى الشَّيطَانُ: أَنْ يَدَعَ لِلعَبدِ عَمَلاً وَاحِدًا، يَصِلُ إِلَى اللهِ ﷻ.

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «... **وَمَن تُقُبِّلَت لَهُ حَسَنَةٌ دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٢).

وَتَخلِيصُ الأَعمَالِ - مِنَ الشَّيطَانِ - لِلَّهِ، لَا يُوَفَّقُ إِلَيهِ «إِلَّا مَن أَمَدَّهُ اللهُ بِأَمدَادِ التَّوفِيقِ، وَأَيَّدَهُ بِرَحمَتِهِ، وَتَوَلَّى حِفظَهُ وَحِمَايَتَهُ، وَفَتَحَ بَصِيرَةَ قَلبِهِ»(٣).

يَتَبَيَّنُ لَنَا مِن خِلَالِ هَذَا الكَلَامِ: أَنَّ حَملَ الإِخلَاصِ كَحَملِ الجِبَالِ الرَّوَاسِي، لَا يُطِيقُهُ إِلَّا أَصحَابُ العَزَائِمِ، فَهُم يَتَقَلَّبُونَ تَحتَهُ تَقَلُّبَ الحَامِلِ بِحَملِهِ الثَّقِيلِ؛ وَالرِّيَاءُ خَفِيفٌ كَالرِّيشَةِ، لَا يَجِدُ لَهُ صَاحِبُهُ ثِقْلًا أَلبَتَّةَ، فَهُوَ حَامِلٌ لَهُ فِي أَيِّ مَوضِعٍ اتَّفَقَ، بِلَا تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ وَلَا كِلفَةٍ، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ تَحتَ حَملِهِ وَلَا يَجِدُ ثِقلَهُ.

وَمِن هَاهُنَا يُفَارِقُ المُخلِصُ أَكثَرَ السَّالِكِينَ، بَل يَستَوحِشُ فِي طَرِيقِهِ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ سَالِكِيهَا، فَهُوَ «مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ غُرْبَةً بَينَ النَّاسِ، لَهُم شَأنٌ وَلَهُ شَأنٌ، عِلْمُهُ غَيرُ عُلُومِهِم، وَإِرَادَتُهُ غَيرُ إِرَادَتِهِم، وَطَرِيقُهُ غَيرُ طَرِيقِهِم، فَهُوَ فِي وَادٍ وَهُم فِي وَادٍ»(٤). مُنْفَرِدٌ فِي طَرِيقِ طَلَبِهِ. «فَلَزِمَهُ

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣١١).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٣)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الأدب المفرد» (٤٦١).

(٣) «الروح» (ص٣٢١).

(٤) «فوائد الفوائد» (ص٣٤٨).

وَاسْتَقَامَ عَلَيْهِ»[١]. طُوبَى لَهُ مِنْ وَحِيدٍ عَلَى كَثْرَةِ السُّكَّانِ، غَرِيبٍ عَلَى كَثْرَةِ الْجِيرَانِ، بَيْنَ أَقْوَامٍ رُؤْيَتُهُمْ قَذَى الْعُيُونِ، وَشَجَى الْحُلُوقِ، وَكَرْبُ النُّفُوسِ، وَحُمَّى الْأَرْوَاحِ، وَغَمُّ الصُّدُورِ، وَمَرَضُ الْقُلُوبِ[٢].

وَلَقَد أَحْسَنَ القَائِلُ:

الطُّرُقُ شَتَّى وَطُرُقُ الحَقِّ مُفْرَدَةٌ ... وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الحَقِّ أَفرَادُ
لَا يُعرَفُونَ وَلَا تُدْرَى مَقَاصِدُهُم ... فَهُم عَلَى مَهلٍ يَمشُونَ قُصَّادُ
وَالنَّاسُ فِي غَفلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِم ... فَجُلُّهُم عَن سَبِيلِ الحَقِّ رُقَّادُ[٣]

طَرِيقُ الإِخلَاصِ وَعرَةٌ عَلَى أَكثَرِ الخَلقِ، وَلِهَذَا قَلَّ سَالِكُوهَا؛ «وَاستَلَانُوا مَركَبَ الشَّهوَةِ وَالهَوَى، عَلَى مَركَبِ الإِخلَاصِ وَالتَّقوَى»[٤].

الإِخلَاصُ «غَدِيرٌ فِي صَحرَاءَ، لَيسَت عَلَيهِ جَادَّةٌ؛ فَلِهَذَا قَلَّ وَارِدُهُ»[٥].

فَعَقَبَةُ الإِخلَاصِ عَقَبَةٌ كَؤُودٌ، وَلَكِن بِهَا يُنَالُ المَطلُوبُ وَالمَقصُودُ. نَفعُهَا كَثِيرٌ، وَقَطعُهَا شَدِيدٌ، وَخَطَرُهَا عَظِيمٌ.

وَلَكِن مَا هِيَ طُرُقُ تَحصِيلِ الإِخلَاصِ؟

١ الزُّهدُ فِي مَدحِ النَّاسِ وَذَمِّهِم:

كُن زَاهِدًا فِي ثَنَاءِ النَّاسِ وَمَدحِهِم، وَلَا يَفُوتُكَ ثَنَاءُ مَن ثَنَاؤُهُ كُلُّ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢١٤).
(٢) «إعلام الموقِّعين» (٤/ ٢١٨).
(٣) أخرجه بنحوه الآجُرِّيُّ في «صفة الغرباء من المؤمنين» (رقم: ٤١)، قال: أنشدني إبراهيم بن محمد لبعض الحكماء في معنى سير الغريب الى الله ﷻ وحده لطرق شتى: (فذكر نحوها). وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٨٢ - ٩٢) بسنده، عن أبي العباس بن عطاء ينشد في مجلسه: (فذكر نحوها).
(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٦٢).
(٥) «فوائد الفوائد» (ص٤٣٦).

فَخرٍ، وَعَطَاءُ مَن عَطَاؤُهُ كُلُّ ذُخرٍ.

«فَإِنَّ لِذَلِكَ عَوَاقِبَ هِيَ أَحمدُ العَوَاقِبِ وَأَفضَلُهَا، وَلَيسَ لِلعَبدِ أَنفعُ مِن ذَلِكَ فِي دُنيَاهُ قَبلَ آخِرَتِهِ»[١].

وَإِذَا كُنتَ تَطمَعُ فِي المَدحِ وَالثَّنَاءِ، وَهِيَ آفَاتٌ؛ «فَمَتَى خَلَاصُكَ مِنهَا إِلَى الإخلَاصِ؟!»[٢].

وَمَتَى قَامَ بِكَ الطَّمَعُ فِي مَدحِ النَّاسِ وَثَنَائِهِم «فَلَا تَطمَعْ فِي هَذَا الأَمرِ، وَلَا تُحَدِّثْ نَفسَكَ بِهِ»[٣].

يَقُولُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «لَا يَجتَمِعُ الإخلَاصُ فِي القَلْبِ وَمَحَبَّةُ المَدحِ وَالثَّنَاءِ، وَالطَّمَعُ فِيمَا عِندَ النَّاسِ، إِلَّا كَمَا يَجتَمِعُ المَاءُ وَالنَّارُ، وَالضَّبُّ وَالحُوتُ؛ فَإِذَا حَدَّثَتْكَ نَفسُكَ بِطَلَبِ الإخلَاصِ، فَأَقبِل عَلَى الطَّمَعِ أَوَّلًا، فَاذبَحهُ بِسِكِّينِ اليَأسِ، وَأَقبِل عَلَى المَدحِ وَالثَّنَاءِ، فَازهَد فِيهِمَا زُهدَ عُشَّاقِ الدُّنيَا فِي الآخِرَةِ؛ فَإِذَا استَقَامَ لَكَ ذَبحُ الطَّمَعِ، وَالزُّهدُ فِي الثَّنَاءِ وَالمَدحِ، سَهُلَ عَلَيكَ الإخلَاصُ.

فَإِن قُلتَ: وَمَا الَّذِي يُسَهِّلُ عَلَيَّ ذَبحَ الطَّمَعِ، وَالزُّهدَ فِي الثَّنَاءِ وَالمَدحِ؟ قُلتُ: أَمَّا ذَبحُ الطَّمَعِ؛ فَيُسَهِّلُهُ عَلَيكَ عِلمُكَ يَقِينًا: أَنَّهُ لَيسَ مِن شَيءٍ يُطمَعُ فِيهِ، إِلَّا وَبِيَدِ اللهِ وَحدَهُ خَزَائِنُهُ، لَا يَملِكُهَا غَيرُهُ، وَلَا يُؤتِي العَبْدَ مِنهَا شَيئًا سِوَاهُ»[٤].

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحِجر: ٢١]. وَهَذَا

---

(١) «فوائد الفوائد» (ص٣١٨).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٠٥).

(٣) «فوائد الفوائد» (ص ٣٢٠).

(٤) المصدر السابق (ص٤٢١).

القَولُ البَلِيغُ «مُتَضَمِّنٌ لِكَنزٍ مِنَ الكُنُوزِ؛ وَهُوَ أَنَّ كُلَّ شَيءٍ لَا يُطلَبُ إِلَّا مِمَّن عِندَهُ خَزَائِنُهُ، وَمَفَاتِيحُ تِلكَ الخَزَائِنِ بِيَدَيهِ؛ وَأَنَّ طَلَبَهُ مِن غَيرِهِ، طَلَبٌ مِمَّن لَيسَ عِندَهُ، وَلَا يقدِرُ عَلَيهِ»(١).

وَأَمَّا الزُّهدُ فِي الثَّنَاءِ وَالمَدحِ: فَيُسَهِّلُهُ عَلَيكَ عِلمُكَ: أَنَّهُ لَيسَ أَحَدٌ يَنفَعُ مَدحُهُ وَيَزِينُ، وَيَضُرُّ ذَمُّهُ وَيَشِينُ، إِلَّا اللهُ وَحدَهُ(٢).

عَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ حَمدِي زَينٌ، وَإِنَّ ذَمِّي شَينٌ (أي: أَنَا إِذَا مَدَحتُ أَحَدًا زَانَ مِن مَدحِي وَارتَفَعَ، وَإِذَا ذَمَمتُ وَاحِدًا عِيبَ وَانخَفَضَ)؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ذَاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»(٣).

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي حَمدُهُ زَينٌ وَذَمُّهُ شَينٌ، دُونَ غَيرِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَالخُطَبَاءِ وَغَيرِهِم(٤).

فَمَدحُهُ يَزِينُ عِندَهُ، لِأَنَّهُ مَدَحَهُ بِحَقٍّ؛ وَذَمُّهُ يَشِينُهُ، لِأَنَّهُ حَقٌّ(٥).

فَإِذَا كَانَ لَا يَزِينُ حَمدُ غَيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يَشِينُ ذَمُّ غَيرِهِ، وَاستَقَرَّ ذَلِكَ عِندَ العَبدِ العَاقِلِ، استَوَى حَامِدُهُ وَذَامُّهُ.

«فَأَيُّ خَيرٍ لَكَ فِي مَدحِ النَّاسِ، وَأَنتَ عِندَ اللهِ مَذمُومٌ وَمِن أَهلِ النَّارِ؟! وَأَيُّ شَرٍّ لَكَ مِن ذَمِّ النَّاسِ، وَأَنتَ عِندَ اللهِ مَحمُودٌ فِي زُمرَةِ المُقَرَّبِينَ؟!»(٦).

«فَازهَد فِي مَدحِ مَن لَا يَزِينُكَ مَدحُهُ، وَفِي ذَمِّ مَن لَا يَشِينُكَ

---

(١) «فوائد الفوائد» (ص٢٣).
(٢) المصدر السابق (ص٤٢١).
(٣) رواه الترمذي (٣٢٦٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٣٣).
(٤) «الاستقامة» (٢/ ٢٨٣).
(٥) المصدر السابق (١/ ٣٦٤).
(٦) «الإحياء» (٣/ ٢٧٥).

ذَمُّهُ، وَارغَبْ فِي مَدحِ مَنْ كُلُّ الزَّينِ فِي مَدحِهِ، وَكُلُّ الشَّينِ فِي ذَمِّهِ، وَلَن يُقدَرَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالصَّبرِ وَاليَقِينِ؛ فَمَتَى فَقَدتَ الصَّبرَ وَاليَقِينَ، كُنتَ كَمَن أَرَادَ السَّفَرَ فِي البَحرِ فِي غَيرِ مَرْكَبٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة]»[١].

قَالَ مَالِكُ بنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مُنذُ عَرَفتُ النَّاسَ، لَم أَفرَح بِمَدحَتِهِم، وَلَا أَكرَهُ مَذَمَّتَهُم»؛ قِيلَ: وَلِمَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لِأَنَّ مَادِحَهُم مُفرِطٌ، وَذَامَّهُم مُفَرِّطٌ»[٢].

يَعنِي: أَنَّهُ لَم يَرَ مَن يَقتَصِدُ فِيمَا يَقُولُ فِي رِضَاهُ وَغَضَبِهِ[٣].

وَهَذِهِ «دَرَجَةٌ قَلَّ مَا رَقِيَ إِلَيهَا بَشَرٌ، وَلَا استَوَى عَلَيهَا خَطَرٌ، وَمَنِ الَّذِي عُرِفَتْ مَنزِلَتُهُ فِي الخَيرِ، وَشُهِرَ فَضلُهُ فِي النَّاسِ، وَلَا يُحِبُّ أَن يُذكَرَ بِعِلمِهِ، وَيُوصَفَ بِخَيرِهِ، وَيُتَحَدَّثَ بِصَلَاحِهِ، وَيُذكَرَ بِقَدِيمِ طَلَبِهِ وَعُلُوِّ رُتبَتِهِ»[٤]. وَهَذَا أَخفَى مِن مَكنُونِ النَّارِ فِي الزِّندِ، وَأَدَقُّ مِن دَبِيبِ النَّملِ فِي الحَجَرِ الصَّلدِ. فَكَيفَ بِالسَّلَامَةِ مِنهُ، أَم كَيفَ يُوجَدُ مَن لَا يُحِبُّ أَن يُجَلَّ وَيُكرَمَ، وَلَا يَستَعذِبُ أَن يُمدَحَ وَلَا يُذَمَّ؟ هَيهَاتَ![٥]

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا لَم تُخلِص فَلَا تَتعَب... كَم بَذَلَ نَفسَهُ

---

(١) «فوائد الفوائد» (ص٤٢٢).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٢)، وأورده بنحوه الذهبي في «السير» (٥/ ٣٦٢).

(٣) «شرح حديث عمار بن ياسر» (ص٣٠).

(٤) «الذخائر والأعلاق» (ص٢١٧)، ببعض اختصار.

(٥) «المصدر السابق» (ص٤٦٣).

مُرَاءٍ لِمدحَةِ الخَلقِ، فَذَهَبَت نَفسُهُ وَانقَلَبَتِ المَدحُ ذَمًّا، وَلَو بَذَلَهَا لِلَّهِ لَبَقِيَت مَا بَقِيَ الدَّهرُ[١].

فَليَتَّقِ اللهَ العَبدُ، وَليَقصِد مَن يَنفَعُهُ قَصدُهُ، وَلَا يَتَشَاغَل بِمَدحِ[٢] الخَلقِ.

٢ الدعاء:

يَنبَغِي لِطَالِبِ الإِخلَاصِ أَن يَتَضَرَّعَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالدُّعَاءِ لِيَرزُقَهُ الإِخلَاصَ، فَمَتَى قَرَعَ هَذَا البَابَ «فَقَد أُعطِيَ حَظَّهُ مِنَ التَّوفِيقِ، وَمَن حُرِمَهُ فَقَد مُنِعَ الطَّرِيقَ وَالرَّفِيقَ»[٣].

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «... **وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ السُّمعَةِ وَالرِّيَاءِ ...**»[٤].

وَعَن أَبِي مُوسَى الأَشعَرِيِّ ﷺ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَومٍ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّركَ، فَإِنَّهُ أَخفَى مِن دَبِيبِ النَّملِ**» فَقَالَ لَهُ مَن شَاءَ اللهُ أَن يَقُولَ: وَكَيفَ نَتَّقِيهِ، وَهُوَ أَخفَى مِن دَبِيبِ النَّملِ، يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن أَن نُشرِكَ بِكَ شَيئًا نَعلَمُهُ، وَنَستَغفِرُكَ لِمَا لَا نَعلَمُ**»[٥].

وَالشِّركُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَخفَى مِن دَبِيبِ النَّملِ، عَلَى الصَّفَاءِ فِي اللَّيلَةِ الظَّلمَاءِ، لَا يَكَادُ أَحَدٌ أَن يَسلَمَ مِنهُ، وَقَد يَتَطَرَّقُ فِي أَفعَالِ القُلُوبِ،

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٢١).
(٢) «صيد الخاطر» (ص٤٢٨).
(٣) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢١٩).
(٤) قطعة من حديث: رواه الحاكم (١/ ٥٣٠ رقم ١٩٤٤)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (١٢٨٥).
(٥) رواه أحمد (٤/ ٤٠٣ رقم ١٩٦٦١)، وحسنه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦).

وَالجَوَارِحِ، وَالأَعمَالِ، وَالنِّيَّاتِ؛ بِحَيثُ لَا يَشعُرُ بِهِ، وَلَا يَدرِي، وَهَذَا مَقَامٌ يَنبَغِي لِلمُؤمِنِينَ التَّدَبُّرُ فِيهِ.

٣ مُصَاحَبَةُ أهلِ الإخلَاصِ، وَالانتِفَاعُ بِإخلَاصِهِم:

فَإِنَّ «أَقوَالَهُم وَأَعمَالَهُم وَأَحوَالَهُم، سَالِمَةٌ مِنَ المَقَاصِدِ السَّيِّئَةِ، مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الإِخْلَاصِ وَالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ»(١).

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

أَي: وَهُم قَاصِدُونَ بِذَلِكَ، وَجهَ اللهِ، لَيسَ لَهُم مِنَ الأَغرَاضِ، سِوَى ذَلِكَ الغَرَضِ الجَلِيلِ(٢).

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَوَصَفَهُم بِالعِبَادَةِ وَالإِخلَاصِ فِيهَا، فَفِيهَا الأَمرُ بِصُحبَةِ الأَخيَارِ، وَمُجَاهَدَةِ النَّفسِ عَلَى صُحبَتِهِم وَمُخَالَطَتِهِم، وَإِن كَانُوا فُقَرَاءَ؛ فَإِنَّ فِي صُحبَتِهِم مِنَ الفَوَائِدِ، مَا لَا يُحصَى»(٣).

لِأَنَّ الطِّبَاعَ مَجبُولَةٌ عَلَى التَّشَبُّهِ وَالِاقتِدَاءِ، بَلِ الطَّبعُ يَسْرِقُ مِنَ الطَّبعِ مِنْ حَيثُ لَا يَدْرِي.

وَرَحِمَ اللهُ القَائِلَ:

وَصَاحِبْ أُولِي التَّقْوَى تَنَلْ مِنْ تُقَاهُمْ   وَلَا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي(٤)

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٨١). (٢) المصدر السابق (ص٣٣٣).

(٣) المصدر السابق (ص٦٥٣).

(٤) نسبه ابن عبد البر في «بهجة المجالس» (٢/ ٧٠٥)، لعَدِيِّ بن زَيدٍ؛ ولم أره في «ديوانه» المطبوع.

فَلْنَبْحَثْ كَثِيرًا وَكَثِيرًا عَنِ المُخْلِصِينَ «لِأَنَّنَا سَنَجِدُ مَنْ يَدْعُو وَيَنْشُرُ، وَيُؤَلِّفُ وَيُخَرِّجُ وَيَعِظُ وَيَخْطُبُ: لِجَاهٍ أَوْ شُهْرَةٍ، أَوْ مَالٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ! سَنَجِدُ مَنْ يُعَلِّمُ وَيَعْمَلُ، وَلَكِنْ لَا بَرَكَةَ فِي عِلْمِهِ، وَلَا فِي عَمَلِهِ، وَلَا فِي دَعْوَتِهِ»[١].

كَمْ مِنَ النَّاسِ يَعْمَلُ لِيُقَالَ: عَمِلَ؟!

كَمْ مِنَ النَّاسِ يَعْمَلُ لِيُنْشَرَ اسْمُهُ؟!

كَمْ مِنَ النَّاسِ يَعْمَلُ لِيَسْمُوَ نَجْمُهُ؟!

كَمْ مِنَ النَّاسِ يَعْمَلُ لِيَفْشُوَ ذِكْرُهُ فِي الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ؟!

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، إِنْ يَكُنْ لَهُم ذِكْرٌ عَمِلُوا، وَإِلَّا تَوَقَّفُوا[٢].

٤ إِدمَانُ النَّظَرِ فِي سِيَرِ المُخلِصِينَ الصَّادِقِينَ:

إِنَّ قِرَاءَةَ سِيَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، تَبعَثُ عَلَى الِاقتِدَاءِ بِهِم، وَالِاستِضَاءَةِ بِنُورِ هِدَايَتِهِم، وَالِانتِفَاعِ بِكَلِمَاتِهِم؛ فَإِنَّ كَلَامَهُم قَلِيلٌ كَثِيرُ البَرَكَةِ، وَكَلَامَ غَيرِهِم كَثِيرٌ قَلِيلُ البَرَكَةِ.

«كَمَا قَالَ حَمَّادُ بنُ زَيدٍ: قُلتُ لِأَيُّوبَ: العِلمُ اليَومَ أَكثَرُ أَو فِيمَا تَقَدَّمَ؟ فَقَالَ: الكَلَامُ اليَومَ أَكثَرُ، وَالعِلمُ فِيمَا تَقَدَّمَ أَكثَرُ!»[٣].

---

(١) «كعب بن مالك» (ص٩٣)، للشيخ حسين العوايشة حَفِظَهُ اللَّهُ.

(٢) «سعد بن معاذ» (ص٤٩)، للشيخ حسين العوايشة حَفِظَهُ اللَّهُ.

(٣) «فوائد الفوائد» (ص٢٣٦). والأثر بمعناه: أخرجه الإمام أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (١/ ٤٠٥ - ٤٠٦ رقم ٩٣٨)، وإسناده صحيح.

«فَإِنَّ حَرَكَتَهُم وَسُكُونَهُم لَمَّا كَانَت بِاللَّهِ، وَلِلَّهِ، وَعَلَى أَمرِ اللهِ: جَذَبَت قُلُوبَ الصَّادِقِينَ إِلَيهِم، فَيَهتَدِي بِهِمُ الحَائِرُ، وَيَسِيرُ بِهِمُ الوَاقِفُ، وَيَستَقِيمُ بِهِمُ الحَائِدُ؛ وَيُقبِلُ بِهِمُ المُعرِضُ، ويَكمُلُ بِهِمُ النَّاقِصُ، وَيَرجِعُ بِهِمُ النَّاكِصُ، وَيَتَقَوَّى بِهِمُ الضَّعِيفُ»(١).

وَفِي مِثلِهِم يَقُولُ القَائِلُ:

لِلَّهِ قَــومٌ إِذَا حَــلُّــوا بِــمَــنــزِلَــةٍ حَلَّ النَّدَى وَيَسِيرُ الجُودُ إِن سَارُوا(٢)

فَمَنْ أَرَادَ تَحقِيقَ الإِخلَاصِ «فَعَلَيهِ بِمُرَافَقَةِ الأَموَاتِ الَّذِينَ هُم فِي العَالَمِ أَحيَاءٌ، [كَابنِ تَيمِيَّةَ، وَابنِ القَيِّمِ، وَالذَّهَبِيِّ، وَابنِ رَجَبٍ، وَابنِ كَثِيرٍ، وَابنِ بَازٍ، وَابنِ عُثَيمِينَ، وَبَكرِ أَبُو زَيدٍ، وَابنِ جِبرِينَ، وَالأَلبَانِيِّ، رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى]؛ فَإِنَّهُ يَبلُغُ بِمُرَافَقَتِهِم إِلَى مَقصَدِهِ، وَليَحذَر مِن مُرَافَقَةِ الأَحيَاءِ الَّذِينَ فِي النَّاسِ أَموَاتٌ، فَإِنَّهُم يَقطَعُونَ عَلَيهِ طَرِيقَهُ؛ فَلَيسَ لِهَذَا السَّالِكِ أَنفَعُ مِن تِلكَ المُرَافَقَةِ، وَأَوفَقُ لَهُ مِن هَذِهِ المُفَارَقَةِ»(٣).

وَيُؤثَرُ عَن بِشرِ بنِ الحَارِثِ أَنَّهُ قَالَ: بِحَسبِكَ أَنَّ قَومًا مَوْتَى تَحْيَى القُلُوبُ بِذِكْرِهِم، وَأَنَّ قَومًا أَحْيَاءً تَقسُو القُلُوبُ بِرُؤيَتِهِم(٤).

عَن شَقِيقِ بنِ إِبرَاهِيمَ البَلْخِيِّ قَالَ: قِيلَ لِابْنِ المُبَارَكِ: إِذَا صَلَّيتَ مَعَنَا، لِمَ لَا تَجْلِسْ مَعَنَا؟ قَالَ: أَذهَبُ مَعَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، قُلنَا لَهُ:

---

(١) «تهذيب المدارج» (٢/ ٩٤٩).

(٢) «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (٥/ ١٣٣)، منسوبًا لمحمدِ بن أبي عَقامَة قاضي زَبِيدِ.

(٣) «الرسالة التبوكية» (ص٢٢٦)، لابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) رواه أبو عبد الرحمن السُّلَمِي في «طبقات الصوفية» (ص٥٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٢١٤).

وَمِن أَينَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ؟ قَالَ: أَذهَبُ أَنْظُرُ فِي عِلمِي، فَأُدرِكُ آثَارَهُم وَأَعمَالَهُم، فَمَا أَصْنَعُ مَعَكُم؟ أَنْتُم تَغْتَابُونَ النَّاسَ[١].

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

قَد مَاتَ قَومٌ وَمَا مَاتَت مَكَارِمُهُم ... وَعَاشَ قَومٌ وَهُم فِي النَّاسِ أَموَاتُ[٢]

وَمَن تَأَمَّلَ أَحوَالَ أَئِمَّةِ الإِسلَامِ - كَأَئِمَّةِ الحَدِيثِ وَالفِقهِ - كَيفَ هُم تَحتَ التُّرَابِ، وَهُم فِي الْعَالَمِينَ كَأَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ بَيْنَهُمْ؟! لَم يَفقِدُوا مِنهُم إِلَّا صُوَرَهُمْ، وَإِلَّا فَذِكرُهُم وَحَدِيثُهُمْ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ، غَيْرُ مُنْقَطِعٍ؛ وَهَذِهِ هِيَ الحَيَاةُ حَقًّا، حَتَّى عُدَّ ذَلِكَ حَيَاةً ثَانِيَةً[٣].

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

فَارفَع لِنَفسِكَ بَعدَ مَوتِكَ ذِكرَهَا ... فَالذِّكرُ لِلْإِنْسَانِ عُمُرٌ ثَانِي[٤]

٥ أكثر من الأعمال الخفية:

اعلَم - رَحِمَكَ اللهُ - بِأَنَّ كُلَّ شَيءٍ مِن أَعمَالِ البِرِّ يُخَافُ عَلَى فَاعِلِهِ مِنَ الرِّيَاءِ، فَمَا خَفِيَ عَنِ النَّاسِ، كَانَ أَحسَنَ وَأَفضَلَ.

عَنِ الزُّبَيرِ بنِ العَوَّامِ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ استَطَاعَ مِنكُم أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبِيءٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، فَلْيَفْعَل**»[٥].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٦٤- ١٦٥)، وأورده الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٩٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٣٧).

(٣) المصدر السابق (١/ ٤٣٧).

(٤) «ديوان أحمد شوقي» (ص٥٢٩).

(٥) أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١١/ ٢٦٢)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٣/ ٧٨) رقم (٨٨٤). وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٣١٣).

وَالخَبْءُ: الذَّخِيرَةُ وَالكَنْزُ، وَالشَّيْءُ المُخَبَّأُ: المُدَّخَرُ[١].

فَفَائِدَةُ الإِسرَارِ الإِخلَاصُ وَالسَّلَامَةُ مِنَ الرِّيَاءِ، وَمَا زَالَ المُخلِصُونَ دِينَهُم لِلَّهِ خَائِفِينَ مِن خَفِيِّ الرِّيَاءِ، مُجتَهِدِينَ فِي التَّخَلُّصِ مِنهُ، مُجِدِّينَ فِي الفِرَارِ عَنهُ[٢]. مُبَالِغِينَ فِي إِخفَاءِ طَاعَتِهِم أَعظَمَ مِمَّا يَحرِصُ النَّاسُ عَلَى إِخفَاءِ سَيِّئَاتِهِم، كُلُّ ذَلِكَ رَجَاءَ أَن تَخْلُصَ أَعمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ لِلَّهِ، فَيَتَقَبَّلَهَا مِنهُم، وَيَجزِيَهُم عَلَيهَا أَحسَنَ الجَزَاءِ.

قَالَ أَبُو حَازِمٍ سَلَمَةُ بنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اكتُم مِن حَسَنَاتِكَ، كَمَا تَكتُمُ مِن سَيِّئَاتِكَ»[٣].

قَالَ أَبُو بَكرٍ المَرُّوذِيُّ: سَمِعتُ رَجُلًا يَقُولُ لِأَبِي عَبدِ اللهِ[٤] - وَذَكَرَ لَهُ الصِّدقَ وَالإِخلَاصَ - فَقَالَ أَبُو عَبدِ اللهِ: «بِهَذَا ارتَفَعَ القَومُ»[٥].

عَنِ الأَعمَشِ قَالَ: دَخَلتُ عَلَى إِبرَاهِيمَ[٦] وَهُوَ يَقرَأُ فِي المُصحَفِ، فَاستَأذَنَ عَلَيهِ رَجُلٌ فَغَطَّاهُ، [وَ] قَالَ: لَا يَرَى هَذَا أَنِّي أَقرَأُ فِيهِ كُلَّ سَاعَةٍ[٧].

وَقَالَ حَمْزَةُ بنُ دَهْقَانَ: «قُلْتُ لِبِشرِ بنِ الحَارِثِ (ت٢٢٧هـ): أُحِبُّ

---

(١) «شرح كتاب الشهاب» (ص٦٢). (٢) «الذخائر والأعلاق» (ص٤٦٣).

(٣) رواه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤٩٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٦٨)، وهو صحيح.
وفي رواية للبيهقي في «الشعب» (٦٥٠٠) بلفظ: «أَخْفِ حَسَنَتَكَ كَمَا تُخفِي سَيِّئَتَكَ، وَلَا تَكُونَنَّ مُعجَبًا بِعَمَلِكَ؛ فَلَا تَدرِي أَشَقِيٌّ أَنتَ أَم سَعِيدٌ؟».

(٤) وفي طريق: «وَسُئِلَ: بِمَ بَلَغَ القَومُ حَتَّى مُدِحُوا؟».

(٥) رواه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٢٦٧و٢٧٤)، من ثلاث طرق: يُقوِّي بعضُها بعضًا.

(٦) هو: ابن يزيد بن قيس بن الأسود النَّخَعِي.

(٧) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٥٦٤)، وإسناده صحيح.

أَنْ أَخْلُوَ مَعَكَ. قَالَ: إِذَا شِئتَ فَيَكُونُ يَومًا. فَرَأَيتُهُ قَدْ دَخَلَ قُبَّةً، فَصَلَّى فِيهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ لَا أُحْسِنُ أُصَلِّي مِثلَهَا، فَسَمِعتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: **اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنَّ الذُّلَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الشَّرَفِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنَّ الفَقرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الغِنَى، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنِّي لَا أُوثِرُ عَلَى حُبِّكَ شَيئًا.**

فَلَمَّا سَمِعتُهُ، أَخَذَنِي الشَّهِيقُ وَالبُكَاءُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعلَمُ أَنِّي لَو أَعلَمُ أَنَّ هَذَا هَاهُنَا، لَم أَتَكَلَّمْ»[1].

قَالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ مِن عِبَادِهِ أَن يُعَامِلُوهُ سِرًّا بَينَهُم وَبَينَهُ، وَأَهلُ مَحَبَّتِهِ يُحِبُّونَ أَن يُعَامِلُوهُ سِرًّا بَينَهُم وَبَينَهُ، بِحَيثُ لَا يَطَّلِعُ عَلَى مُعَامَلَتِهِم إِيَّاهُ سِوَاهُ[2].

وَلِهَذَا فُضِّلَ قِيَامُ وَسَطِ اللَّيلِ، عَلَى مَا سِوَاهُ مِن أَوقَاتِ اللَّيلِ[3].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «طَاعَةُ العَبدِ لِرَبِّهِ فِي السِّرِّ دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِهِ وَإِخلَاصِهِ لِرَبِّهِ... وَأَفضَلُ النَّوَافِلِ إِسرَارُهَا، وَلِذَلِكَ فُضِّلَتْ صَلَاةُ اللَّيلِ عَلَى نَوَافِلِ الصَّلَاةِ، وَفُضِّلَتْ صَدَقَةُ السِّرِّ عَلَى صَدَقَةِ الْعَلَانِيَةِ»[4].

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ**»[5].

---

(١) رواه ابن قُدامة المقدسي في «إثبات صفة العلو» (رقم: ١٠٦)، وأورده الذهبي في «السير» (١٠/ ٤٧٣).

(٢) «لطائف المعارف» (ص٢٩٠).

(٣) «شرح حديث عمار بن ياسر» (ص٢٧).

(٤) «مجموع رسائل ابن رجب» (٤/ ٤٢٦).

(٥) رواه الترمذي (٢٩١٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ١٦٦).

قَالَ التِّرمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَعْنَى هَذَا الحَدِيثِ: أَنَّ الَّذِي يُسِرُّ بِقِرَاءَةِ القُرآنِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَجْهَرُ بِقِرَاءَةِ القُرْآنِ؛ لِأَنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ أَفْضَلُ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ صَدَقَةِ العَلَانِيَةِ، وَإِنَّمَا مَعْنَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ: لِكَي يَأمَنَ الرَّجُلُ مِنَ العُجْبِ، لِأَنَّ الَّذِي يُسِرُّ العَمَلَ لَا يُخَافُ عَلَيهِ العُجْبُ ما يُخَافُ عَلَيهِ مِنْ عَلَانِيَتِهِ(١).

لَطَالَمَا عَصَينَا اللهَ كَثِيرًا فِي السِّرِّ، فَهَلَّا أَكْثَرْنَا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ بَينَنَا وَبَينَ اللهِ؟!

وَلْنَذْكُرْ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ - لَا الحَصْرِ- الأَعمَالَ التَّالِيَةَ:

أولا: البكاء من خشية الله:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**» - وَذَكَرَ مِنْ بَينِهِم -: «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَينَاهُ**»(٢).

قَالَ ابنُ هُبَيرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَينَاهُ؛ فَإِنَّهُ تَحَقَّقَ إِخلَاصُهُ فِي البُكَاءِ، لِأَنَّهُ قَد يَبكِي الإِنسَانُ فِي الجَمَاعَةِ، وَلَا يَبكِي فِي الخَلوَةِ؛ فَأَخبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنَّ الِاعتِبَارَ بِمَن ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَينَاهُ؛ مُعَرِّفًا أَهلَ البُكَاءِ: أَنَّ الِاعتِبَارَ بِمَا يَفِيضُ مِنَ الدُّمُوعِ فِي الخَلوَةِ، حَيثُ لَا يَعلَمُ ذَلِكَ إِلَّا اللهُ سُبحَانَهُ»(٣).

جَعَلَنَا اللهُ مِمَّن أَخلَصَ لِلَّهِ عَمَلَهُ، وَخَتَمَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ أَجَلَهُ(٤).

---

(١) «سنن الترمذي» (٥/ ١٦٥ - ١٦٦).
(٢) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).
(٣) «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٦/ ٢٣٨).
(٤) «الأربعون الصحيحة» (ص٦٥).

ثانيا: الدعاء بظهر الغيب:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ - بِظَهْرِ الغَيبِ - مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ؛ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيرٍ، قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**»(١).

المُسلِمُ هُنَا: هُوَ الَّذِي سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، الَّذِي يُحِبُّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَحمِلُهُ حَالُهُ وَشَفَقَتُهُ عَلَى أَخِيهِ المُسلِمِ أَن يَدعُوَ لَهُ بِظَهرِ الغَيبِ، أَي: فِي حَالَ غَيبَتِهِ عَنهُ.

وَإِنَّمَا خَصَّ حَالَةَ الغَيبَةِ بِالذِّكرِ لِبُعدِهَا عَنِ الرِّيَاءِ، وَالأَغرَاضِ المُفسِدَةِ أَوِ المُنقِصَةِ؛ فَإِنَّهُ فِي حَالِ الغَيبَةِ يَتَمَحَّضُ الإِخلَاصُ، وَيَصِحُّ قَصدُ وَجهِ اللهِ تَعَالَى بِذَلِكَ، فَيُوَافِقُهُ المَلَكُ فِي الدُّعَاءِ، وَيُبَشِّرُهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّ لَهُ مِثلَ مَا دَعَا بِهِ لِأَخِيهِ...

فَإِنَّ الإِنسَانَ إِذَا دَعَا لِإِخوَانِهِ المُسلِمِينَ حَيثُ كَانُوا، وَصَدَقَ اللهَ فِي دُعَائِهِ، وَأَخلَصَ فِيهِ فِي حَالِ الغَيبَةِ عَنهُم، أَو عَن بَعضِهِم؛ قَالَ المَلَكُ لَهُ ذَلِكَ القَولَ، بَل قَد يَكُونُ ثَوَابُهُ أَعظَمَ؛ لِأَنَّهُ دَعَا بِالخَيرِ، وَقَصَدَهُ لِلإِسلَامِ، وَلِكُلِّ المُسلِمِينَ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعلَمُ(٢).

قَالَ شَيخُ الإِسلَام رحمه الله: «وَدُعَاءُ الغَائِبِ لِلْغَائِبِ، أَعْظَمُ إِجَابَةً مِنْ دُعَاءِ الحَاضِرِ؛ لِأَنَّهُ أَكْمَلُ إِخلَاصًا، وَأَبْعَدُ عَنِ الشِّرْكِ»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٢).

(٢) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٧/ ٦١ - ٦٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٢٨).

وَقَالَ سَعِيدُ بنُ بُرَيدٍ النَّبَاجِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنبَغِي لَنَا أَن نَكُونَ بِدُعَاءِ إِخوَانِنَا أَوثَقَ مِنَّا بِأَعمَالِنَا، نَخَافُ أَن نَكُونَ فِي أَعمَالِنَا مُقَصِّرِينَ، وَنَرجُو أَن نَكُونَ فِي دُعَائِهِم لَنَا مُخلِصِينَ؛ فَإِنَّ مَن أَصفَى العَمَلَ، فَأَنتَ مِنهُ عَلَى رِبحٍ»(١).

ثالثا: الإكثار من النوافل في البيت:

عَنْ صُهَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَلَاةُ الرَّجُلِ تَطَوُّعًا حَيثُ لَا يَرَاهُ النَّاسُ، تَعْدِلُ صَلَاتَهُ عَلَى أَعْيُنِ النَّاس خَمسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»(٢).

وَمَا هُوَ بِهَذِهِ المَثَابَةِ، فَيَتَأَكَّدُ تَحصِيلُهُ عَلَى مَا يَنبَغِي(٣).

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّمَا حَثَّ عَلَى النَّافِلَةِ فِي البَيتِ: لِكَونِهِ أَخفَى وَأَبعَدَ مِنَ الرِّيَاءِ، وَأَصوَنَ مِنَ المُحبِطَاتِ؛ وَلِيَتَبَرَّكَ البَيتُ بِذَلِكَ، وَتَنزِلَ فِيهِ الرَّحمَةُ وَالمَلَائِكَةُ، وَيَنفِرَ مِنهُ الشَّيطَانُ»(٤).

رابعا: حُبُّ المساكين:

«المَسَاكِينُ لَيسَ عِندَهُم مِنَ الدُّنيَا مَا يُوجِبُ مَحَبَّتَهُم لِأَجلِهِ، فَلَا يُحِبُّونَ إِلَّا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وَالحُبُّ فِي اللهِ مِن أَوثَقِ عُرَى الإِيمَانِ، وَمِن عَلَامَاتِ ذَوقِ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ، وَهُوَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»(٥).

«وَحُبُّ المَسَاكِينِ: قَد وَصَّى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، غَيرَ وَاحِدٍ مِن أَصحَابِهِ»(٦).

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣١٢)، وأورد جُلَّهُ الذهبي في «السير» (٩/ ٥٨٦).
(٢) رواه أبو يعلى في «الكبير»، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٣٨٢١).
(٣) «المدخل» (٢/ ١/ ١٦٥)، لابن الحاج رَحِمَهُ اللَّهُ. (٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٦٠).
(٥) «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» (ص٧٥).
(٦) المصدر السابق.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ: أَمَرَنِي بِحُبِّ المَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ...»(١).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسأَلُ رَبَّهُ حُبَّ المَسَاكِينِ، كَمَا فِي قَولِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ، فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ. أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ. إِنَّهَا حَقٌّ، فَادْرُسُوهَا، ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا»(٢).

«وَحُبُّ المَسَاكِينِ مُستَلزِمٌ لِإِخلَاصِ العَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَى. وَالإِخلَاصُ هُوَ أَسَاسُ الأَعمَالِ الَّذِي لَا تَثبُتُ الأَعمَالُ إِلَّا عَلَيهِ، فَإِنَّ حُبَّ المَسَاكِينِ يَقتَضِي إِسدَاءَ النَّفعِ إِلَيهِم بِمَا يُمكِنُ مِن مَنَافِعِ الدِّينِ وَالدُّنيَا، فَإِذَا حَصَلَ إِسدَاءُ النَّفعِ إِلَيهِم حُبًّا لَهُم، وَالإِحسَانُ إِلَيهِم، كَانَ هَذَا العَمَلُ خَالِصًا»(٣).

قَالَ ابنُ رَجَبٍ رحمه الله: «مَحَبَّةُ المَسَاكِينِ تُوجِبُ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ لِلَّهِ عزوجل، لِأَنَّ الإِحسَانَ إِلَيهِم لِمَحَبَّتِهِم لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عزوجل، لِأَنَّ نَفعَهُم فِي الدُّنيَا لَا يُرجَى غَالِبًا»(٤).

خامسا: الإكثار من صيام النفل:

لَمَّا كَانَ الصِّيَامُ سِرًّا بَينَ العَبدِ وَرَبِّهِ، اجتَهَدَ المُخلِصُونَ فِي إِخفَائِهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، حَتَّى لَا يَطَّلِعَ عَلَيهِم أَحَدٌ(٥).

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٥٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨١١).
(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣١٩).
(٣) «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» (ص٧٦).
(٤) المصدر السابق (ص٨٤).
(٥) «لطائف المعارف» (ص٨٥).

سادسا: المحافظة على صلاتي الفجر والعشاء:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالعِشَاءِ»(١).

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا الصُّبْحَ، فَقَالَ: «أَشَاهِدٌ فُلَانٌ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «أَشَاهِدٌ فُلَانٌ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا، لَأَتَيْتُمُوهُمَا وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الرُّكَبِ...»(٢).

«وَإِنَّمَا ثَقُلَت هَاتَانِ الصَّلَاتَانِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ: صَلَاةُ العِشَاءِ وَصَلَاةُ الفَجرِ، لِأَنَّ الْمُنَافِقَ لَا يَنشَطُ لِلصَّلَاةِ إِلَّا إِذَا رَآهُ النَّاسُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء]. وَصَلَاةُ العِشَاءِ وَالصُّبحِ يَقعَانِ فِي ظُلمَةٍ، فَلَا يَنشَطُ لِلمَشيِ إِلَيهِمَا إِلَّا كُلُّ مُخلِصٍ، يَكتَفِي بِرُؤيَةِ اللهِ عز وجل وَحدَهُ لِعِلمِهِ بِهِ»(٣).

عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «كُنَّا إِذَا افتَقَدنَا الرَّجُلَ فِي العِشَاءِ وَالصُّبحِ، أَسَأنَا بِهِ الظَّنَّ»(٤).

فَليَعتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفسِهِ بِهَذَا المَوضِعِ، وَليُجَاهِد نَفسَهُ -الَّتِي هِيَ مَأوَى كُلِّ سُوءٍ، وَمَنبَعُ كُلِّ شَرٍّ-، عَلَى الإِخلَاصِ.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧).

(٢) رواه أبو داود (٥٥٤)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤١١).

(٣) «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» (ص٣٦).

(٤) رواه البزَّار «البحر الزخار» (٥٨٤٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤١٧).

سابعا: المجاهدة:

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وَعَن فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «... **وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**»(١).

وَمِنْ أَهَمِّ مَا يَكُونُ مِن هَذَا: مُجَاهَدَةُ النَّفسِ عَلَى الإِخلَاصِ لِلَّهِ ﷻ فِي العِبَادَةِ، فَإِنَّ الإِخلَاصَ أَمرُهُ عَظِيمٌ وَشَاقٌّ جِدًّا، فَالمُجَاهَدَةُ عَلَى الإِخلَاصِ لِلَّهِ مِن أَشَقِّ مَا يَكُونُ عَلَى النُّفُوسِ، لِأَنَّ النُّفُوسَ لَهَا حُظُوظٌ؛ وَلِأَنَّ الإِنسَانَ يُحِبُّ أَن يَكُونَ مَرمُوقًا عِندَ النَّاسِ، وَيُحِبُّ أَن يَكُونَ مُحتَرَمًا بَينَ النَّاسِ، وَيُحِبُّ أَن يُقَالَ: إِنَّ هَذَا رَجُلٌ عَابِدٌ، هَذَا رَجُلٌ فِيهِ كَذَا وَكَذَا مِن خِصَالِ الخَيرِ، فَيَدخُلَ الشَّيطَانُ عَلَى الإِنسَانِ مِن هَذَا البَابِ، وَيَحمِلَهُ عَلَى مُرَاءَاةِ النَّاسِ(٢).

وَاعلَم بِأَنَّهُ «كُلَّمَا كَانَ الفِعلُ أَنفَعَ لِلعَبدِ، وَأَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى، كَانَ اعتِرَاضُ الشَّيطَانِ لَهُ أَكثَرَ»(٣).

فَحَقِيقٌ بِمَن لِنَفسِهِ عِندَهُ قَدرٌ وَقِيمَةٌ، أَن يُجَاهِدَ نَفسَهُ عَلَى الإِخلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى. «فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ حَتَّى يُبَعْثَرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَيُحَصَّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، وَتَتَسَاوَى أَقْدَامُ الْخَلَائِقِ فِي الْقِيَامِ لِلَّهِ؛ وَيَنْظُرَ كُلُّ عَبْدٍ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، وَيَقَعَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ»(٤) المُخلِصِينَ وَالمُرَائِينَ.

---

(١) قطعة من حديث: أحرجه أحمد (٦/ ٢١ رقم ٢٤٠٦٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٥٤٩).

(٢) «شرح رياض الصالحين» (٢/ ٥١ - ٥٢) باختصار، للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.

(٣) «موارد الأمان» (ص١٦٢).

(٤) «إعلام الموقِّعين» (١/ ٣٥).

ثَمَرَاتُ الإِخلَاصِ

الإِخلَاصُ شَجَرَةٌ فِي القَلْبِ؛ فُرُوعُهَا الأَعمَالُ، وَثَمَرُهَا طِيبُ الحَيَاةِ فِي الدُّنيَا، وَالنَّعِيمُ المُقِيمُ فِي الآخِرَةِ.

وَكَمَا أَنَّ ثِمَارَ الجَنَّةِ لَا مَقطُوعَةٌ وَلَا مَمنُوعَةٌ، فَثَمَرَةُ الإِخلَاصِ فِي الدُّنيَا كَذَلِكَ[1].

وَلَا يَزَالُ سَعيُ المُخلِصِ صَاعِدًا إِلَى رَبِّهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وَالإِخلَاصُ لَهُ ثَمَرَاتٌ طَيِّبَةٌ عَظِيمَةٌ جِدًّا، يَجنِيهَا المُخلِصُونَ مِن رَبِّهِم عَطَاءً غَيرَ مَجذُوذٍ.

١ الفَوزُ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الآخِرَةِ:

كُلَّمَا كَانَ العَبْدُ أَكثَرَ إِخلَاصًا، كَانَ أَكثَرَ تَأَهُّلًا لِلظَّفَرِ بِشَفَاعَتِهِ ﷺ يَومَ القِيَامَةِ، يَدُلُّ لِذَلِكَ قَولُهُ ﷺ: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ - أَوْ: نَفْسِهِ -**»[2].

---

(١) «فوائد الفوائد» (ص٢٦١).

(٢) رواه البخاري (٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَعظَمَ إِخلَاصًا لِلَّهِ، كَانَت شَفَاعَةُ الرَّسُولِ أَقرَبَ إِلَيهِ»(١).

٢ الرِّفعَةُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ:

عَن سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **إِنَّكَ لَن تُخَلَّفَ، فَتَعمَلَ عَمَلًا تَبتَغِي بِهِ وَجهَ اللهِ، إِلَّا ازدَدتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفعَةً**»(٢).

قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَعمَالَ لَا تَزكُو عِندَ اللهِ إِلَّا بِالنِّيَّاتِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُؤجَرُ عَلَى شَيءٍ مِنَ الأَعمَالِ، إِلَّا مَا ابتَغَى بِهِ وَجهَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(٣). «وَمُحَالٌ أَن يَزكُوَ مِنَ الأَعمَالِ شَيءٌ لَا يُرَادُ بِهِ اللهُ، وَفَّقَنَا اللهُ لِمَا يَرضَاهُ، وَأَصلَحَ سَرَائِرَنَا وَعَلَانِيَتَنَا بِرَحمَتِهِ، آمِينَ»(٤).

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَأَشَارَ فِي هَذَا الحَدِيثِ إِلَى الإِخلَاصِ فِي كَونِ الإِنسَانِ يَبتَغِي بِعَمَلِهِ وَبِإِنفَاقِ مَالِهِ وَجهَ اللهِ، حَتَّى يَنَالَ عَلَى ذَلِكَ الأَجرَ، وَزِيَادَةَ الدَّرَجَاتِ، وَالرِّفعَةَ عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وَاللَّهُ المُوَفِّقُ»(٥).

فَمَن أَخلَصَ لِلَّهِ عَمَلَهُ، زَكَّى اللهُ عَمَلَهُ، وَبَلَّغَهُ مِنَ الثَّوَابِ أَمَلَهُ، وَزَادَهُ خَيرًا وَدَرَجَةً وَرِفعَةً.

٣ العَمَلُ عَلَى المَقصَدِ الأَعلَى وَالمَطلَبِ الأَسنَى:

وَمِن ثَمَرَاتِ الإِخلَاصِ: أَنَّ «المُخلِصَ لِلَّهِ قَد عَلَّقَ قَلبَهُ بِأَكمَلِ مَا تَعَلَّقَت بِهِ القُلُوبُ مِن رِضوَانِ رَبِّهِ، وَطَلَبِ ثَوَابِهِ، وَعَمِلَ عَلَى هَذَا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٢٣).
(٢) رواه البخاري (٣٩٣٦)، ومسلم (١٦٢٨).
(٣) «التمهيد» (٨/ ٣٨٦).
(٤) المصدر السابق (٧/ ١٠٦).
(٥) «شرح رياض الصَّالحين» (١/ ٦٠).

المَقصَدِ الأَعلَى، فَهَانَت عَلَيهِ المَشَقَّاتُ، وَسَهُلَت عَلَيهِ النَّفقَاتُ، وَسَمُحَت نَفسُهُ بِأَدَاءِ الحُقُوقِ كَامِلَةً مُوَفَّرَةً، وَعَلِمَ أَنَّهُ تَعَوَّضَ عَمَّا فَقَدَهُ أَفضَلَ الأَعوَاضِ، وَأَجزَلَ الثَّوَابِ، وَخَيرَ الغَنَائِمِ»(١).

٤ المَنعُ مِن قَصدِ مُرَاءَاةِ النَّاسِ وَطَلَبِ مَحمَدَتِهِم:

وَمِن ثَمَرَاتِ الإِخلَاصِ: أَنَّهُ يَمنَعُ مَنعًا بَاتًّا مِن قَصدِ مُرَاءَاةِ النَّاسِ، وَطَلَبِ مَحمَدَتِهِم، وَالهَرَبِ مِن ذَمِّهِم، وَالعَمَلِ لِأَجلِهِم، وَالوُقُوفِ عِندَ رِضَاهُم وَسَخَطِهِم، وَالتَّقَيُّدِ بِإِرَادَتِهِم وَمُرَادِهِم، وَهَذَا هُوَ الحُرِّيَّةُ الصَّحِيحَةُ: أَن لَا يَكُونَ القَلْبُ مُتَقَيِّدًا، مُتَعَلِّقًا بِأَحَدٍ مِنَ الخَلقِ.

٥ عَدَمُ انتِظَارِ الجَزَاءِ وَالثَّنَاءِ مِنَ النَّاسِ:

وَمِن ثَمَرَاتِ الإِخلَاصِ الطَّيِّبَةِ: أَنَّ المُخلِصَ إِذَا عَمِلَ مَعَ النَّاسِ إِحسَانًا قَولِيًّا، أَو فِعلِيًّا، أَو مَالِيًّا أَو غَيرَهُ، لَم يُبَالِ بِجَزَائِهِم وَلَا شُكرِهِم، لِأَنَّهُ عَامَلَ اللهَ تَعَالَى، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجرَ مَن أَحسَنَ عَمَلًا، وَلَا يُثنِي عَزمَهُ وَنَشَاطَهُ قِلَّةُ شُكرِهِم لَهُ، فَقَد قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي حَقِّ المُخلِصِينَ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان]؛ «فَجَعَلَ غَايَةَ أَعمَالِ الأَبرَارِ، وَالمُقَرَّبِينَ، وَالمُحِبِّينَ: إِرَادَةَ وَجْهِهِ»(٢). أَي: يَقْصِدُونَ بِأَعمَالِهِم وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِدُخُولِهِمُ الجَنَّةَ وَرُؤيَتِهِ فِيهَا.

وَاعلَم بِأَنَّ العَبدَ مَتَى أَنفَقَ لِيُرِيدَ مِنَ المُنفَقِ عَلَيهِ جَزَاءً بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، فَهَذَا لَم يُرِد وَجهَ اللهِ، وَإِنَّمَا يُقبَلُ مَا كَانَ

---

(١) «فتح الرحيم الملك العلّام» (ص٩٩-١٠٠). (٢) «تهذيب المدارج» (٢/ ٨١٩).

عَطَاؤُهُ لِلَّهِ، وَقَصدُهُ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ.

«فَلِهَذَا يَنبَغِي لِلعَبدِ: أَن يَقصِدَ وَجهَ اللهِ تَعَالَى، وَيُخلِصَ العَمَلَ لِلَّهِ، فِي كُلِّ وَقتٍ، وَفِي كُلِّ جُزءٍ مِنْ أَجزَاءِ الخَيرِ، لِيَحْصُلَ لَهُ بِذَلِكَ: الأَجرُ العَظِيمُ، وَلِيَتَعَوَّدَ الإِخلَاصَ، فَيَكُونَ مِنَ المُخلِصِينَ، وَلِيُتَمَّ لَهُ الأَجرُ، سَوَاءٌ تَمَّ مَقصُودُهُ أَم لَا، لِأَنَّ النِّيَّةَ حَصَلَت، وَاقتَرَنَ بِهَا مَا يُمكِنُ مِنَ العَمَلِ»[(١)].

قَالَ العَلَّامَةُ السِّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَطِّنْ نَفسَكَ عَلَى أَن لَا تَطلُبَ الشُّكرَ إِلَّا مِنَ اللهِ، فَإِذَا أَحسَنتَ إِلَى مَن لَهُ حَقٌّ عَلَيكَ، أَو مَن لَيسَ لَهُ حَقٌّ، فَاعلَمْ أَنَّ هَذَا مُعَامَلَةٌ مِنكَ مَعَ اللهِ، فَلَا تُبَالِ بِشُكرِ مَن أَنعَمتَ عَلَيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ خَوَاصِّ خَلقِهِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩][(٢)].

٦ رِضَى اللهِ تَعَالَى:

مَنْ عَمِلَ لِوَجهِ اللهِ الكَرِيمِ، نَالَ الرِّضَى مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

فَهُوَ «إِذَا أَحسَنَ إِلَى النَّاسِ، فَإِنَّمَا يُحسِنُ إِلَيهِمُ ابتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِ الأَعلَى؛ وَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ قَد مَنَّ عَلَيهِ بِأَنْ جَعَلَهُ مُحسِنًا، فَيَرَى أَنَّ عَمَلَهُ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ؛ فَلَا يَطلُبُ مِمَّنْ أَحسَنَ إِلَيهِ جَزَاءً، وَلَا شُكُورًا، وَلَا يَمُنُّ عَلَيهِ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ قَد عَلِمَ أَنَّ اللهَ هُوَ المَانُّ عَلَيهِ، إِذِ استَعمَلَهُ فِي الإِحسَانِ، فَعَلَيهِ: أَن يَشكُرَ اللهَ إِذ يَسَّرَهُ لِليُسرَى، وَعَلَى ذَلِكَ الشَّخصِ: أَن يَشكُرَ اللهَ، إِذ يَسَّرَ لَهُ مَا يَنفَعُهُ»[(٣)]. فَمَنْ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٥٤). (٢) «المجموعة الكاملة» (٢/ ٤٩٤).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٢١) و(١٤/ ٣٢٩ - ٣٣٠).

فَعَلَ ذَلِكَ، فَلَسوفَ يَرضَى عَنْهُ رَبُّ العَالَمِينَ بِمَا يُعطِيهِ «مِنَ الكَرَامَةِ وَالجَزَاءِ العَظِيمِ، وَهُوَ وَعدٌ مِنَ الكَرِيمِ تَعَالَى، عَلَى أَكمَلِ الوُجُوهِ وَأَجَلِّهَا»[١].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِي الآيَةِ الإِرشَادُ إِلَى أَنَّ صَاحِبَ التَّقوَى لَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَتَحَمَّلَ مِنَ الخَلقِ وَنِعَمِهِم، وَإِنْ حَمَلَ مِنهُم شَيئًا بَادَرَ إِلَى جَزَائِهِم عَلَيهِ، لِئَلَّا يَتَبَقَّى لِأَحَدٍ مِنَ الخَلقِ عَلَيهِ نِعمَةٌ تُجزَى، فَيَكُونَ بَعدَ ذَلِكَ عَمَلُهُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَحدَهُ، لَيسَ لِلمَخلُوقِ جَزَاءٌ عَلَى نِعمَتِهِ.

وَنَبَّهَ سُبحَانَهُ بِقَولِهِ: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠﴾ [اللَّيل]: عَلَى أَنَّ مَن لَيسَ لِمَخلُوقٍ عَلَيهِ نِعمَةٌ تُجزَى، لَا يَفعَلُ مَا يَفعَلُهُ، إِلَّا ابتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِ الأَعلَى، بِخِلَافِ مَنْ تَطَوَّقَ نِعَمَ المَخلُوقِينَ وَمِنَنَهُم، فَإِنَّهُ مُضطَرٌّ إِلَى أَنْ يَفعَلَ لِأَجلِهِم، وَيَترُكَ لِأَجلِهِم.

وَلِهَذَا كَانَ مِنْ كَمَالِ الإِخلَاصِ: أَنْ لَا يَجعَلَ العَبدُ عَلَيهِ مِنَّةً لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، لِتَكُونَ مُعَامَلَتُهُ كُلُّهَا لِلَّهِ ابتِغَاءَ وَجهِهِ، وَطَلَبَ مَرضَاتِهِ»[٢].

«وَكَمَا أَنَّ هَذِهِ الغَايَةَ أَعلَى الغَايَاتِ، وَهَذَا المَطلُوبُ أَشرَفُ المَطَالِبِ. وَالإِخلَاصُ أَقصَدُ الطُّرُقِ إِلَيهِ، وَأَقرَبُهَا وَأَقوَمُهَا. وَبِاللَّهِ التَّوفِيقُ»[٣].

٧ النَّجَاةُ مِنَ الفِتَنِ:

مَن أَرَادَ أَن يَتَّخِذَ سَبَبًا لِلنَّجَاةِ مِنَ الفِتَنِ، فَإِنَّ الإِخلَاصَ لِلَّهِ تَعَالَى خَيرُ السَّبَبِ.

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَاللَّهُ تَعَالَى يَبتَلِي عَبدَهُ المُؤمِنَ لِيُطَهِّرَهُ

---

(١) «فتح البيان» (١٥/ ٢٧٢).
(٢) «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٤٦- ٤٧).
(٣) المصدر السابق (ص ٤٧)، بتصرُّف يسير.

مِنَ الذُّنُوبِ وَالمَعَايِبِ، وَمِن رَحمَتِهِ بِعَبدِهِ المُخلِصِ: أَن يَصرِفَ عَنهُ مَا يَغَارُ عَلَيهِ مِنهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يُوسُف]»(١)؛ فَالسُّوءُ: العِشقُ، وَالفَحشَاءُ: الزِّنَا.

«فَلَمَّا أَخلَصَ [يُوسُفُ عَلَيهِ السَّلَام] لِرَبِّهِ، صَرَفَ عَنهُ دَوَاعِيَ السُّوءِ وَالفَحشَاءِ،... فَالإِخلَاصُ: هُوَ سَبِيلُ الخَلَاصِ»(٢).

فَالمُخلِصُ «يَصرِفُ اللهُ عَنهُ: مِنَ السُّوءِ وَالفَحشَاءِ، مَا لَا يَصرِفُهُ عَن غَيرِهِ»(٣).

وَكُلَّمَا كَانَ أَعظَمَ إِخلَاصًا، كَانَ مِنهَا أَبعَدَ(٤).

فَإِنَّ القَلْبَ إِذَا خَلُصَ وَأَخلَصَ عَمَلَهُ لِلَّهِ، لَم يَتَمَكَّن مِنهُ عِشقُ الصُّوَرِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِن قَلبٍ فَارِغٍ؛ كَمَا قِيلَ:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبلَ أَنْ أَعرِفَ الهَوَى ... فَصَادَفَ قَلبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا(٥)

فَمَنِ ابتُلِيَ بِمُشَاهَدَةِ الأَفلَامِ الخَلِيعَةِ، وَالدُّخُولِ عَلَى المَوَاقِعِ الإِبَاحِيَّةِ؛ إِنَّمَا هُوَ مِن جَهلِهِ وَغَفلَةِ قَلبِهِ عَنِ اللهِ، فَعَلَيهِ أَن يَرجِعَ بِقَلبِهِ إِلَى اللهِ، «وَلَيسَ لَهُ دَوَاءٌ أَنفَعُ مِنَ الإِخلَاصِ لِلَّهِ، وَهُوَ الدَّوَاءُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ، حَيثُ قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يُوسُف]»(٦).

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٤٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٧).

(٣) «فتح الرحيم الملك العلّام» (ص ١٠٠).

(٤) «موارد الأمان» (ص ١٢٩).

(٥) «الداء والدواء» (ص ٣٢٥).

(٦) المصدر السابق (ص ٣٢٤).

فَجَازَاهُ عَلَى إِخْلَاصِهِ: بِصَرْفِ السُّوءِ وَالفَحشَاءِ عَنْهُ[١].

«فَمَنْ أخلَصَ لِلَّهِ: أَخلَصَهُ وَخَلَّصَهُ مِنَ الشُّرُورِ، وَعَصَمَهُ مِنَ السُّوءِ وَالفَحشَاءِ»[٢].

وَمَنْ لَمْ يُخلِص لِلَّهِ «اسْتَوْلَتْ عَلَى قَلْبِهِ الشَّيَاطِينُ، وَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، وَصَارَ فِيهِ مِنَ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لَا حِيلَةَ فِيهِ»[٣].

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَسبَابُ حِفظِ اللهِ العَبدَ مِنَ الشُّرُورِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يُوسُفَ]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يُوسُفَ].

هَذَانِ الأَمرَانِ مِن أَلطَافِ حِفظِ البَارِي لِخَواصِّ أَنبِيَائِهِ وَأَصفِيَائِهِ: صَرفُ أَسبَابِ السُّوءِ وَالفَحشَاءِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَصَرفُ الأَسبَابِ الخَارِجِيَّةِ؛ وَمَن أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيرًا، صَرَفَ عَنهُ الأَمرَينِ اللَّذَيْنِ هُمَا مَجمُوعُ الفِتَنِ؛ وَذَكَرَ اللهُ لِهَذَا الصَّرفِ، الَّذِي هُوَ مِن أَجَلِّ نِعَمِهِ، سَبَبَينِ:

أَحَدُهُمَا: قُوَّةُ الإِخلَاصِ مِنَ العَبدِ، وَاستِخلَاصُ اللهِ لَهُ.

وَالثَّانِي: اللَّهَجُ بِالتَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ؛ فَمَن أَخلَصَ لِلَّهِ، استَخلَصَهُ اللهُ

---

(١) «شفاء العليل» (٢/ ٤٦٦).

(٢) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ١٢١)، للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢١٦).

وَوَفَّقَهُ لِفِعلِ الخَيرَاتِ، وَصَرَفَ عَنهُ السُّوءَ وَالمَكرُوهَاتِ؛ وَمَن تَضَرَّعَ لَهُ وَأَلَحَّ بِالدُّعَاءِ، استَجَابَ اللهُ لَهُ، فَصَرَفَ عَنهُ شَرَّ شَيَاطِينِ الإِنسِ وَالجِنِّ، وَكَفَاهُ كَيدَ الكَائِدِينَ وَمَكرَ المَاكِرِينَ.

فَيُوسُفُ ﷺ لَمَّا كَمَّلَ الأَمرَينِ: الإِخلَاصَ لِلَّهِ وَالتَّضَرُّعَ لَهُ، وَالِالتِجَاءَ إِلَيهِ وَالِاعتِصَامَ بِهِ، حَفِظَهُ اللهُ حِفظًا كَامِلًا مِنَ الشُّرُورِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، الدَّاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُصُّ عَلَينَا قَصَصَ أَنبِيَائِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ عِبرَةً لَنَا؛ وَالعِبرَةُ هُنَا: أَنَّ كُلَّ مَن لَهُ حَظٌّ مِنَ الإِخلَاصِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، فَلَهُ حَظٌّ مِن حِفظِ اللهِ وَصِيَانَتِهِ، بِحَسَبِ مَا قَامَ بِهِ مِن قُوَّةِ الأَمرَينِ أَو ضَعفِهِمَا؛ وَمَن فَاتَهُ الأَمرَانِ، وُكِلَ إِلَى نَفسِهِ، وَلَم يَحصُل لَهُ حِفظٌ وَلَا صِيَانَةٌ، وَوَقَعَ فِي فِتَنِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ.

فَنَسأَلُ اللهَ العِصمَةَ، وَأَن لَا يَكِلَنَا إِلَى حَولِنَا وَقُوَّتِنَا طَرفَةَ عَينٍ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ»(١).

٨ المَوتُ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ:

عَن حُذَيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: أَسنَدتُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَى صَدرِي، فَقَالَ: «**مَن قَالَ: لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ، خُتِمَ لَهُ بِهَا، دَخَلَ الجَنَّةَ؛ وَمَن صَامَ يَومًا ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ، خُتِمَ لَهُ بِهَا، دَخَلَ الجَنَّةَ؛ وَمَن تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ، خُتِمَ لَهُ بِهَا، دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٢).

قَولُهُ: «**ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ**» أَي: تَقصِدُ بِهِ وَجهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِدُخُولِكَ

---

(١) «مجموع الفوائد» (ص٢٥٦ - ٢٥٧).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٩١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٨٥).

الجَنَّةَ وَرُؤيَتِهِ فِيهَا.

لِأَنَّ أَهلَ الجَنَّةِ - جَعَلَنِي اللهُ وَإِيَّاكُم مِنهُم - يَرَونَ اللهَ تَعَالَى، وَيَنظُرُونَ إِلَيهِ عِيَانًا، كَمَا يَرَونَ الشَّمسَ صَحوًا لَيسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ، يَعنِي: أَنَّهُم يَرَونَ ذَلِكَ حَقًّا[١].

وَالمَوْتُ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ: فَضِيلَةٌ جَلِيلَةٌ، وَمَكرُمَةٌ نَبِيلَةٌ، وَنِعمَةٌ عَظِيمَةٌ، لَا تُسَاوِيهَا نِعمَةٌ.

«وَلِأَجلِ هَذَا: كَانَ جَدِيرًا بِالعَاقِلِ: أَن يَلزَمَ [الإِخلَاصَ فِي الأَقوَالِ وَالأَفعَالِ وَالأَحوَالِ حَيثُمَا كَانَ]، لِأَجلِ تِلكَ اللَّحظَةِ، الَّتِي إِن فَاتَت، شَقِيَ شَقَاوَةَ الأَبَدِ»[٢].

اللَّهُمَّ أَحيِنَا عَلَى إِخْلَاصِ التَّوحِيدِ، وَأَمِتنَا عَلَى صَالِحِ العَمَلِ، فَإِنَّ الِاعتِبَارَ بِالخَوَاتِيمِ[٣].

٩ انتفاء الخوف والحزن:

قَالَ ﷻ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة].

فَقَد أَخبَرَ اللهُ تَعَالَى: أَنَّهُ مَن أَخلَصَ قَصدَهُ لِلَّهِ، وَكَانَ مُحسِنًا فِي عَمَلِهِ، فَإِنَّهُ مُستَحِقٌّ لِلثَّوَابِ، سَالِمٌ مِنَ العِقَابِ.

وَذَلِكَ أَنَّ إِسلَامَ الوَجهِ لِلَّهِ: هُوَ مُتَضَمِّنٌ إِخْلَاصَ القَصدِ وَالنِّيَّةِ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ بَعضُهُم:

---

(١) «شرح رياض الصَّالحين» (١/ ٢٩).
(٢) «طريق الهجرتين» (ص٥٤٦).
(٣) «الدِّين الخالص» (٣/ ١٤٧).

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ العِبَادِ إِلَيهِ الوَجْهُ وَالعَمَلُ[١]

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ قَصْدُهُ وَمُرَادُهُ وَتَوَجُّهُهُ إِلَى اللهِ، فَهَذَا صَلَاحُ إِرَادَتِهِ وَقَصْدُهُ؛ فَإِذَا كَانَ مَعَ ذَلِكَ مُحْسِنًا، فَقَدِ اجْتَمَعَ لَهُ أَنْ يَكُونَ عَمَلُهُ صَالِحًا، وَأَن يَكُونَ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْإِحْسَانُ: وَهُوَ فِعْلُ الْحَسَنَاتِ، وَهُوَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَالَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ هُوَ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ، وَهُوَ المُوَافِقُ لِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؛ فَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى: أَنَّهُ مَنْ أَخْلَصَ قَصْدَهُ لِلَّهِ، وَكَانَ مُحْسِنًا فِي عَمَلِهِ، فَإِنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلثَّوَابِ، سَالِمٌ مِنَ الْعِقَابِ[٢].

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنَّ إِسْلَامَ الْوَجْهِ لِلَّهِ يَتَضَمَّنُ إِخْلَاصَ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالإِحْسَانُ هُوَ إِحْسَانُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَهُوَ فِعْلُ مَا أَمَرَ بِهِ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف]، فَإِنَّ الْإِسَاءَةَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ تَتَضَمَّنُ الِاسْتِهَانَةَ بِالْأَمْرِ بِهِ، وَالِاسْتِهَانَةَ بِنَفْسِ الْعَمَلِ، وَالِاسْتِهَانَةَ بِمَا وَعَدَهُ اللهُ مِنَ الثَّوَابِ؛ فَإِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ دِينَهُ لِلَّهِ وَأَحْسَنَ الْعَمَلَ لَهُ، كَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ، فَكَانَ مِنَ الَّذِينَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»[٣].

١٠ قَبُولُ الأَعمَالِ:

فَإِنَّ الإِخلَاصَ لِلَّهِ مَطلَبٌ ضَرُورِيٌّ لِقَبُولِ الأَعمَالِ، وَالمُجَازَاةِ

---

(١) استشهد به ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١/ ٥٦) [الفاتحة: ٦]، و(٤/ ٤٧) [آل عمران: ١٢١]، و(٢٠/ ٨٢) [القصص: ٨٨]. وهو من الأبيات، التي لا يُعرَف قائلها.

(٢) «الاستقامة» (٢/ ٣٠٧- ٣٠٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٥١).

عَلَيهَا بِعَظِيمِ الثَّوَابِ، وَجَزِيلِ العَطَايَا وَالهِبَاتِ.

«إِذَا لَم يَكُن لِلَّهِ فِعلُكَ خَالِصًا فَكُلُّ بِنَاءٍ قَد بَنَيتَ خَرَابُ»(١)

فَاللَّهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ! إِذَا عَمِلتُم عَمَلًا، فَأَخلِصُوا لِلَّهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَنفَعُكُم، وَلَا يَتَقَبَّلُ مِنكُم، إِلَّا مَا كَانَ لِوَجهِهِ خَالِصًا.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيتَ رَجُلًا غَزَا، يَلتَمِسُ الأَجرَ وَالذِّكرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا شَيءَ لَهُ**» فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا شَيءَ لَهُ**» ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ، إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابتُغِيَ بِهِ وَجهُهُ**»(٢).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله: «فَهَذَا قَد بَطَلَ أَجرُهُ، وَحَبِطَ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَصَدَ حُصُولَ الأَجرِ؛ لَمَّا ضَمَّ إِلَيهِ قَصدَ الذِّكرِ بَينَ النَّاسِ، فَلَم يُخلِص عَمَلَهُ لِلَّهِ، فَبَطَلَ كُلُّهُ»(٣).

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

وَاعلَم بِأَنَّ الأَجرَ لَيسَ بِحَاصِلٍ إِلَّا إِذَا كَانَت لَهُ صِفَتَانِ
لَا بُدَّ مِن إِخْلَاصِهِ وَنَقَائِهِ وَخُلُوِّهِ مِن سَائِرِ الأَدرَانِ(٤)

---

(١) «ديوان الصنعاني» (ص٦٦).

(٢) رواه النسائي (٣١٤٠)، وقال الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٣٨٤) [طبعة مكتبة المعارف]: «حسن صحيح».

(٣) «عدة الصابرين» (ص٢٦٨).

(٤) «الشامل في فقه الخطيب والخُطبة» (ص٢٢)، لفضيلة الشيخ الدكتور سعود الشريم حفظه الله (إمام وخطيب المسجد الحرام).

قَالَ العَلَّامَةُ السِّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «العَمَلُ إِذَا كَانَ الدَّاعِي لِفِعلِهِ وَتَكمِيلِهِ: وَجهَ اللهِ، وَطَلَبَ رِضَاهُ، وَالفوزَ بِثَوَابِهِ؛ فَهَذَا العَمَلُ المَقبُولُ: الَّذِي قَلِيلُهُ كَثِيرٌ، وَغَايَتُهُ أَشرَفُ الغَايَاتِ، وَنَفعُهُ مُستَمِرٌّ دَائِمٌ»(١).

قَالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالقَبُولُ هُنَا يُرَادُ بِهِ: الرِّضَا بِالعَمَلِ، وَالمَدحُ لِعَامِلِهِ، وَالثَّنَاءُ عَلَيهِ فِي المَلَإِ الأَعلَى، وَمُبَاهَاةُ المَلَائِكَةِ»(٢).

وَالعَارِفُونَ كُلُّهُم إِنَّمَا يَطلُبُونَ القَبُولَ - وَهُوَ الرِّضَا -، وَيَخَافُونَ مِن فَوَاتِهِ أَشَدَّ الخَوفِ(٣).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ قَالَتْ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: **«لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُم يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُم، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»**(٤).

وَمَنْ عَلِمَ شِدَّةَ حَاجَتِهِ إِلَى صَافِي الحَسَنَاتِ غَدًا فِي القِيَامَةِ، غَلَبَ عَلَى قَلبِهِ حَذَرُ الرِّيَاءِ وَتَصحِيحُ الإِخلَاصِ بِعَمَلِهِ، حَتَّى يُوَافِيَ يَومَ القِيَامَةِ بِالخَالِصِ المَقبُولِ؛ إِذ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَخلُصُ إِلَى اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِلَّا مَا خَلُصَ مِنهُ، وَلَا يُقبَلُ يَومَ القِيَامَةِ إِلَّا مَا كَانَ صَافِيًا لِوَجهِهِ، لَا تَشُوبُهُ إِرَادَةٌ بِشَيءٍ غَيرِهِ.

قَالَ ابنُ الجَوزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: اعلَمْ أَنَّ الأَعمَالَ ثَلَاثَةٌ: عَمَلٌ خَالِصٌ

---

(١) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ٤٨٨)، للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) «شرح حديث شداد بن أوس» (ص٣٩). (٣) المصدر السابق.

(٤) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٢٨٧).

لِلَّهِ، وَهُوَ مَا لَم يُقصَدْ بِهِ سِوَاهُ، فَهَذَا المَقبُولُ. وَعَمَلٌ لِأَجلِ الخَلقِ، لَولَاهُم مَا عُمِلَ، فَهَذَا المَردُودُ، وَهُوَ المُرَادُ بِقَولِهِ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ: «وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ»[١]. وَعَمَلٌ يَجتَمِعُ فِيهِ قَصدُ الحَقِّ وَالخَلقِ، مِثلَ أَن يُصَلِّيَ قَاصِدًا لِلثَّوَابِ ثُمَّ يُدرِجَ فِي ضِمنِ ذَلِكَ قَصدَ مِدْحَةِ الخَلقِ، وَأَن يَرَوهُ بِعَينِ التَّعَبُّدِ، فَهَذَا المُرَادُ بِالشِّركِ فِي هَذَا الحَدِيثِ، وَهُوَ إِلَى الرَّدِّ أَقرَبُ[٢].

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْأَعْمَالُ أَرْبَعَةٌ: وَاحِدٌ مَقْبُولٌ، وَثَلَاثَةٌ مَرْدُودَةٌ؛ فَالمَقْبُولُ: مَا كَانَ لِلَّهِ خَالِصًا وَلِلسُّنَّةِ مُوَافِقًا، وَالمَرْدُودُ: مَا فُقِدَ مِنْهُ الْوَصْفَانِ، أَوْ أَحَدُهُمَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَمَلَ المَقْبُولَ: هُوَ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَضِيَهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُحِبُّ مَا أَمَرَ بِهِ، وَمَا عُمِلَ لِوَجْهِهِ؛ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّهَا، بَلْ يَمْقُتُهَا، وَيَمْقُتُ أَهْلَهَا»[٣].

وَقَالَ شَيخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَمَلُ الَّذِي يَمحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا وَيُكَفِّرُ بِهِ السَّيِّئَاتِ: هُوَ العَمَلُ المَقبُولُ. وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ مِنَ المُتَّقِينَ... وَالسَّلَفُ وَالأَئِمَّةُ يَقُولُونَ: لَا يَتَقَبَّلُ إِلَّا مِمَّنِ اتَّقَاهُ فِي ذَلِكَ العَمَلِ، فَفَعَلَهُ كَمَا أُمِرَ بِهِ خَالِصًا لِوَجهِ اللهِ تَعَالَى...

فَصَاحِبُ الكَبَائِرِ إِذَا اتَّقَى اللهَ فِي عَمَلٍ مِنَ الأَعمَالِ تَقَبَّلَ اللهُ مِنهُ، وَمَن هُوَ أَفضَلُ مِنهُ إِذَا لَم يَتَّقِ اللهَ فِي عَمَلٍ لَم يَتَقَبَّلهُ مِنهُ، وَإِن تَقَبَّلَ مِنهُ عَمَلًا آخَرَ.

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه - ضمن حديث طويل -.

(٢) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣/ ٥٨٨).

(٣) «إعلام الموقِّعين» (٢/ ١٦٩).

وَإِذَا كَانَ اللهُ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ مِمَّن يَعمَلُ العَمَلَ عَلَى الوَجهِ المَأمُورِ بِهِ، ... فَالمَحوُ وَالتَّكفِيرُ يَقَعُ بِمَا يَتَقَبَّلُ مِنَ الأَعمَالِ. وَأَكثَرُ النَّاسِ يُقَصِّرُونَ فِي الحَسَنَاتِ، حَتَّى فِي نَفسِ صَلَاتِهِم. فَالسَّعِيدُ مِنهُم مَن يُكتَبُ لَهُ نِصفُهَا، وَهُم يَفعَلُونَ السَّيِّئَاتِ كَثِيرًا. فَلِهَذَا يُكَفَّرُ بِمَا يُقبَلُ مِنَ الصَّلَوَاتِ الخَمسِ شَيءٌ، وَبِمَا يُقبَلُ مِنَ الجُمُعَةِ شَيءٌ، وَبِمَا يُقبَلُ مِن صِيَامِ رَمَضَانَ شَيءٌ آخَرُ. وَكَذَلِكَ سَائِرُ الأَعمَالِ، وَلَيسَ كُلُّ حَسَنَةٍ تَمحُو كُلَّ سَيِّئَةٍ، بَلِ المَحوُ يَكُونُ لِلصَّغَائِرِ تَارَةً، وَيَكُونُ لِلكَبَائِرِ تَارَةً بِاعتِبَارِ المُوَازَنَةِ؛ وَالنَّوعُ الوَاحِدُ مِنَ العَمَلِ: قَد يَفعَلُهُ الإِنسَانُ عَلَى وَجهٍ يَكمُلُ فِيهِ إِخلَاصُهُ وَعُبُودِيَّتُهُ لِلَّهِ، فَيَغفِرُ اللهُ لَهُ بِهِ كَبَائِرَ[١].

اللَّهُمَّ اجعَلْ أَعمَالَنَا كُلَّهَا صَالِحَةً، وَاجعَلْهَا لِوَجهِكَ خَالِصَةً، وَلَا تَجعَلْ لِأَحَدٍ فِيهَا شَيئًا.

١١ محبة الله تعالى للمخلصين:

عَنْ سَعدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ، التَّقِيَّ، الغَنِيَّ، الخَفِيَّ**»[٢].

الخَفِيُّ: فَمَعنَاهُ الخَامِلُ المُنقَطِعُ إِلَى العِبَادَةِ، وَالِاشتِغَالِ بِأُمُورِ نَفسِهِ[٣]. لَا يَهتَمُّ أَنْ يَظهَرَ عِندَ النَّاسِ، أَو يُشَارَ إِلَيهِ بِالبَنَانِ، أَو يَتَحَدَّثَ النَّاسُ عَنهُ[٤].

إِنسَانٌ خَفِيٌّ لَا يُحِبُّ الظُّهُورَ، وَلَا يَتَصَدَّرُ لِشَيءٍ، لِأَنَّ أَهَمَّ مَا عِندَهُ:

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢١٦ - ٢١٩). (٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ١٠٠) [طبعة دار الفكر المصوَّرة].
(٤) «شرح رياض الصالحين» (٣/ ٥١١)، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

هُوَ مَحَبَّةُ اللهِ لَهُ، وَرِضَا اللهِ عَنهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»(١).

هَذَا الأَشْعَثُ المَدْفُوعُ بِالأَبوَابِ، خَفِيٌّ مَا يُعْرَفُ، وَلَا يُؤذَنُ لَهُ فَيَدْخُلَ؛ فَالإِنسَانُ الخَفِيُّ الَّذِي لَا يُحِبُّ أَن يَتَظَاهَرَ أَمَامَ النَّاسِ، هَذَا هُوَ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ؛ كُن خَفِيًّا، تَكُنْ عِندَ اللهِ تَعَالَى عَظِيمًا رَفِيعًا(٢).

وَمُعَامَلَةُ العَبدِ رَبَّهُ سِرًّا «مِن أَعظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلَى عَبدِهِ المُؤمِنِ، الَّذِي رَزَقَهُ نَصِيبًا مِن ذَوقِ الإِيمَانِ، فَهُوَ يَعِيشُ بِهِ مَعَ رَبِّهِ عَيشًا طَيِّبًا، وَيَحجِبُهُ عَن خَلقِهِ، حَتَّى لَا يُفسِدُوا عَلَيهِ حَالَهُ مَعَ رَبِّهِ؛ فَهَذِهِ هِيَ الغَنِيمَةُ البَارِدَةُ، فَمَن عَرَفَ قَدرَهَا، وَشَكَرَ عَلَيهَا، فَقَد تَمَّت عَلَيهِ النِّعمَةُ»(٣).

١٢ بُلُوغُ النِّيَّةِ الخَالِصَةِ مَبلَغَ العَمَلِ:

تَأَمَّل ﷻ الأَحَادِيثَ التَّالِيَةَ:

١ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»(٤).

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رحمه الله: «لَيسَ كُلُّ مَعْذُورٍ يُكْتَبُ لَهُ مِثْلُ عَمَلِ الصَّحِيحِ، وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لَهُ إِذَا كَانَ يَقْصِدُ عَمَلَ الصَّحِيحِ، وَلَكِنْ عَجَزَ عَنْهُ؛ فَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَنْ كَانَ عَادَتُهُ الصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، وَالصَّلَاةَ قَائِمًا، ثُمَّ تَرَكَ ذَلِكَ لِمَرَضِهِ؛ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ، وَهُوَ صَحِيحٌ مُقِيمٌ ...

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «شرح بلوغ المرام» (٦/ ٣٠٠)، للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.

(٣) «مجموع رسائل ابن رجب» (٤/ ٤٣٢).

(٤) رواه البخاري (٢٩٩٦).

فَأَمَّا مَنْ لَمْ تَكُنْ عَادَتُهُ الصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، وَلَا الصَّلَاةَ قَائِمًا إِذَا مَرِضَ فَصَلَّى وَحْدَهُ، أَوْ صَلَّى قَاعِدًا، فَهَذَا لَا يُكْتَبُ لَهُ مِثْلُ صَلَاةِ الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ ... وَقَدْ بَيَّنَتْ سَائِرُ النُّصُوصِ أَنَّ تَكْمِيلَ الثَّوَابِ هُوَ لِمَنْ كَانَ يَعْمَلُ العَمَلَ الْفَاضِلَ؛ وَهُوَ صَحِيحٌ مُقِيمٌ، لَا لِكُلِّ أَحَدٍ»(١).

وَقَالَ العَلَّامَةُ السّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَن نَوَى عَمَلًا صَالِحًا، وَحَرَصَ عَلَى فِعلِهِ، وَمَنَعَهُ مَانِعٌ - مِنْ مَرَضٍ، أَو سَفَرٍ أَو عَجزٍ، أَو غَيرِهِمَا -؛ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَاهُ، مِنْ ذَلِكَ العَمَلِ»(٢).

«فَالأَعمَالُ الَّتِي يَعمَلُهَا فِي حَضَرِهِ مِنَ الأَعمَالِ القَاصِرَةِ وَالمُتَعَدِّيَةِ يَجرِي لَهُ أَجرُهَا إِذَا سَافَرَ، وَكَذَلِكَ إِذَا مَرِضَ.

فَيَا لَهَا نِعمَةٌ مَا أَجَلَّهَا؟ وَأَعظَمَهَا؟»(٣).

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللهُ: «فَيَنبَغِي لِلعَاقِلِ فِي حَالِ الصِّحَّةِ أَنْ يَغتَنِمَ الفُرصَةَ، حَتَّى إِذَا مَرِضَ كُتِبَ لَهُ عَمَلُهُ فِي الصِّحَّةِ، وَأَنْ يَحرِصَ مَا دَامَ مُقِيمًا عَلَى كَثْرَةِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، حَتَّى إِذَا سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي الإِقَامَةِ»(٤).

[٢] عَن جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَ يَعُودُ عَبْدَ اللهِ بْنَ ثَابِتٍ، فَوَجَدَهُ قَدْ غُلِبَ عَلَيْهِ، فَصَاحَ بِهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ، فَاسْتَرْجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ... فَقَالَتِ ابْنَتُهُ: وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ شَهِيدًا، فَإِنَّكَ كُنْتَ قَدْ قَضَيْتَ جِهَازَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٢٣٦ - ٢٣٨). (٢) «المجموعة الكاملة» (٣/ ١٠٣).

(٣) «إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب» (ص١١٦).

(٤) «شرح رياض الصالحين» (٢/ ١٩٠)، بتصرُّف يسير.

«إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْقَعَ أَجْرَهُ عَلَى قَدْرِ نِيَّتِهِ...»(١).

٣ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَدَنَا مِنَ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «**إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالمَدِينَةِ؟! قَالَ: «**وَهُمْ بِالمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»(٢).

فَقَد دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ عَلَى: «أَنَّ النَّاوِيَ لِأَعمَالِ البِرِّ، الصَّادِقَ النِّيَّةُ فِيهَا، إِذَا مَنَعَهُ مِن ذَلِكَ عُذرٌ، كَانَ لَهُ مِثلُ أَجرِ المُبَاشِرِ مُضَاعَفًا، كَمَا قَدَّمنَاهُ. وَقَد دَلَّ عَلَيهِ مِن هَذَا الحَدِيثِ: ذِكرُ قَطعِ الوَادِي، وَالمَسِيرِ، فَإِنَّ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إِلَى قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة]؛ وَلَمَّا كَانَ القَاعِدُونَ لِأَجلِ العُذرِ، قَد صَحَّت نِيَّتُهُم فِي مُبَاشَرَةِ كُلِّ مَا بَاشَرَهُ إِخوَانُهُمُ المُجَاهِدُونَ، أَعطَاهُمُ اللهُ تَعَالَى مِثلَ أَجرِ مَن بَاشَرَ»(٣).

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ فَضِيلَةُ النِّيَّةِ فِي الْخَيْرِ، وَأَنَّ مَنْ نَوَى الغَزوَ وَغَيرَهُ مِنَ الطَّاعَاتِ، فَعَرَضَ لَهُ عُذْرٌ مَنَعَهُ، حَصَلَ لَهُ ثَوَابُ نِيَّتِهِ؛ وَأَنَّهُ كُلَّمَا أَكْثَرَ مِنَ التَّأَسُّفِ عَلَى فَوَاتِ ذَلِكَ، وَتَمَنَّى كَونَهُ مَعَ الغُزَاةِ وَنَحوِهِم، كَثُرَ ثَوَابُهُ»(٤).

---

(١) رواه مالك (٦٥٩): ومن طريقه أبو داود (٣١١١)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٩٨).

(٢) رواه البخاري (٤٤٢٣).

(٣) «المفهم» (٣/ ٧٤٥-٧٤٦).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٥٧).

وَقَالَ ابنُ الجَوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: هُؤُلَاءِ قَومٌ صَدَقَتْ نِيَّاتُهُم فِي الخُرُوجِ إِلَى تِلكَ الغُزَاةِ، فَحَبَسَهُمُ القَدَرُ بِالمَرَضِ، فَكَانُوا كَأَنَّهُم غَزَوا؛ وَعَلَى هَذَا، جَمِيعُ أَفعَالِ الخَيرِ مَتَى نَوَاهَا الإِنسَانُ فَمَنَعَهُ القَدَرُ، كُتِبَ لَهُ ثَوَابُ الفِعلِ[١].

وَفِي هَذَا المَعنَى، قَالَ الشَّاعِرُ:

يَا ظَاعِنِينَ إِلَى البَيتِ العَتِيقِ لَقَد ... سِرتُم جُسُومًا وَسِرنَا نَحنُ أَروَاحًا
إِنَّا أَقَمنَا عَلَى عُذرٍ وَعَن قَدَرٍ ... وَمَن أَقَامَ عَلَى عُذرٍ فَقَد رَاحَا[٢]

٤ عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**»[٣].

قَالَ ابنُ الجَوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلَمْ أَنَّ النِّيَّةَ قُطبُ العَمَلِ عَلَيهَا يَدُورُ، وَقَد يُفِيدُ مُجَرَّدُ النِّيَّةِ مِن غَيرِ عَمَلٍ، وَلَا يُفِيدُ عَمَلٌ مِن غَيرِ نِيَّةٍ. وَمَن صَدَقَتْ نِيَّتُهُ فِي طَلَبِ الشَّهَادَةِ، فَكَأَنَّهُ استَسلَمَ لِلقَتلِ، فَلَا يَضُرُّهُ بُعْدُ بَدَنِهِ عَنِ الجِهَادِ لِعُذرٍ، مَعَ صِدقِ نِيَّتِهِ[٤].

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا رَيبَ أَنَّ مَا حَصَلَ لِلْمَقْتُولِ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ، تَزِيدُ كَيفِيَّتُهُ وَصِفَاتُهُ عَلَى مَا حَصَلَ لِنَاوِي ذَلِكَ، إِذَا مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ، وَإِن بَلَغَ مَنزِلَةَ الشَّهِيدِ، فَهَاهُنَا أَجْرَانِ: أَجْرٌ وَقُربٌ؛ فَإِنِ استَوَيَا فِي أَصلِ الأَجرِ، لَكِنَّ الأَعمَالَ الَّتِي قَامَ بِهَا العَامِلُ تَقتَضِي

---

(١) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣/ ١١٢).
(٢) «أضواء البيان» (١/ ٣٩٧) [طبعة دار عالم الفوائد- مكة المكرَّمة].
(٣) رواه مسلم (١٩٠٩).
(٤) «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٢/ ١١٧).

أَثَرًا زَائِدًا وَقُربًا خَاصًّا، وَهُوَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ»[١].

وَقَالَ ابنُ هُبَيرَةَ رَحِمَهُ اللهُ: مَعنَى الحَدِيثِ: أَنَّهُ مَن طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا فِي طَلَبِهَا، لَا يَذكُرُهَا لِيَسمَعَهُ غَيرُهُ فَيَظُنَّ بِهِ الخَيرَ وَلَيسَ بِهِ، وَلَكِن يَسأَلُهَا رَبَّهُ صَادِقًا فِي السُّؤَالِ وَالطَّلَبِ[٢].

وَفِي المُقَابِلِ: «لَرُبَّمَا مَاتَ البَعضُ فِي المَعَارِكِ، وَهُم يُعَذَّبُونَ يَومَ القِيَامَةِ عَلَى عَدَمِ إِخلَاصِهِم؛ فَالأَفضَلُ وَالأَمثَلُ: إِخلَاصُ النِّيَّةِ وَالعَمَلِ لِلَّهِ سُبحَانَهُ»[٣].

٥ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ، وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ؛ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ**»[٤].

فَظَاهِرُ هَذَا الحَدِيثِ: «أَنَّ لَهُ أَجرًا مُكَمَّلًا مُضَاعَفًا؛ لِحُسنِ نِيَّتِهِ، وَصِدقِ تَلَهُّفِهِ وَتَأَسُّفِهِ»[٥].

قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَرءَ مُجَازَى عَلَى مَا نَوَى مِن عَمَلِ الخَيرِ، وَإِن لَم يَعمَلهُ، كَمَا لَو عَمِلَهُ، إِذَا لَم يَحبِسهُ عَنهُ شُغلُ دُنيَا، مُبَاحًا أَو مَكرُوهًا، وَكَانَ المَانِعُ لَهُ عُذرًا مِنَ اللهِ لَا يَنفَكُّ عَنهُ.

---

(١) «عدة الصابرين» (ص٣٠٦).
(٢) «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٥/ ٣٦٩).
(٣) «حصائد الألسن» (ص١٤).
(٤) رواه النسائي (١٧٨٦)، وقال الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢١): «حسن صحيح».
(٥) «الفتح الرباني» (١٩/ ٥).

وَهَذَا تَفَضُّلٌ مِنَ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ المُؤمِنِينَ، يُجَازِيهِم بِمَا وَفَّقَهُم لَهُ إِذَا عَمِلُوهُ؛ وَإِن حَالَ دُونَ العَمَلِ حَائِلٌ، جَازَى صَاحِبَهُ عَلَى النِّيَّةِ فِيهِ»(١)

٦ عَن أَبِي كَبشَةَ الأَنمَارِيِّ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «...**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ؛ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ؛ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ؛ وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**»(٢).

فَالغَنِيُّ العَالِمُ فِي أَعلَى المَنَازِلِ عِندَ اللهِ. «وَجَعَلَ الفَقِيرَ الصَّادِقَ إِذَا نَوَى أَن يَعمَلَ بِعَمَلِهِ، وَقَالَ ذَلِكَ بِلِسَانِهِ ثَانِيًا، وَإِنَّهُ بِنِيَّتِهِ وَقَولِهِ، وَأَجرُهُمَا سَوَاءٌ. فَإِنَّ كُلًّا مِنهُمَا نَوَى خَيرًا وَعَمِلَ مَا يَقدِرُ عَلَيهِ، فَالغَنِيُّ نَوَاهُ وَنَفَّذَهُ بِعِلمِهِ، وَالفَقِيرُ العَالِمُ نَوَاهُ وَنَفَّذَهُ بِلِسَانِهِ، فَاستَوَيَا فِي الأَجرِ مِن هَذِهِ الجِهَةِ، وَلَا يَلزَمُ مِنَ استِوَائِهِمَا فِي أَصلِ الأَجرِ، استِوَاؤُهُمَا فِي كَيفِيَّتِهِ وَتَفَاصِيلِهِ؛ فَإِنَّ الأَجرَ عَلَى العَمَلِ وَالنِّيَّةِ، لَهُ مَزِيَّةٌ عَلَى الأَجرِ عَلَى مُجَرَّدِ النِّيَّةِ الَّتِي قَارَنَهَا القَولُ. وَمَن نَوَى الحَجَّ، وَلَم يَكُن لَهُ مَالٌ يَحُجُّ بِهِ، وَإِن أُثِيبَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ

---

(١) «الاستذكار» (٢/ ٨٠ - ٨١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦).

ثَوَابَ مَن بَاشَرَ أَعمَالَ الحَجِّ مَعَ النِّيَّةِ، لَهُ مَزِيَّةٌ عَلَيهِ»[١].

قَالَ شَيخُ الإِسلَام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَهَذَا التَّسَاوِي مَعَ الْأَجْرِ وَالْوِزْرِ، هُوَ فِي حِكَايَةِ حَالِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ، وَكَانَ صَادِقًا فِيهِ، وَعَلِمَ اللهُ مِنْهُ إِرَادَةً جَازِمَةً، لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا الْفِعْلُ إِلَّا لِفَوَاتِ الْقُدْرَةِ؛ فَلِهَذَا اسْتَوَيَا فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. وَلَيْسَ هَذِهِ الْحَالُ تَحْصُلُ لِكُلِّ مَنْ قَالَ: لَوْ أَنَّ لِي مَا لِفُلَانٍ، لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ»[٢].

فَمَن هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ وَعَزَمَ عَلَيهَا بِدُونِ أَن يَسعَى بِأَسبَابِهَا: كَالرَّجُلِ الَّذِي أَخبَرَ عَنهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**»؛ وَكَانَ فُلَانٌ يُسرِفُ عَلَى نَفسِهِ فِي تَصرِيفِ مَالِهِ، فَهَذَا يُكتَبُ عَلَيهِ سَيِّئَةٌ، لَكِن لَيسَ كَعَامِلِ السَّيِّئَةِ، بَل يُكتَبُ وِزرُ نِيَّتِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ بِلَفظِهِ: «**فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**».

وَمَن هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ وَسَعَى فِي الحُصُولِ عَلَيهَا وَلَكِن عَجِزَ، فَهَذَا يُكتَبُ عَلَيهِ وِزرُ السَّيِّئَةِ كَامِلًا، دَلِيلُ ذَلِكَ: قَولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ - أَي: لِمَاذَا يَكُونُ فِي النَّارِ؟ - قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[٣]. فَكَتَبَ عَلَيهِ عُقُوبَةَ القَاتِلِ.

وَمِثَالُهُ: لَو أَن إِنسَانًا تَهَيَّأَ لِيَسرِقَ، وَأَتَى بِالسُّلَّمِ لِيَتَسَلَّقَ، وَلَكِن عَجِزَ؛ فَهَذَا يُكتَبُ عَلَيهِ وِزرُ السَّارِقِ، لِأَنَّهُ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ، وَسَعَى

---

(١) «عدة الصابرين» (ص٣٠٦). (٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٣٣ - ٧٣٤).

(٣) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

بِأَسبَابِهَا، وَلَكِن عَجِزَ[١].

فَعَلَى قَدرِ النِّيَّةِ يُعطَى الإِنسَانُ، وَعَلَى قَدرِ النِّيَّةِ يَكُونُ الأَثَرُ فِي قَولِهِ أَو فِعلِهِ، وَعَلَى قَدرِ النِّيَّةِ يَكُونُ الثَّوَابُ، وَيَحصُلُ «لِلعَبدِ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالنَّتَائِجِ: بِحَسَبِ نِيَّتِهِ»[٢].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ المُصِرَّ عَلَى المَعصِيَةِ فَاسِقٌ مُؤَاخَذٌ وَإِن لَم يَفعَلهَا، وَبِأَنَّ أَعمَالَ القُلُوبِ فِي الثَّوَابِ وَالعِقَابِ كَأَعمَالِ الجَوَارِحِ، وَلِهَذَا يُثَابُ عَلَى الحُبِّ وَالبُغضِ، وَالمُوَالَاةِ وَالمُعَادَاةِ فِي اللهِ، وَعَلَى التَّوَكُّلِ وَالرِّضَى، وَالعَزمِ عَلَى الطَّاعَةِ؛ وَيُعَاقَبُ عَلَى الكِبرِ وَالحَسَدِ، وَالعُجبِ وَالشَّكِّ، وَالرِّيَاءِ وَظَنِّ السُّوءِ بِالأَبرِيَاءِ»[٣].

فَالنِّيَّةُ هِيَ كُلُّ شَيءٍ، نَسأَلُ اللهَ أَن يُخلِصَ لَنَا وَلَكُمُ النِّيَّةَ[٤].

١٣ الإِخلَاصُ سَبَبُ الانتِصَارِ:

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا: بِدَعْوَتِهِمْ، وَصَلَاتِهِمْ، وَإِخلَاصِهِمْ**»[٥].

الضَّمَانُ الأَوَّلُ لِلفَوزِ بِتَأيِيدِ اللهِ تَعَالَى لَنَا فِي تَحقِيقِ النَّصرِ: هُوَ الإِخلَاصُ، وَإِلَّا فَسَيَكُونُ مَصِيرُنَا فِي مَعَارِكِنَا مَعَ أَعدَائِنَا الهَزِيمَةَ؛ انظُرُوا إِلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: كَيفَ فَتَحَ اللهُ تَعَالَى لَهُمُ البِلَادَ؟! حَتَّى بَلَغُوا

---

(١) انظر «شرح الأربعين النووية» (ص٣٧٠ - ٣٧١)، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ٥٠٩)، للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) «زاد المعاد» (٥/ ٢٠٣).

(٤) «شرح مقدمة المجموع» (ص٣٧).

(٥) رواه النسائي(٣١٧٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦).

فِي سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ: حُدُودَ الصِّينِ شَرقًا، وَالأَندَلُسَ غَربًا، وَالقِسطَنطِينِيَّةَ شَمَالًا، مَعَ أَنَّهُم لَم يَكُن لَهُم مِن عِدَّةِ الحُرُوبِ وَعَتَادِهَا مَا كَانَ لِلفُرسِ وَالـرُّومِ، وَلَـم تَكُنِ القُوَّةُ بَينَهُم وَبَينَ عَدُوِّهِم مُتَكَافِئَةً؛ فَعَدُوُّهُم كَانَ يَملِكُ أَضعَافَ مَا يَملِكُونَ مِن قُوَّةٍ بَشَرِيَّةٍ وَحَربِيَّةٍ، وَلَكِن لِأَنَّهُم أَسَّسُوا حَرَكَتَهُم فِي نَشرِ الإِسلَامِ عَلَى الإِخلَاصِ، وَأَقَامُوهَا عَلَى فِقهٍ فِي الإِعدَادِ وَالتَّوَكُّلِ، تَحَقَّقَ عَلَى أَيدِيهِمُ النَّصرُ المَنشُودُ.

فَإِن لَم يَكُنِ الإِخلَاصُ، فَالهَزِيمَةُ وَالدَّمَارُ.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا خَلَصَتْ نِيَّتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ قَصْدُهُ وَهَمُّهُ وَعَمَلُهُ لِوَجْهِهِ سُبحَانَهُ، كَانَ اللهُ مَعَهُ؛ فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ، وَرَأْسُ التَّقْوَى وَالْإِحْسَانِ: خُلُوصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ.

وَاللَّهُ سُبحَانَهُ لَا غَالِبَ لَهُ: فَمَنْ كَانَ مَعَهُ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْلِبُهُ أَوْ يَنَالُهُ بِسُوءٍ؟! فَإِنْ كَانَ اللهُ مَعَ الْعَبْدِ، فَمَنْ يَخَافُ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ، فَمَنْ يَرْجُو؟ وَبِمَنْ يَثِقُ؟ وَمَنْ يَنْصُرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؟

فَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ بِالْحَقِّ عَلَى غَيْرِهِ، وَعَلَى نَفْسِهِ أَوَّلًا، وَكَانَ قِيَامُهُ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ، لَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ؛ وَلَوْ كَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، لَكَفَاهُ اللهُ مُؤْنَتَهَا، وَجَعَلَ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا.

وَإِنَّمَا يُؤْتَى الْعَبْدُ مِنْ تَفْرِيطِهِ وَتَقْصِيرِهِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، أَوْ فِي اثْنَيْنِ مِنْهَا، أَوْ فِي وَاحِدٍ؛ فَمَنْ كَانَ قِيَامُهُ فِي بَاطِلٍ لَمْ يُنْصَرْ، وَإِنْ نُصِرَ نَصْرًا عَارِضًا، فَلَا عَاقِبَةَ لَهُ، وَهُوَ مَذْمُومٌ مَخْذُولٌ؛ وَإِنْ قَامَ فِي حَقٍّ،

لَكِنْ لَمْ يَقُمْ فِيهِ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا قَامَ لِطَلَبِ المَحْمَدَةِ وَالشُّكُورِ وَالْجَزَاءِ مِنَ الْخَلْقِ، أَوِ التَّوَصُّلِ إِلَى غَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ، كَانَ هُوَ المَقْصُودَ أَوَّلًا، وَالْقِيَامُ فِي الْحَقِّ وَسِيلَةٌ إِلَيْهِ، فَهَذَا لَمْ تُضْمَنْ لَهُ النُّصْرَةُ؛ فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا ضَمِنَ النُّصْرَةَ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، وَقَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، لَا لِمَنْ كَانَ قِيَامُهُ لِنَفْسِهِ وَلِهَوَاهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المُتَّقِينَ، وَلَا مِنَ المُحْسِنِينَ، وَإِنْ نُصِرَ فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَنْصُرُ إِلَّا الْحَقَّ.

وَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ، فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ مَنْصُورٌ أَبَدًا؛ فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مُحِقًّا، كَانَ مَنْصُورًا لَهُ الْعَاقِبَةُ، وَإِنْ كَانَ مُبْطِلًا، لَمْ يَكُنْ لَهُ عَاقِبَةٌ؛ وَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ فِي الْحَقِّ لِلَّهِ، وَلَكِنْ قَامَ بِنَفْسِهِ وَقُوَّتِهِ، وَلَمْ يَقُمْ بِاللَّهِ مُسْتَعِينًا بِهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مُفَوِّضًا إِلَيْهِ، بَرِيًّا مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ، فَلَهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَضَعْفِ النُّصْرَةِ، بِحَسَبِ مَا قَامَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ»[١].

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «فَمَنْ خَلُصَت نِيَّتُهُ فِي الحَقِّ، وَلَو عَلَى نَفسِهِ، كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ»[٢].

إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَكْفِي قِيَامُهُ فِي الْحَقِّ لِلَّهِ إِذَا كَانَ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى يَكُونَ أَوَّلَ قَائِمٍ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَحِينَئِذٍ يُقْبَلُ قِيَامُهُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يُقْبَلُ الْحَقُّ مِمَّنْ أَهْمَلَ الْقِيَامَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ؟![٣]

---

(١) «إعلام الموقِّعين» (٢/ ١٦٥- ١٦٦).

(٢) قطعة من أثر: رواه الدارقطني (٤/ ٢٠٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «إرواء الغليل» (٢٦١٩).

(٣) «إعلام الموقِّعين» (٢/ ١٦٨).

وَمَن نَظَرَ فِي سِرِّ الإِخلَاصِ، عَلِمَ: أَنَّ مَن لَم يُخلِص، لَم يُؤتَ إِلَّا مِن قِبَلِ نَفسِهِ.

١٤ قلب المباحات إلى طاعات:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ؛ قَالَ: «**أَوَ لَيسَ قَد جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟! إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهلِيلَةٍ صَدَقَةٌ؛ وَأَمْرٌ بِالمَعرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟! قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرًا**»(١).

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله: «وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ، بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ؛ فَالجِمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ، وَمُعَاشَرَتَهَا بِالمَعرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، أَو طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ، أَو إِعفَافَ نَفسِهِ أَو إِعفَافَ الزَّوْجَةِ، وَمَنعَهُمَا جَمِيعًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ، أَوِ الفِكرِ فِيهِ، أَوِ الهَمِّ بِهِ، أَو غَيرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ»(٢).

وَقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رحمه الله: «فَبَيَّنَ فِي الحَدِيثِ: أَنَّ التَّمَتُّعَ بِهَذِهِ الشَّهَوَاتِ عَلَى وَجهِ الحَمدِ لِلَّهِ وَالِاعتِرَافِ بِفَضلِهِ، وَقَصدِ الِانكِفَافِ بِهَا

---

(١) رواه مسلم (١٠٠٦).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ٩٢).

عَنِ الحَرَامِ: أَجرٌ وَثَوَابٌ عِندَ اللهِ؛ فَلِلَّهِ الحَمدُ عَلَى مِنَّتِهِ»(١).

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا، فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ**»(٢).

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ**»(٣).

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ «دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّفَقَةَ عَلَى العِيَالِ وَإِن كَانَت مِن أَفضَلِ الطَّاعَاتِ، فَإِنَّمَا تَكُونُ طَاعَةً إِذَا نَوَى بِهَا وَجهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَذَا نَفَقَتُهُ عَلَى نَفسِهِ وَزَوجَتِهِ وَدَابَّتِهِ وَغَيرِ ذَلِكَ، حَتَّى سَعيُهُ فِي اكتِسَابِ دُنيَاهُ وَمُعَامَلَاتُهُ إِذَا نَوَى بِذَلِكَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ تَعَالَى مِن أَدَاءِ مَا أَوجَبَ اللهُ عَلَيهِ، وَأَن يَستَعِينَ بِنَفَقَتِهِ عَلَى نَفسِهِ وَغَيرِهَا مِنَ النَّفَقَاتِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ سُبحَانَهُ.

وَقَولُهُ ﷺ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ**»، بَيَانٌ لِهَذِهِ القَاعِدَةِ المُهِمَّةِ، بِأَنَّ مَا أُرِيدَ بِهِ وَجهُ اللهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ ثَبَتَ فِيهِ الأَجرُ فِي الآخِرَةِ، وَإِن حَصَلَ لِفَاعِلِهِ حَظُّ نَفسٍ، فَإِذَا كَانَ الَّذِي هُوَ مِن حُظُوظِ النَّفسِ بِالمَحَلِّ الَّذِي ذَكَرنَاهُ إِذَا أُرِيدَ بِهِ وَجهُ اللهِ، فَكَيفَ الظَّنُّ بِغَيرِهِ وَهُوَ مُبَاعِدٌ لِحُظُوظِ النَّفسِ، وَتَمثِيلُهُ بِاللُّقمَةِ مُبَالَغَةٌ فِي تَحقِيقِ هَذِهِ القَاعِدَةِ النَّافِعَةِ»(٤).

فَمَن فَعَلَ مِنَ المُبَاحَاتِ مَا يَستَعِينُ بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَقَصَدَ الِاستِعَانَةَ بِهَا عَلَى الطَّاعَةِ، فَهَذَا سَبِيلُ المُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ.

---

(١) «مجموع الفوائد» (ص٢٣٥-٢٣٦).
(٢) رواه البخاري (٥٥)، ومسلم (١٠٠٢).
(٣) رواه البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨).
(٤) «فتح الحميد في شرح التوحيد» (ص٣/ ١٥٤٥)، بتصرُّف يسير.

«فَطُوبَى لِأَهلِ الهِمَمِ العَالِيَةِ! لَقَدِ انقَلَبَت عَادَاتُهُم بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ عِبَادَاتٍ. وَيَا وَيحَ أَهلِ الجَهلِ وَالهِمَمِ الدَّنِيَّةِ! لَقَد كَادَت عِبَادَاتُهُم - لِضَعفِ النِّيَّةِ -، تَكُونُ عَادَاتٍ»(١).

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلَم أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ شَيئًا مِنَ الطَّاعَاتِ، وَإِن قَلَّ: أَن يُحضِرَ النِّيَّةَ، وَهُوَ أَن يَقصِدَ بِعَمَلِهِ رِضَا اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَكُونَ نِيَّتُهُ حَالَ العَمَلِ؛ وَيَدخُلُ فِي هَذَا جَمِيعُ العِبَادَاتِ: مِنَ الصَّلَاةِ، وَالصَّومِ، وَالوُضُوءِ، وَالتَّيَمُّمِ، وَالِاعتِكَافِ، وَالحَجِّ، وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ، وَقَضَاءِ الحَوَائِجِ، وَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَابتِدَاءِ السَّلَامِ وَرَدِّهِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِنكَارِ الْمُنْكَرِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِجَابَةِ الدَّعْوَةِ، وَحُضُورِ مَجَالِسِ العِلمِ وَالأَذكَارِ، وَزِيَارَةِ الأَخيَارِ، وَالنَّفَقَةِ عَلَى الأَهلِ وَالضَّيفِ، وَإِكرَامِ أَهلِ الوُدِّ وَذَوِي الأَرحَامِ، وَمُذَاكَرَةِ العِلمِ، وَالْمُنَاظَرَةِ فِيهِ، وَتَكرَارِهِ وَتَدرِيسِهِ، وَتَعَلُّمِهِ وَمُطَالَعَتِهِ، وَكِتَابَتِهِ وَتَصنِيفِهِ، وَالفَتَاوَى؛ وَكَذَلِكَ مَا أَشبَهَ هَذِهِ الأَعمَالَ، حَتَّى يَنْبَغِي لَهُ إِذَا أَكَلَ أَو شَرِبَ أَو نَامَ، يَقصِدُ بِذَلِكَ التَّقَوِّي عَلَى طَاعَةِ اللهِ، أَو رَاحَةَ البَدَنِ لِلتَّنَشُّطِ لِلطَّاعَةِ؛ وَكَذَلِكَ إِذَا أَرَادَ جِمَاعَ زَوجَتِهِ، يَقصِدُ إِيصَالَهَا حَقَّهَا وَتَحصِيلَ وَلَدٍ صَالِحٍ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى، وَإِعفَافَ نَفسِهِ، وَصِيَانَتَهَا مِنَ التَّطَلُّعِ إِلَى حَرَامٍ وَالفِكرِ فِيهِ؛ فَمَن حُرِمَ النِّيَّةَ فِي هَذِهِ الأَعمَالِ، فَقَد حُرِمَ خَيرًا عَظِيمًا كَثِيرًا، وَمَن وُفِّقَ لَهَا، فَقَد أُعطِيَ فَضلًا جَسِيمًا؛ فَنَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ: التَّوفِيقَ لِذَلِكَ، وَسَائِرِ وُجُوهِ الخَيرِ»(٢).

---

(١) «المجموعة الكاملة» (٦/ ٨٣).

(٢) «بستان العارفين» (ص ٧٠ - ٧١).

فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا وَعُلِمَ، تَحَصَّلَ مِنهُ: أَنَّ أَعظَمَ النَّاسِ مَنزِلَةً، وَأَكثَرَهُم خَيرًا وَبَرَكَةً: الوَاقِفُ مَعَ نِيَّتِهِ فِي حَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ، وَبِهَذَا المَعنَى: وَقَعَ الفَرقُ بَينَنَا وَبَينَ سَلَفِنَا، وَخِيَارِ مَن تَقَدَّمَنَا رِضوَانُ اللهِ عَلَيهِم، لِتَحسِينِ نِيَّاتِهِم وَتَحرِيرِهَا؛ فَكَانَت حَرَكَاتُهُم، وَسَكَنَاتُهُم كُلُّهَا عِبَادَةً[1].

١٥ مَغفِرَةُ الذُّنُوبِ:

إِذَا تَمَكَّنَ الإِخلَاصُ مِن عَمَلٍ، كَانَ سَبَبًا لِمَغفِرَةِ ذَنبِ صَاحِبِهِ وَمُضَاعَفَةِ أَجرِهِ، حَتَّى لَو كَانَتِ الطَّاعَةُ فِي ظَاهِرِهَا يَسِيرَةً أَو قَلِيلَةً؛ يَقُولُ ابنُ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ: رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُكَثِّرُهُ النِّيَّةُ، وَرُبَّ عَمَلٍ كَثِيرٍ تُصَغِّرُهُ النِّيَّةُ[2].

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**»[3].

فَهَذِهِ البَغِيُّ لَم تُرَائِي بِعَمَلِهَا وَغَرَّرَت بِنَفسِهَا فِي نُزُولِ البِئرِ، وَمَلَأَتِ المَاءَ فِي خُفِّهَا، وَلَم تَعبَأ بِتَعَرُّضِهَا لِلتَّلَفِ، وَحَمَلَت خُفَّهَا بِفِيهَا وَهُوَ مَلآنُ، حَتَّى أَمكَنَهَا الرُّقِيَّ مِنَ البِئرِ؛ ثُمَّ تَوَاضَعَت لِهَذَا المَخلُوقِ الَّذِي جَرَت عَادَةُ النَّاسِ بِضَربِهِ، فَأَمسَكَت لَهُ الخُفَّ بِيَدِهَا حَتَّى شَرِبَ، مِن غَيرِ أَن تَرجُوَ مِنهُ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، فَغُفِرَ لَهَا؛ «لِمَا حَصَلَ فِي قَلبِهَا: مِن حُسنِ النِّيَّةِ وَالرَّحمَةِ، إِذ ذَاكَ»[4] وَإِلَّا «فَلَيسَ كُلُّ

---

(١) «المدخل» (١/ ١/ ١٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٠).
(٣) رواه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٣٥).

بَغِيٌّ سَقَت كَلبًا، يُغفَرُ لَهَا»(١).

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَذَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»(٢).

قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ رحمه الله: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ مِنَ الفِقهِ: أَنَّ نَزعَ الأَذَى مِنَ الطُّرُقِ مِن أَعمَالِ البِرِّ، وَأَنَّ أَعمَالَ البِرِّ تُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ وَتُوجِبُ الغُفرَانَ وَالحَسَنَاتِ، وَلَا يَنبَغِي لِلعَاقِلِ المُؤمِنِ أَن يَحتَقِرَ شَيئًا مِن أَعمَالِ البِرِّ، فَرُبَّمَا غُفِرَ لَهُ بِأَقَلِّهَا؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا فِي هَذَا الحَدِيثِ مِن أَنَّ اللهَ شَكَرَ لَهُ، إِذ نَزَعَ غُصنَ الشَّوكِ عَنِ الطَّرِيقِ، فَغَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ؟! قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة].

وقَالَ الحَكِيمُ:

وَمَتَى تَفعَلِ الكَثِيرَ مِنَ الخَيـ ـرِ إِذَا كُنتَ تَارِكًا لِأَقَلِّهِ(٣)

فَهَذَا «الَّذِي نَحَّى غُصنَ الشَّوكِ عَنِ الطَّرِيقِ، فَعَلَهُ إِذ ذَاكَ بِإِيمَانٍ خَالِصٍ، وَإِخْلَاصٍ قَائِمٍ بِقَلبِهِ، فَغُفِرَ لَهُ بِذَلِكَ. فَإِنَّ الأَعمَالَ تَتَفَاضَلُ: بِتَفَاضُلِ مَا فِي القُلُوبِ مِنَ الإِيمَانِ وَالإِخلَاصِ؛ وَإِنَّ الرَّجُلَينِ لَيَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَينَ صَلَاتَيهِمَا كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ. وَلَيسَ كُلُّ مَن نَحَّى غُصنَ شَوكٍ عَنِ الطَّرِيقِ، يُغفَرُ لَهُ»(٤).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله: «الأَعمَالُ تَتَفَاضَلُ عِندَ اللهِ بِتَفَاضُلِ مَا

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢٢١).

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٢)، ومسلم (١٩١٤) «٣٣- كتاب الإمارة، و٤٥- كتاب البر والصلة والآداب».

(٣) «التمهيد» (٢٢/ ١٢).

(٤) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢٢١ - ٢٢٢).

فِي القُلُوبِ، لَا بِكَثْرَتِهَا وَصُوَرِهَا، بَل بِقُوَّةِ الدَّاعِي، وَصِدقِ الفَاعِلِ وَإِخلَاصِهِ، وَإِيثَارِهِ اللهَ عَلَى نَفسِهِ؛ فَأَينَ صَدَقَةُ مَن آثَرَ اللهَ عَلَى نَفسِهِ بِرَغِيفٍ هُوَ قُوتُهُ، إِلَى صَدَقَةِ مَن أَخرَجَ مِئَةَ أَلفِ دِرهَمٍ مِن بَعضِ مَالِهِ، غَيضًا مِن فَيضٍ؟! فَرَغِيفُ هَذَا دِرهَمُهُ فِي الْمِيزَانِ، أَثقَلُ مِنْ مِئَةِ أَلفِ هَذَا. وَاللَّهُ المُستَعَانُ»[١].

وَقَالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيسَتِ الفَضَائِلُ بِكَثرَةِ الأَعمَالِ البَدَنِيَّةِ، لَكِن بِكَونِهَا خَالِصَةً لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، صَوَابًا عَلَى مُتَابَعَةِ السُّنَّةِ، وَبِكَثرَةِ مَعَارِفِ القُلُوبِ وَأَعمَالِهَا»[٢].

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ جُزَيٍّ الكَلبِيُّ (ت ٧٤١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالقَلِيلُ مَعَ الإِخلَاصِ كَثِيرٌ، وَالكَثِيرُ دُونَ الإِخلَاصِ قَلِيلٌ[٣].

وَقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القَلِيلُ مِنَ العَمَلِ مَعَ الإِخلَاصِ الكَامِلِ، يُرَجَّحُ بِالكَثِيرِ الَّذِي لَم يَصِل إِلَى مَرتَبَتِهِ فِي قُوَّةِ الإِخلَاصِ»[٤].

فَمَن عَامَلَ اللهَ بِصِدقٍ وَإِخلَاصٍ، فَإِنَّهُ «لَا يَخَافُ عَلَى قَلِيلِ عَمَلِهِ، إِذَا خَلَّصَهُ لِلَّهِ مِنَ الآفَاتِ كُلِّهَا، أَن لَا يُنَمِّيَهُ اللهُ لَهُ وَيُكَثِّرَهُ؛ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي زَمَانٍ كَثُرَت فِيهِ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ، فَعَمَلُهُ عِندَ اللهِ كَثِيرٌ»[٥].

١٦ تنقية القلب من الغل:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا**

---

(١) «عدة الصابرين» (ص٢٢١). (٢) «المحجة في سير الدلجة» (ص٥٢).
(٣) «بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار» (ص٢٦٧).
(٤) «المجموعة الكاملة» (٧/ ٣٥).
(٥) «المدخل» (٢/ ١/ ٧٢)، لابن الحاج رَحِمَهُ اللَّهُ.

سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ؛ ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ المُسلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ؛ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[١].

فَقَد دَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّضرَةِ - وَهِيَ البَهجَةُ وَنَضَارَةُ الوَجهِ وَتَحسِينُهُ - «لِمَن حَفِظَ مَقَالَتَهُ هَذِهِ، فَوَعَاهَا ثُمَّ أَدَّاهَا تَأكِيدًا مِنهُ فِي حِفظِهَا وَتَبلِيغِهَا، وَهِيَ قَولُهُ: «ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ»[٢].

أَي: لَا يَحمِلُ الغِلَّ، وَلَا يَبقَى فِيهِ مَعَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، فَإِنَّها تَنفِي الغِلَّ وَالغِشَّ، وَفَسَادَ القَلبِ وَسَخَائِمَهُ.

فَالمُخلِصُ لِلَّهِ إِخلَاصُهُ يَمنَعُ غِلَّ قَلبِهِ وَيُخرِجُهُ وَيُزِيلُهُ جُملَةً، لِأَنَّهُ قَدِ انصَرَفَت دَوَاعِي قَلبِهِ وَإِرَادَتِهِ إِلَى مَرضَاةِ رَبِّهِ، فَلَم يَبقَ فِيهِ مَوضِعٌ لِلغِلِّ وَالغِشِّ[٣].

قَالَ ابنُ الأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالمَعنَى: أَن هَذِهِ الخِلَالَ المَذكُورَةَ فِي الحَدِيثِ مِنَ الإِخلَاصِ، وَالنَّصِيحَةِ، وَاللُّزُوم، يُستَصلَحُ بِهَا القُلُوبُ، فَمَن تَمسَّكَ بِهَا، طَهُرَ قَلبُهُ مِنَ الدَّغَلِ وَالفَسَادِ[٤].

١٧ تفريج الكربات:

إِنَّ إِخلَاصَ النِّيَّةِ وَصِدقَ العَبدِ فِي الِالتِجَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى: سَبَبٌ لِلنَّجَاةِ مِن عَذَابِ الدُّنيَا وَمَصَائِبِهَا وَتَفرِيجِ كُرَبِهَا، وَهَذَا بَيِّنٌ فِي حَدِيثِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).
(٢) «التمهيد» (٢١/ ٢٧٦). (٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٧).
(٤) «الشافي في شرح مسند الشافعي» (٥/ ٥٥٨).

الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ آوَاهُمُ المَبِيتُ إِلَى الغَارِ: «**فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنجِيكُم مِن هَذِهِ الصَّخرَةِ، إِلَّا أَن تَدعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعمَالِكُم**»؛ فَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنهُم، بَعدَ أَن يَذكُرَ عَمَلًا صَالِحًا قَامَ بِهِ، يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ! فَإِن كُنتُ فَعَلتُ ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجهِكَ، فَافرُج عَنَّا مَا نَحنُ فِيهِ! فَانفَرَجَتِ الصَّخرَةُ، فَخَرَجُوا يَمشُونَ**»[(١)].

فَدَعَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنهُم بِالعَمَلِ الَّذِي بَرَزَ بِهِ عَلَى غَيرِهِ: هَذَا بِبِرِّهِ الكَامِلِ بِوَالِدَيهِ، وَهَذَا بِعِفَّتِهِ العَظِيمَةِ الَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا، وَهَذَا بِأَمَانَتِهِ وَإِحسَانِهِ الكَثِيرِ الَّذِي لَا مِثلَ لَهُ. وَمَن تَأَمَّلَ فِي أَحوَالِ الخَلقِ، رَأَى مِن هَذَا البَابِ عَجَائِبَ، وَذَلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ: بِالأَسبَابِ الَّتِي يَخُصُّهُ بِهَا، وَيُقَوِّيهِ عَلَيهَا، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[(٢)].

وَقَالَ بَعضُهُم:

مَتَى صَدَقَ العَبدُ الإِلَـهَ رَأَى لَهُ ... مِنَ الضِّيقِ وَالضَّنكِ الأَلِيمَينِ مَخرَجَا

كَأَصحَابِ هَذَا الغَارِ أَصبَحَ مِنهُمُ ... أَخُو الأَيدِ مِمَّا قَد تَغَشَّاهُ مَخرَجَا

وَقَالَ اصدُقُوا رَبَّ السَّمَاءِ فَصِدقُكُمُ ... يَعُودُبِكُم مِن ضِيقِ ذَا السَّجنِ مَخرَجَا

فَنَادَوا بِأَسرَارٍ لَهَا الصِّدقُ شَاهِدٌ ... فَرَاحُوا فِرَاحًا بِالسَّلَامَةِ وَالنَّجَا[(٣)]

فَلَا تَطمَعَنَّ فِي الخَلَاصِ، مَعَ عَدَمِ الإِخلَاصِ؛ فَمَا اهتَمَّ بِالخَلَاصِ، إِلَّا أَهلُ الإِخلَاصِ.

نَجَا المُخلِصُونَ يَومَ القِيَامَةِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ المُرَاؤُونَ.

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) «مجموع الفوائد» (ص٦٠).

(٣) «الازدهار» (ص٨٦)، للحافظ السيوطي رحمه الله.

١٨ عُلُوُّ الهِمَّةِ:

فَلَا مَثِيلَ لِلإِخْلَاصِ فِي رَفعِ هِمَّةِ الإِنسَانِ، فَالَّذِي يَطلُبُ رِضَا اللهِ ﷻ، لَن تَقِفَ بِهِ هِمَّتُهُ عِندَ هَدَفٍ دُنيَوِيٍّ: مِن مَالٍ وَشُهرَةٍ وَمَكَانَةٍ، وَلَن تَعُوقَهُ عَقَبَاتٌ، لِأَنَّهُ يَنظُرُ إِلَى أَبعَدَ مِنَ الدُّنيَا، فَهُوَ يَرجُو رِضَا اللهِ ﷻ عَنهُ، وَيَطمَعُ فِي الثَّوَابِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَنقَطِعُ فِي الآخِرَةِ، وَرَبَطَ آمَالَ نَفسِهِ بِرِضَا اللهِ ﷻ وَنَعِيمِهِ المُقِيمِ، فَالإِخلَاصُ هُوَ الَّذِي يَرتَفِعُ بِالهِمَمِ دُونَ حُدُودٍ.

المُخلِصُ «فِي سَفَرٍ دَائِمٍ بِالقَلْبِ إِلَى اللهِ، لِيَحصَلَ لَهُ وَيَفُوزَ بِهِ، فَإِنَّهُ طَالِبٌ لِرَبِّهِ تَعَالَى طَلَبًا تَامًّا بِكُلِّ مَعنًى وَاعتِبَارٍ: فِي عَمَلِهِ، وَعِبَادَتِهِ، وَمُنَاجَاتِهِ، وَنَومِهِ، وَيَقَظَتِهِ، وَحَرَكَتِهِ، وَسُكُونِهِ، وَعُزلَتِهِ، وَخِلطَتِهِ، وَسَائِرِ أَحوَالِهِ؛ فَقَدِ انصَبَغَ قَلبُهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، أَيَّمَا صِبغَةٍ»[1].

وَيَنبَغِي أَن لَا يَتَوَقَّفَ المُخلِصُ فِي سَيرِهِ؛ «بَل يَسِيرُ وَلَو وَحِيدًا غَرِيبًا، فَانفِرَادُ العَبدِ فِي طَرِيقِ طَلَبِهِ: دَلِيلٌ عَلَى صِدقِ المَحَبَّةِ»[2].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «المَطلَبُ الأَعلَى مَوقُوفٌ حُصُولُهُ عَلَى هِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَنِيَّةٍ صَحِيحَةٍ، فَمَن فَقَدَهُمَا تَعَذَّرَ عَلَيهِ الوُصُولُ إِلَيهِ.

فَإِنَّ الهِمَّةَ إِذَا كَانَت عَالِيَةً تَعَلَّقَت بِهِ وَحدَهُ دُونَ غَيرِهِ، وَإِذَا كَانَتِ النِّيَّةُ صَحِيحَةً سَلَكَ العَبدُ الطَّرِيقَ المُوصِلَةَ إِلَيهِ، فَالنِّيَّةُ تُفرِدُ لَهُ الطَّرِيقَ، وَالهِمَّةُ تُفرِدُ لَهُ المَطلُوبَ، فَإِذَا تَوَحَّدَ مَطلُوبُهُ وَالطَّرِيقُ المُوصِلَةُ إِلَيهِ،

---

(١) «تهذيب المدارج» (٢/ ٨٠٥).
(٢) «الرسالة التبوكية» (ص٢٢٤).

كَانَ الوُصُولُ غَايَتَهُ»[١].

فَالكَيِّسُ يَقطَعُ مِنَ المَسَافَةِ - بِصِحَّةِ العَزِيمَةِ وَعُلُوِّ الهِمَّةِ وَتَجرِيدِ القَصدِ، وَصِحَّةِ النِّيَّةِ مَعَ العَمَلِ القَلِيلِ - أَضعَافَ أَضعَافِ مَا يَقطَعُهُ الفَارِغُ مِن ذَلِكَ، مَعَ التَّعَبِ الكَثِيرِ وَالسَّفَرِ الشَّاقِّ؛ فَإِنَّ العَزِيمَةَ وَالمَحَبَّةَ تُذهِبُ المَشَقَّةَ وَتُطَيِّبُ السَّيرَ.

وَالتَّقَدُّمُ وَالسَّبقُ إِلَى اللهِ سُبحَانَهُ؛ إِنَّمَا هُوَ بِالهِمَمِ وَصِدقِ الرَّغبَةِ وَالعَزِيمَةِ، فَيَتَقَدَّمُ صَاحِبُ الهِمَّةِ - مَعَ سُكُونِهِ - صَاحِبَ العَمَلِ الكَثِيرِ بِمَرَاحِلَ[٢].

١٩ الحفظ من الشيطان:

إِنَّ الخَلَاصَ كُلَّ الخَلَاصِ مِنَ الشَّيطَانِ، لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالإِخلَاصِ. فاجْعَلِ الإِخْلَاصَ نُصْبَ عَينَيكَ.

وَلِهَذَا «لَمَّا عَلِمَ إِبلِيسُ: أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُ عَلَى أَهلِ الإِخلَاصِ، استَثنَاهُم مِن شِرْطَتِهِ الَّتِي اشتَرَطَهَا لِلغِوَايَةِ وَالإِهلَاكِ، فَقَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر]»[٣].

فَقَد أَقسَمَ عَدُوُّ اللهِ أَنَّهُ لَيُغوِيَنَّ بَنِي آدَمَ أَجمَعِينَ، إِلَّا المُخلِصِينَ مِنهُم، وَأَخبَرَ تَعَالَى أَنَّ المُخلِصِينَ لَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيهِم، وَالمُخلِصُونَ هُمُ الَّذِينَ أَخلَصُوا العِبَادَةَ وَالمَحَبَّةَ، وَالإِجلَالَ وَالطَّاعَةَ لَهُ.

---

(١) «فوائد الفوائد» (ص٣٠٧).
(٢) المصدر السابق (ص٢٠٢).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٧).

فَالإِخلَاصُ هُوَ سَبِيلُ الخَلَاصِ مِنَ الشَّيطَانِ. وَالشَّاذُّ النَّادِرُ وَالفَردُ الفَذُّ، هُوَ المُستَثنَى فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص].

«فَإِذَا أُشرِبَ القَلْبُ العُبُودِيَّةَ وَالإِخلَاصَ، صَارَ عِندَ اللهِ مِنَ المُقَرَّبِينَ، وَشَمَلَهُ استِثنَاءُ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]»(١).

فَمَا أَعظَمَ سَعَادَةَ مَن دَخَلَ فِي حِصنِ الإِخلَاصِ! «لَقَد آوَى إِلَى حِصنٍ لَا خَوفَ عَلَى مَن تَحَصَّنَ بِهِ، وَلَا ضَيعَةَ عَلَى مَن آوَى إِلَيهِ، وَلَا مَطمَعَ لِلعَدُوِّ فِي الدُّنُوِّ مِنهُ، وَ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة]»(٢).

فَإِنَّ الإِخلَاصَ «حِصنُ اللهِ الحَصِينُ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الآمِنِينَ، وَبَابُهُ الأَعظَمُ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كَانَ إِلَيهِ مِنَ الوَاصِلِينَ»(٣).

قَالَ شَيخُ الإِسلَام رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ إِخْلَاصَ الدِّينِ لِلَّهِ: يَمْنَعُ مِنْ تَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ، وَمِنْ وِلَايَةِ الشَّيْطَانِ الَّتِي تُوجِبُ الْعَذَابَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف]. فَإِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ الدِّينَ: كَانَ هَذَا مَانِعًا لَهُ مِنْ فِعْلِ ضِدِّ ذَلِكَ، وَمِنْ إِيقَاعِ الشَّيْطَانِ لَهُ فِي ضِدِّ ذَلِكَ. وَإِذَا لَمْ يُخْلِصْ لِرَبِّهِ الدِّينَ، وَلَمْ يَفْعَلْ مَا خُلِقَ لَهُ وَفُطِرَ عَلَيْهِ: عُوقِبَ عَلَى ذَلِكَ. وَكَانَ مِنْ عِقَابِهِ: تَسَلُّطُ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ، حَتَّى يُزَيِّنَ لَهُ فِعْلَ السَّيِّئَاتِ. وَكَانَ إِلْهَامُهُ لِفُجُورِهِ، عُقُوبَةً لَهُ عَلَى كَوْنِهِ لَمْ يَتَّقِ اللهَ»(٤).

---

(١) «موارد الأمان» (ص٣١).
(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٧٠).
(٣) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٣٨).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٣٢- ٣٣٣).

٢٠ الإظلال في ظل الرحمن، يوم لا ظل إلا ظله:

كَمَا فِي حَدِيثِ السَّبعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ؛ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(١).

قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَن كَانَ فِي ظِلِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، سَلِمَ مِن هَولِ المَوقِفِ وَشِدَّتِهِ، وَمَا يَلحَقُ النَّاسَ فِيهِ مِنَ القَلَقِ وَالضِّيقِ وَالعَرَقِ»(٢).

٢١ الفوز بالنعيم المقيم في جنات النعيم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ [الصَّافَّات].

لِأَنَّهُم أَخلَصُوا أَعمَالَهُم لِلَّهِ فَاجتَبَاهُم، وَاختَصَّهُم بِرَحمَتِهِ، وَجَادَ عَلَيهِم بِلُطفِهِ، وَعَلَيهِ (فَالنَّاسُ كُلُّهُم هَلكَى إِلَّا العَالِمِينَ، وَالعَالِمُونَ كُلُّهُم هَلكَى إِلَّا العَامِلِينَ، وَالعَامِلُونَ كُلُّهُم هَلكَى إِلَّا المُخلِصِينَ).

٢٢ النجاة من عذاب الآخرة:

قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ طَائِفَةٍ مِنَ المُخلِصِينَ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان].

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) «الاستذكار» (٨/٤٤٨).

فَأَثَابَهُمُ البَرُّ الرَّحِيمُ مِنْ بِرِّهِ: أَجرًا عَظِيمًا، وَعَطَاءً جَسِيمًا، وَفَوزًا دَائِمًا[١].

سَيُعْطَى المُخْلِصُونَ بِفَضْلِ إِخْلَاصِهِم: نَجَاةً فِي الحَيَاةِ، وَفِي المَمَاتِ.

٢٣ نَيل قَبول النَّاس ومَحبَّتهم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَلَهُ صِيتٌ فِي السَّمَاءِ: فَإِنْ كَانَ صِيتُهُ فِي السَّمَاءِ حَسَنًا، وُضِعَ فِي الأَرْضِ؛ وَإِنْ كَانَ صِيتُهُ فِي السَّمَاءِ سَيِّئًا، وُضِعَ فِي الأَرْضِ»[٢].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَهلُ الجَنَّةِ مَن مَلَأَ اللهُ أُذُنَيهِ مِن ثَنَاءِ النَّاسِ خَيرًا، وَهُوَ يَسمَعُ؛ وَأَهلُ النَّارِ مَن مَلَأَ أُذُنَيهِ مِن ثَنَاءِ النَّاسِ شَرًّا، وَهُوَ يَسمَعُ»[٣].

فَمَن أَخلَصَ فَاحَ عَبِيرُ فَضلِهِ، وعَبِقَتِ القُلُوبُ بِنَشرِ طِيبِهِ: «قَد كُسِيَ مِنَ الرُّوحِ وَالنُّورِ، وَمَا يَتبَعُهُمَا مِنَ الحَلَاوَةِ وَالمَهَابَةِ، وَالجَلَالَةِ وَالقَبُولِ، مَا قَد حُرِمَهُ غَيرُهُ»[٤]. فَمَن رَآهُ هَابَهُ، وَمَن خَالَطَهُ أَحَبَّهُ. وَهَذَا أَمرٌ مَشهُودٌ بِالعِيَانِ[٥]، بِعَكسِ المُرَائِي الَّذِي يَطلُبُ الشُّهرَةَ، وَيَسعَى لِلحُصُولِ عَلَى المَنزِلَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ،

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٩٨).
(٢) رواه البزَّار «البحر الزخار» (٩٢٠٢)، وقوَّى إسنادَه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٢٧٥).
(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٢٤)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٧٤٠).
(٤) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٤٢). (٥) «روضة المحبين» (ص٢٣١).

فَاللَّهُ يُعَامِلُهُ بِنَقِيضِ قَصدِهِ.

فَكُلُّ مَن لَم يُخلِص لِلَّهِ ﷻ «انقَلَبَ قُبحًا، وَشَينًا يَشِينُهُ بِهِ بَينَ النَّاسِ»(١).

«**وَالمَرءُ مُلبَسٌ زِيَّ عَمَلِهِ**: إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ؛ فَكَم مِن مُستَتِرٍ بِعَمَلِهِ، قَد شَهَرَهُ اللهُ بِهِ؟! وَكَم مِن مُتَزَيِّنٍ بِعَمَلِهِ، يُرِيدُ بِهِ الإِسمَ وَاتِّخَاذَ المَنزِلَةِ عِندَ النَّاسِ، قَد شَانَهُ اللهُ بِهِ؟! وَإِنَّمَا يُصلِحُ ذَلِكَ وَيُفسِدُهُ الضَّمِيرُ؛ فَإِن أَحَبَّ الشُّهرَةَ، جَمَعَ الشُّهرَةَ وَالرِّيَاءَ وَالعُجبَ جَمِيعًا؛ وَإِن أَرَادَ اللهَ وَحدَهُ وَكَانَ مُخلِصًا، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ عُرِفَ أَو لَم يُعْرَف»(٢).

عَنْ جُنْدَبِ بنِ عَبدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**»(٣).

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رحمه الله: «**سَمَّعَ**» بِتَشدِيدِ المِيمِ، وَمَعنَاهُ: أَظهَرَ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ رِيَاءً، «**سَمَّعَ اللهُ بِهِ**» أَي: فَضَحَهُ يَومَ القِيَامَةِ، وَمَعنَى: «**مَن رَاءَى**» أَي: مَن أَظهَرَ لِلنَّاسِ العَمَلَ الصَّالِحَ لِيَعْظُمَ عِندَهُم، «**رَاءَى اللهُ بِهِ**» أَي: أَظهَرَ سَرِيرَتَهُ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ(٤).

وَمَعنَى الحَدِيثِ عِندَ الْخَطَّابِيِّ رحمه الله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا عَلَى غَيْرِ إِخْلَاصٍ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ وَيَسْمَعُوهُ؛ جُوزِيَ عَلَى

---

(١) «روضة المحبين» (ص٢٣٢).
(٢) «المدخل» (٢/ ١/ ٥٠).
(٣) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).
(٤) «رياض الصالحين» (ص٣٧٧)، للإمام النووي رحمه الله.

ذَلِكَ: بِأَنْ يُشَهِّرَهُ اللهُ وَيَفْضَحَهُ، فَيُشِيدُوا عَلَيهِ مَا كَانَ يُبْطِنُهُ وَيُسِرُّهُ مِن ذَلِكَ»(١).

وَقَالَ ابنُ الوَزِيرِ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَعنَى الحَدِيثِ: أَرَادَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُظهِرُ عَنهُ مَا يَنطَوِي عَلَيهِ مِن فَتحِ السَّرِيرَةِ. نَقُولُ: سَمَّعتَ بِالشَّيءِ: إِذَا أَشَعتَهُ فَفَشَى فِي الأَسمَاعِ، وَسَمَّعتُ بِالرَّجُلِ إِذَا أَشهَرتُهُ(٢).

وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ، بِمَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ؛ شَانَهُ اللهُ»(٣).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ مُعَلِّقًا عَلَى هَذِهِ الجُملَةِ النَّفِيسَةِ: «لَمَّا كَانَ المُتَزَيِّنُ بِمَا لَيسَ فِيهِ ضِدَّ المُخلِصِ - فَإِنَّهُ يُظهِرُ لِلنَّاسِ أَمرًا وَهُوَ فِي البَاطِنِ بِخِلَافِهِ -، عَامَلَهُ اللهُ بِنَقِيضِ قَصدِهِ، فَإِنَّ المُعَاقَبَةَ بِنَقِيضِ القَصدِ ثَابِتَةٌ شَرعًا وَقَدَرًا، وَلَمَّا كَانَ المُخلِصُ يُعَجَّلُ لَهُ مِن ثَوَابِ إِخلَاصِهِ: الحَلَاوَةُ وَالمَحَبَّةُ وَالمَهَابَةُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ؛ عُجِّلَ لِلمُتَزَيِّنِ بِمَا لَيسَ فِيهِ مِن عُقُوبَتِهِ: أَن شَانَهُ اللهُ بَينَ النَّاسِ، لِأَنَّهُ شَانَ بَاطِنَهُ عِندَ اللهِ؛ وَهَذَا مُوجِبُ أَسمَاءِ الرَّبِّ الحُسنَى، وَصِفَاتِهِ العُلَيَا، وَحِكمَتِهِ فِي قَضَائِهِ وَشَرعِهِ.

---

(١) «أعلام السنن في شرح صحيح البخاري» (٢/ ٥٢٠-٥٢١).

(٢) «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٣/ ٢٣٧).

(٣) قطعة من أثر: رواه الدارقطني (٤/ ٢٠٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «إرواء الغليل» (٢٦١٩).

وقد جزمت (الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، والإفتاء، والدعوة والإرشاد) في «مجلة البحوث الإسلامية» (١٧/ ٢٢٣): بصحة صدور هذه الرسالة عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بحيث لا يبقى هناك مجال للطعن فيها، أو التشكيك في صحتها؛ بعد بحث طويل مستفيض.

هَذَا وَلَمَّا كَانَ مَن تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا لَيسَ فِيهِ: مِنَ الخُشُوعِ وَالدِّينِ وَالنُّسُكِ وَالعِلمِ وَغَيرِ ذَلِكَ، قَد نَصَبَ نَفسَهُ لِلَوَازِمِ هَذِهِ الأَشيَاءِ وَمُقتَضَيَاتِهَا، فَلَا بُدَّ أَن تُطلَبَ مِنهُ؛ فَإِن لَم تُوجَد عِندَهُ افتُضِحَ، فَيَشِينُهُ ذَلِكَ مِن حَيثُ ظَنَّ أَنَّهُ يَزِينُهُ.

وَأَيضًا فَإِنَّهُ أَخفَى عَنِ النَّاسِ مَا أَظهَرَ لِلَّهِ خِلَافَهُ، فَأَظهَرَ اللهُ مِن عُيُوبِهِ لِلنَّاسِ مَا أَخفَاهُ عَنهُم، جَزَاءً لَهُ مِن جِنسِ عَمَلِهِ»[١].

فَمَن «تَزَيَّنَ بِعِبَادَةٍ وَأَظهَرَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ عَابِدٌ، فَلَا بُدَّ أَن يَفضَحَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لَا بُدَّ أَن يَنكَشِفَ، أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكُم مِنَ الرِّيَاءِ»[٢].

وَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْمُرَائِي بِعَمَلِهِ مَثَلًا، فَقَالَ: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبَي زُورٍ**»[٣].

وَأَصْلُ التَّشَبُّعِ: تَفَعُّلٌ مِنَ الشِّبَعِ، وَهُوَ الَّذِي يُظهِرُ الشِّبَعَ وَلَيسَ بِشَبعَانَ[٤].

يُرِيدُ بِالْمُتَشَبِّعِ بِمَا لَا يَمْلِكُ: الْمُتَزَيِّنَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ؛ وَقَوْلُهُ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ: هُوَ الَّذِي يَلْبَسُ ثِيَابَ الصُّلَحَاءِ، فَهُوَ بِرِيَائِهِ مَحْرُومُ الْأَجْرِ، مَذْمُومُ الذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى، فَيُؤْجَرَ عَلَيْهِ، وَلَا يَخْفَى رِيَاؤُهُ عَلَى النَّاسِ، فَيُحْمَدَ بِهِ[٥].

وَفَائِدَةُ الحَدِيثِ: الزَّجرُ عَنِ الرِّيَاءِ وَتَعَاطِيهِ، وَلَو كَانَ بِأُمُورِ الدُّنيَا[٦].

---

(١) «إعلام الموقِّعين» (٢/ ١٦٨ - ١٦٩).
(٢) «شرح حلية طالب العلم» (ص٣٧).
(٣) رواه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠).
(٤) «المفهم» (٥/ ١٥٤).
(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص١١٠).
(٦) المصدر السابق (١/ ٥١٣).

وَكَانَ بَعضُ الصَّحَابَةِ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ، قَالُوا: وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَى الجَسَدَ خَاشِعًا، وَالْقَلْبُ غَيْرُ خَاشِعٍ(١).

وَأَسَاسُ النِّفَاقِ وَأَصلُهُ: هُوَ التَّزَيُّنُ لِلنَّاسِ، بِمَا لَيسَ فِي البَاطِنِ مِنَ الإِيمَانِ(٢).

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ اللهِ الَّتِي لَا تُبَدَّلُ، وَسُنَّتُهُ الَّتِي لَا تُحَوَّلُ: أَنْ يُلْبِسَ الْمُخْلِصَ مِنَ الْمَهَابَةِ وَالنُّورِ وَالْمَحَبَّةِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِقْبَالِ قُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ، مَا هُوَ بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ وَنِيَّتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِرَبِّهِ؛ وَيُلْبِسَ الْمُرَائِيَ اللَّابِسَ ثَوْبَيِ الزُّورِ مِنَ الْمَقْتِ وَالْمَهَانَةِ وَالْبِغْضَةِ، مَا هُوَ اللَّائِقُ بِهِ؛ فَالْمُخْلِصُ لَهُ الْمَهَابَةُ وَالْمَحَبَّةُ، وَلِلْآخَرِ الْمَقْتُ وَالْبَغْضَاءُ»(٣).

وَبِالجُملَةِ: فَإِنَّ الإِخلَاصَ «لَهُ تَأثِيرٌ عَظِيمٌ فِي إِلقَاءِ اللهِ لِصَاحِبِهِ الثَّنَاءَ فِي قُلُوبِ المُؤمِنِينَ»(٤). فَمَا «أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً، إِلاَّ أَلبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا عَلَانِيَةً»(٥). وَهَذَا مِن أَعظَمِ الأَدِلَّةِ عَلَى وُجُودِ الإِلَهِ الحَقِّ المُجَازِي بِذَرَّاتِ الأَعمَالِ فِي الدُّنيَا قَبلَ الآخِرَةِ، وَلَا يَضِيعُ عِندَهُ عَمَلُ عَامِلٍ، وَلَا يَنفَعُ مِن قُدرَتِهِ حِجَابٌ وَلَا استِتَارٌ؛ فَالسَّعِيدُ مَنْ أَصلَحَ مَا بَينَهُ وَبَينَ اللهِ: فَإِنَّهُ مَنْ أَصلَحَ مَا بَينَهُ وَبَينَ اللهِ، أَصلَحَ اللهُ مَا بَينَهُ وَبَينَ الخَلقِ؛ وَمَنِ التَمَسَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، عَادَ

---

(١) أخرج نحوه أحمد في «الزهد» (ص١٧٦)، بسند جيد: عن أبي الدرداء رضي الله عنه، موقوفًا عليه من قوله.

(٢) «إعلام الموقِّعين» (٢/ ١٦٩).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٢٥١).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤١٠).

(٥) «لطائف المعارف» (ص٨٦).

حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا[١].

الإِخلَاصُ مِسكٌ مَصُونٌ فِي مِسكِ القَلبِ، يُنَبِّهُ رِيحُهُ عَلَى حَامِلِهِ[٢].

قَالَ سَهلُ بنُ هَارُونَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَنسَ صَنَائِعَهُ وَاللَّهُ يُظهِرُهَا ... إِنَّ الكَرِيمَ إِذَا أَخفَيتَهُ ظَهَرَا[٣]

عن مِسْعَرٍ قَالَ:

إِذَا الْمَرْءُ أَخْفَى الْخَيْرَ مُكْتَتِمًا لَهُ ... فَلَا بُدَّ أَنَّ الْخَيْرَ يَوْمًا سَيَظْهَرُ

وَيُكْسَى رِدَاءً بِالَّذِي هُوَ عَامِلٌ ... كَمَا يَلْبَسُ الثَّوْبَ النَّقِيَّ الْمُشَهَّرُ[٤]

وَقَالَ بَعضُ الشُّعَرَاءِ:

زَادَ مَعرُوفُكَ عِندِي عِظَمًا ... أَنَّهُ عِندَكَ مَستُورٌ حَقِيرْ

تَتَنَاسَاهُ كَأَنْ لَم تَأتِهِ ... وَهْوَ عِندَ النَّاسِ مَشهُورٌ خَطِيرْ[٥]

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

سَرِيرَةُ المَرءِ تُبدِيهَا شَمَائِلُهُ ... حَتَّى يَرَى النَّاسُ مَا يُخفِيهِ إِعلَانَا

فَاجعَل سَرِيرَتَكَ التَّقوَى تَرَى أَمَلًا ... فِي كُلِّ مَا أَنتَ تَبغِيهِ وَبُرهَانَا[٦]

قَالَ الشَّاعِرُ زُهَيرُ بنُ أَبِي سُلمَى المُزَنِيُّ:

وَمَهمَا تَكُن عِندَ امرِئٍ مِن خَلِيقَةٍ ... وَإِن خَالَهَا تَخفَى عَلَى النَّاسِ تُعلَمِ[٧]

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤١١).
(٢) «اليواقيت الجوزية» (ص٧٧).
(٣) «تفسير القرآن الكريم وإعرابه» (١/ ٦٥٤).
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٧/ ١٣٩ - ١٤٠)، للقاضي الدِّينَوَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ. و(المُشَهَّرُ): هو الرجل المشهور المعروف.
(٥) «تفسير القرآن الكريم وإعرابه» (١/ ٦٥٤).
(٦) «نفح الطيب» (٧/ ٨٢١).
(٧) «ديوان زهير بن أبي سلمى» (ص٥٠).

وَقَالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَائِحَةُ الإِخلَاصِ كَرَائِحَةِ البَخُورِ الخَالِصِ، كُلَّمَا قَوِيَ سَترُهُ بِالثِّيَابِ، فَاحَ وَعَبِقَ بِهَا، وَرَائِحَةُ الرِّيَاءِ كَدُخَانِ الحَطَبِ، يَعلُو إِلَى الجَوِّ ثُمَّ يَضمَحِلُّ، وَتَبقَى رَائِحَتُهُ الكَرِيهَةُ. كُلَّمَا بَلِيَت أَجسَامُ الصَّادِقِينَ فِي التُّرَابِ، فَاحَت رَائِحَةُ صِدقِهِم، فَاستَنشَقَهَا الخَلقُ.

كَم اجتَهَدَ المُخلِصُونَ فِي إِخفَاءِ أَحوَالِهِم عَنِ الخَلقِ، وَرِيحُ الصِّدقِ تَنُمُّ عَلَيهِم.

كَمَا اجتَهَدَ الإِمَامُ أَحمَدُ عَلَى أَن لَا يُذكَرَ، وَأَبَى اللهُ إِلَّا أَن يُشهِرَهُ، وَيُقرِنَ الإِمَامَةَ بِاسمِهِ عَلَى أَلسِنَةِ الخَلقِ شَاؤُوا أَو أَبَوا، وَكَانَ فِي زَمَانِهِ مَن يُعطِي الأَموَالَ لِمَن يُنَادِي بِاسمِهِ فِي الأَسوَاقِ لِيُشتَهَرَ، فَمَا ذُكِرَ بَعدَ ذَلِكَ وَلَا عُرِفَ»[١].

وَمَن أَحَبَّ أَن يُذكَرَ فَلَا يُذكَرُ، وَمَن أَحَبَّ أَن يُعرَفَ فَلَا يُعرَفُ.

خُمُولُ المُحِبِّينَ لِمَولَاهُم شُهرَةٌ، وَذُلُّهُم بَينَ يَدَيهِ عِزٌّ، وَفَقرُهُم إِلَيهِ هُوَ الغِنَى الأَكبَرُ.

[أَنشَدَ عَبدُ العَزِيزِ بنُ سُلَيمَانَ الأَبرَشُ:

يُلبِسُ اللهُ فِي العَلَانِيَةِ العَبدَ ... الَّذِي كَانَ يَختَفِي فِي السَّرِيرَهْ
حَسَنًا كَانَ أَو قَبِيحًا سَيُبدَى ... كُلُّ مَا كَانَ ثَمَّ مِن كُلِّ سِيرَهْ
فَاستَحِ اللهَ أَن تُرَائِيَ لِلنَّاسِ ... فَإِنَّ الرِّيَاءَ بِئسَ الذَّخِيرَهْ][٢]

---

(١) «مجموعة ابن رجب» (٢/٧٥٨).

(٢) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص٢٧)، بتصرُّف يسير.

٢٤ قاصدُ فعلِ الخيرِ يُثابُ، وإن لم يُصِبِ المُرادَ:

عَن مَعْنِ بْنِ يَزِيدَ رضي الله عنهما قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَا وَأَبِي وَجَدِّي، وَخَطَبَ عَلَيَّ فَأَنْكَحَنِي، وَخَاصَمْتُ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبِي يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا، فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي المَسْجِدِ - أَي: تَرَكَهَا عِندَهُ لِيَتَصَدَّقَ بِهَا -، فَجِئْتُ فَأَخَذْتُهَا - أَي: أَعطَانِي إِيَّاهَا مِنَ الصَّدَقَةِ -، فَأَتَيْتُهُ بِهَا - أَي: فَجِئتُ أَبِي بِتِلكَ الدَّنَانِيرِ -؛ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا إِيَّاكَ أَرَدْتُ - أَي: مَا أَخرَجتُهَا لِأَتَصَدَّقَ عَلَيكَ بِهَا -. فَخَاصَمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **«لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيدُ، وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعْنُ»**(١).

أَي: لَكَ ثَوَابُ الصَّدَقَةِ.

فَالأَبُ لَم يَقصِد تَوجِيهَ المَالِ الَّذِي أَخرَجَهُ إِلَى ابنِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ أَثَابَهُ بِنِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ، وَكَتَبَ لَهُ الأَجرَ، وَإِن عَادَ المَالُ إِلَيهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ رَاحَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا؛ أَعْطَاهُ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ صَلَّاهَا وَحَضَرَهَا، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئًا»**(٢).

وَذَلِكَ لِكَمَالِ فَضلِ اللهِ وَسَعَةِ رَحمَتِهِ، وَهَذَا إِذَا لَم يَكُنِ التَّأخِيرُ نَاشِئًا عَنِ التَّقصِيرِ(٣).

وَأَمَّا إِن كَانَ التَّأخِيرُ نَاشِئًا عَنِ التَّقصِيرِ، فَهُوَ مُفَرِّطٌ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٢).

(٢) رواه أبو داود (٥٦٤)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤١٠).

(٣) «عون المعبود» (٢/ ١٩٢).

عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ قَومٌ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الصَّفِّ الأَوَّلِ، حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ...»(١).

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى فِي أَصحَابِهِ تَأَخُّرًا، فَقَالَ لَهُم: «تَقَدَّمُوا فَائتَمُّوا بِي، وَلْيَأتَمَّ بِكُم مَن بَعدَكُم، لَا يَزَالُ قَومٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ»(٢).

قَالَ إِبرَاهِيمُ التَّيمِيُّ رحمه الله: إِذَا رَأَيتَ الرَّجُلَ يَتَهَاوَنُ فِي التَّكبِيرَةِ الأُولَى؛ فَاغسِل يَدَكَ مِنهُ(٣).

وَاعلَم أَنَّهُ لَا يُدرِكُ المَفَاخِرَ، مَن رَضِيَ بِالصَّفِّ الآخِرِ.

٢٥ التَّمكِينُ فِي الأَرضِ:

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

فَإِذَا قَامَ العَبدُ بِعِبَادَةِ اللهِ مُخلِصًا لَهُ فِي أَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ وَإِرَادَتِهِ، لَا يُرِيدُ بِهَا إِلَّا وَجهَ اللهِ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، وَلَا يُرِيدُ بِهَا جَاهًا وَلَا ثَنَاءً مِنَ النَّاسِ، وَلَا مَالًا، وَلَا شَيئًا مِنَ الدُّنيَا، وَاستَمَرَّ عَلَى هَذِهِ العِبَادَةِ

---

(١) رواه أبو داود (٦٧٩)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥١٠). وقال في الحاشية: «في الحديث مكان النقط: «فِي النَّارِ»، فحذفتها لضعف سندها».

(٢) رواه مسلم (٤٣٨).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٥)، وأورده الذهبي في «السير» (٥/ ٦٢).

المُخلَصَةِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ؛ مَكَّنَ اللهُ لَهُ فِي الأَرضِ[١].

٢٦ صَلاحُ الأعمالِ:

إِنَّ حُسنَ النِّيَّةِ، لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي صَلَاحِ الأَعمَالِ. وَإِنَّ فَسَادَ النِّيَّةِ يُفسِدُ العَمَلَ، كَمَا يُفسِدُ الخَلُّ العَسَلَ.

وَلنَتَأَمَّلِ الحَدِيثَ التَّالِيَ:

عَن مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ كَالْوِعَاءِ: إِذَا طَابَ أَسْفَلُهُ، طَابَ أَعْلَاهُ؛ وَإِذَا فَسَدَ أَسْفَلُهُ، فَسَدَ أَعْلَاهُ**»[٢].

«(**إِنَّمَا الأَعْمَالُ كَالْوِعَاءِ**) المُرَادُ هُنَا: أَنَّ العَمَلَ شَبِيهٌ بِالإِنَاءِ المَملُوءِ (**إِذَا طَابَ أَسْفَلُهُ**) أَي: حَسُنَ وَعَذُبَ أَسفَلُ مَا فِيهِ مِن نَحوِ مَائِعٍ (**طَابَ أَعْلَاهُ**) الَّذِي هُوَ مَرئِيٌّ (**وَإِذَا فَسَدَ أَسْفَلُهُ، فَسَدَ أَعْلَاهُ**).

وَالقَصدُ بِالتَّشبِيهِ: أَنَّ الظَّاهِرَ عُنوَانُ البَاطِنِ، وَمَن طَابَت سَرِيرَتُهُ طَابَت عَلَانِيَتُهُ؛ فَإِذَا اقتَرَنَ العَمَلُ بِالإِخلَاصِ القَلبِيِّ، الَّذِي هُوَ شَرطُ القَبُولِ، أَشرَقَ ضِيَاءُ الأَنوَارِ عَلَى الجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ؛ وَإِذَا اقتَرَنَ بِرِيَاءٍ أَو نَحوِهِ، اكتَسَبَ ظُلمَةً يُدرِكُهَا أَهلُ البَصَائِرِ وَأَربَابُ السَّرَائِرِ»[٣].

---

(١) «مجالس شهر رمضان» (ص٢٣٠)، للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٩٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٠٤).

(٣) «فيض القدير» (٤/ ٢١٨٠)، باختصار.

قَالَ مَالِكُ بنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الأَبرَارَ تَغلِي قُلُوبُهُم بِأَعمَالِ البِرِّ، وَإِنَّ الفُجَّارَ تَغلِي قُلُوبُهُم بِأَعمَالِ الفُجُورِ؛ وَاللَّهُ يَرَى هُمُومَكُم، فَانظُرُوا مَا هُمُومُكُم؟ رَحِمَكُمُ اللَّهُ»(١).

وَفِي مِثلِ هَذَا، قِيلَ فِي المَثَلِ: وَكُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَنضَحُ(٢).

قَالَ ابنُ حِبَّانَ البُستِيُّ:

أَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ زِنجِيٍّ البَغدَادِيُّ:

وَإِذَا أَعلَنتَ أَمرًا حَسَنًا ... فَليَكُنْ أَحسَنَ مِنهُ مَا تُسِرْ

فَمُسِرُّ الخَيرِ مَوسُومٌ بِهِ ... وَمُسِرُّ الشَّرِّ مَوسُومٌ بِشَرْ(٣)

٢٧ الفلاح:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم].

وَالفَلَاحُ: هُوَ الفَوزُ وَالظَّفَرُ بِكُلِّ مَطلُوبٍ مَرغُوبٍ، وَالنَّجَاةُ مِن كُلِّ مَرهُوبٍ. فَحَقِيقَتُهُ: السَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ، وَالنَّعِيمُ المُقِيمُ(٤).

فَلَا طَرِيقَ لِلفَلَاحِ، سِوَى الإِخلَاصِ فِي عِبَادَةِ الخَالِقِ، وَالسَّعيِ فِي نَفعِ عَبِيدِهِ؛ فَمَن وُفِّقَ لِذَلِكَ، فَلَهُ القَدَحُ المُعَلَّى مِنَ السَّعَادَةِ، وَالنَّجَاحِ وَالفَلَاحِ(٥).

فَالإِخلَاصُ أَجَلُّ الوَسَائِلِ، وَالفَلَاحُ أَكمَلُ الغَايَاتِ.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «كتاب الهَمِّ والحُزنِ» (رقم: ١١٢)، وإسناده جيِّد.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٧).

(٣) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص٢٨).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٩٤).

(٥) المصدر السابق (ص٧٥٨).

٢٨ السعادة في الدنيا:

عَن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ؛ وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**»(١).

فَالمُؤمِنُ المُخلِصُ لِلَّهِ مِن أَطيَبِ النَّاسِ عَيشًا، وَأَنعَمِهِم بَالًا، وَأَشرَحِهِم صَدرًا، وَأَسَرِّهِم قَلبًا، وَهَذِهِ جَنَّةٌ عَاجِلَةٌ قَبلَ الجَنَّةِ الآجِلَةِ(٢).

هَذِهِ ثَمَرَاتُ الإِخلَاصِ «وَلَعَلَّهَا قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ: بِحَسَبِ أَذْهَانِنَا الْوَاقِفَةِ، وَقُلُوبِنَا الْمُخْطِئَةِ، وَعُلُومِنَا الْقَاصِرَةِ، وَأَعْمَالِنَا الَّتِي تُوجِبُ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ»(٣).

فَإِنَّ هَذِهِ الثَّمَرَاتِ وَأَمثَالَهَا، مِمَّا تُذَكِّرُ قُلُوبَ السَّائِرِينَ إِلَى اللهِ؛ وَأَمَّا أَهلُ الرِّيَاءِ وَالشُّهرَةِ وَحُبِّ الظُّهُورِ، فَلَيسَ عِندَهُم مِن ذَلِكَ خَبَرٌ.

«وَأَمرٌ هَذَا شَأنُهُ، حَقِيقٌ أَن تُثنَى عَلَيهِ الخَنَاصِرُ، وَيُعَضَّ عَلَيهِ بِالنَّوَاجِذِ، وَيُقبَضَ فِيهِ عَلَى الجَمرِ، وَلَا يُؤخَذَ بِأَطرَافِ الأَنَامِلِ، وَلَا يُطلَبَ عَلَى فَضلَةٍ، بَل يُجعَلَ هُوَ المَطلُوبَ الأَعظَمَ؛ وَمَا سِوَاهُ إِنَّمَا يُطلَبُ عَلَى فَضلَةٍ، وَ اللهُ المَسؤُولُ أَن يَمُنَّ عَلَينَا بِتَحقِيقِ ذَلِكَ: عِلمًا، وَعَمَلًا، وَحَالًا؛ وَنَعُوذُ بِاللهِ أَن يَكُونَ حَظُّنَا مِن ذَلِكَ مُجَرَّدَ حِكَايَتِهِ»(٤).

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٦٨).
(٢) «الداء والدواء» (ص٣٠٣).
(٣) «إعلام الموقِّعين» (١/ ٢٢٨ - ٢٢٩).
(٤) «الدرر السنية» (٢/ ٣٢٣).

فَوَائِدُ مُهِمَّةٌ

أَوَّلًا: **سُرُورُ العَبْدِ عِندَ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيهِ**، وَهُوَ لَا يَقصِدُ ذَلِكَ: هَذَا لَا يَقدَحُ فِي إِخْلَاصِهِ، مَا دَامَ بَدَأَهُ بِإِخْلَاصٍ، وَخَرَجَ مِنهُ مُخلِصًا، قَالَ ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يُونُس].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيهِ؟! قَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤمِنِ**»(١).

يَعنِي: الرَّجُلَ الَّذِي يَعمَلُ العَمَلَ الصَّالِحَ خَالِصًا، وَلَا يُرِيدُ إِظهَارَهُ لِلنَّاسِ؛ لِأَنَّهُ لَو عَمِلَهُ لِيَحمَدَهُ النَّاسُ أَو يَبَرُّوهُ لَكَانَ مُرَائِيًا، وَيَكُونُ ذَلِكَ العَمَلُ بَاطِلًا فَاسِدًا، وَإِنَّمَا اللهُ تَعَالَى بِلُطفِهِ، وَرَحمَتِهِ، وَكَرَمِهِ يُعَامِلُ المُخلِصِينَ فِي الأَعمَالِ، الصَّادِقِينَ فِي الأَقوَالِ وَالأَحوَالِ بِأَنوَاعٍ مِنَ اللُّطفِ، فَيَقذِفُ فِي القُلُوبِ مَحَبَّتَهُم، وَيُطلِقُ الأَلسِنَةَ بِالثَّنَاءِ عَلَيهِم، لِيُنَوِّهَ بِذِكرِهِم فِي المَلَإِ الأَعلَى؛ لِيَستَغفِرُوا

(١) رواه مسلم (٢٦٤٢).

لَهُم، وَيَنشُرَ طِيبَ ذِكرِهِم فِي الدُّنيَا لِيُقتَدَى بِهِم، فَيَعظُمَ أَجرُهُم، وَتَرتَفِعَ مَنَازِلُهُم، وَلِيَجعَلَ ذَلِكَ عَلامَةً عَلَى استِقَامَةِ أَحوَالِهِم، وَبُشرَى بِحُسنِ مَآلِهِم، وَكَثِيرِ ثَوَابِهِم، وَلِذَلِكَ قَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤمِنِ**»[١].

«فَأَمَّا إِنْ كَانَ فَرَحُهُ بِاطِّلَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِ، لِقِيَامِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُمْ، حَتَّى يَمْدَحُوهُ وَيُعَظِّمُوهُ، وَيَقْضُوا حَوَائِجَهُ: فَهَذَا مَكْرُوهٌ مَذْمُومٌ ... . فَأَمَّا إِذَا أَعْجَبَهُ لِيَعْلَمَ النَّاسُ مِنْهُ الْخَيْرَ، وَيُكْرِمُوهُ عَلَيْهِ: فَهَذَا رِيَاءٌ»[٢].

قَالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا عَمِلَ العَمَلَ لِلَّهِ خَالِصًا، ثُمَّ أَلقَى اللهُ لَهُ الثَّنَاءَ الحَسَنَ فِي قُلُوبِ المُؤمِنِينَ بِذَلِكَ، فَفَرِحَ بِفَضلِ اللهِ وَرَحمَتِهِ، وَاستَبشَرَ بِذَلِكَ، لَم يَضُرَّهُ ذَلِكَ»[٣].

ثَانِيًا: إن قُمتَ بِوَاجِبِ النَّصِيحَةِ لِأَحَدٍ «فَاحذَر أَن تُفسِدَ نَصِيحَتَكَ بِالتَّمَدُّحِ عِندَ النَّاسِ، فَتَقُولَ لَهُم: إِنِّي نَصَحتُهُ وَقُلتُ وَقُلتُ. فَإِنَّ هَذَا عُنوَانُ الرِّيَاءِ، وَعَلَامَةُ ضَعفِ الإِخلَاصِ»[٤].

ثَالِثًا: **مِن دَقَائِقِ أَبوَابِ الرِّيَاءِ:** أَنَّ الإِنسَانَ قَد يَذُمُّ نَفسَهُ بَينَ النَّاسِ، يُرِيدُ بِذَلِكَ أَن يُرِيَ النَّاسَ أَنَّهُ مُتَوَاضِعٌ عِندَ نَفسِهِ، فَيَرتَفِعَ بِذَلِكَ عِندَهُم، وَيَمدَحُونَهُ بِهِ؛ وَهَذَا مِن دَقَائِقِ أَبوَابِ الرِّيَاءِ، «وَهَذَا أَخفَى مِن مَكنُونِ النَّارِ فِي الزِّندِ، وَأَدَقُّ مِن دَبِيبِ النَّملِ فِي الحَجَرِ الصَّلدِ. فَكَيفَ

---

(١) «المفهم» (٦/ ٦٤٨).

(٢) نقله عنه ابن مُفلِح المقدسي: في «الآداب الشرعية» (١/ ١٨٨ - ١٨٩).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٣).

(٤) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ٣٩٨)، بتصرُّف يسير.

بِالسَّلَامَةِ مِنهُ، أَم كَيفَ يُوجَدُ مَن لَا يُحِبُّ أَن يُجَلَّ وَيُكرَمَ، وَلَا يَستَعذِبُ أَن يُمدَحَ وَلَا يُذَمَّ؟ هَيهَاتَ!»[١].

وَقَد نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ السَّلَفُ الصَّالِحُ.

قَالَ مُطَرِّفُ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَفَى بِالنَّفسِ إِطرَاءً أَن تَذُمَّهَا عَلَى المَلَإِ، كَأَنَّكَ تُرِيدُ بِذَمِّهَا زِينَتَهَا، وَذَلِكَ عِندَ اللهِ سَفَهٌ[٢].

وَيَظهَرُ مِنهُم مِن قَبُولِ المَدحِ وَاستِجلَابِهِ: مَا يُنَافِي الصِّدقَ وَالإِخلَاصَ، فَإِنَّ الصَّادِقَ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفسِهِ، وَيَخشَى عَلَى نَفسِهِ مِن سُوءِ الخَاتِمَةِ، فَهُوَ فِي شُغلٍ شَاغِلٍ عَن قَبُولِ المَدحِ وَاستِحسَانِهِ[٣].

وَقَالَ ابنُ أَبِي مُلَيكَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَدرَكتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُم يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفسِهِ، مَا مِنهُم أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبرِيلَ وَمِيكَائِيلَ[٤].

وَقَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ يُقَالُ: النِّفَاقُ اختِلَافُ السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ، وَالقَولِ وَالعَمَلِ[٥].

---

(١) «الذخائر والأعلاق» (ص٤٦٣).

(٢) شرح حديث: «مَا ذِئبَانِ جَائِعَانِ» (ص٤٧).
والأثر بمعناه: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٢).

(٣) «فضل علم السلف على الخلف» (ص٥٥).

(٤) رواه البخاري معلَّقًا مجزومًا به: قبل الحديث (٤٨). ووصله البخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٣٧).

(٥) رواه الفريابي في «صفة النفاق» (٥٠)، وصحح إسناده المحقق.

وَعَنْ جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ مَنْزِلَهُ بِحِمْصَ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مَسْجِدِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ يَتَشَهَّدُ فَجَعَلَ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ النِّفَاقِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ لَهُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، مَا أَنْتَ وَالنِّفَاقَ؟! مَا شَأْنُكَ وَمَا شَأْنُ النِّفَاقِ؟! فَقَالَ: اللَّهُمَّ غُفْرًا - ثَلَاثًا -، لَا يَأْمَنُ البَلَاءَ مَنْ يَأْمَنُ البَلَاءَ، وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَنُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيَنْقَلِبُ عَنْ دِينِهِ(١).

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ قَالَ: أَنْ لَا يَكُونَ فِيَّ نِفَاقٌ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. كَانَ عُمَرُ يَخْشَاهُ، وَآمَنُهُ أَنَا؟!(٢)

فَالإِخلَاصُ سَفِينَةُ النَّجَاةِ، مِنَ الغَرَقِ فِي مُحِيطِ النِّفَاقِ.

رَابِعًا: عِندَ خُرُوجِكَ مِنَ المَنزِلِ، تَذَكَّرِ الحَدِيثَ التَّالِيَ:

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَو كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِن كَانَ خَرَجَ يَسعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ وَإِن كَانَ خَرَجَ يَسعَى عَلَى أَبَوَينِ شَيخَينِ كَبِيرَينِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ وَإِن كَانَ [خَرَجَ] يَسعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ وَإِن كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»**(٣).

---

(١) رواه الفريابي في «صفة النفاق» (٧٤)، وصحح إسناده المحقق.

(٢) رواه الفريابي في «صفة النفاق» (٨٦)، وصحح إسناده المحقق.

(٣) رواه الطبراني ١٩/ رقم (٢٨٢)، وصححه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٩٢).

خَامِسًا: حَاسِب نَفسَكَ قَبلَ العَمَلِ:

قَالَ الْحَسَنُ البَصرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَعْمَلُ حَتَّى يَهُمَّ؛ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَمْضَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا كَفَّ عَنْهُ»(١).

إِذَا تَحَرَّكتَ لِعَمَلٍ مِنَ الأَعمَالِ، فَانظُر: «هَلِ البَاعِثُ عَلَيهِ: إِرَادَةُ وَجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَثَوَابِهِ؟ أَو إِرَادَةُ الجَاهِ وَالمَالِ مِنَ المَخلُوقِ؟»(٢). فَإِن كَانَ الثَّانِي لَا تَقدُمُ عَلَيهِ، وَإِن أَفضَى بِكَ إِلَى مَطلُوبِكَ؛ «لِئَلَّا تَعتَادَ النَّفسُ الشِّركَ، وَيَخِفَّ عَلَيهَا العَمَلُ لِغَيرِ اللهِ، فَبِقَدرِ مَا يَخِفُّ عَلَيهَا ذَلِكَ، يَثقُلُ عَلَيهَا العَمَلُ لِلَّهِ تَعَالَى، حَتَّى يَصِيرَ أَثقَلَ شَيءٍ عَلَيهَا»(٣).

فَمَن عَوَّدَ نَفسَهُ العَمَلَ لِلَّهِ، لَم يَكُن عَلَيهِ أَشَقَّ مِنَ العَمَلِ لِغَيرِهِ، وَمَن عَوَّدَ نَفسَهُ العَمَلَ لِهَوَاهُ وَحَظِّهِ، لَم يَكُن عَلَيهِ أَشَقَّ مِنَ الإِخلَاصِ وَالعَمَلِ لِلَّهِ. وَهَذَا فِي جَمِيعِ أَبوَابِ الأَعمَالِ، فَلَيسَ شَيءٌ أَشَقَّ عَلَى المُنفِقِ لِلَّهِ مِنَ الإِنفَاقِ لِغَيرِهِ، وَكَذَا بِالعَكسِ(٤).

جَاءَ فِي تَرجَمَةِ إِبرَاهِيمَ بنِ عَبدِ الوَاحِدِ المَقدِسِيِّ أَنَّهُ: «مَا تَحَرَّكَ بِحَرَكَةٍ، وَلَا مَشَى خُطوَةً، وَلَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى. وَكَانَ يَتَعَبَّدُ بِالإِخلَاصِ»(٥).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٧٧)، وإسناده صحيح.

(٢) «موارد الأمان» (ص١٤٨). (٣) المصدر السابق.

(٤) «عدة الصابرين» (ص٨٢).

(٥) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ١٠٣)، لابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ.

سَادِسًا: **لَا تَترُكِ العَمَلَ مِن أَجلِ النَّاسِ:**

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَن كَانَ لَهُ وِردٌ مَشرُوعٌ مِن صَلَاةِ الضُّحَى، أَو قِيَامِ لَيلٍ، أَو غَيرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُصَلِّيهِ حَيثُ كَانَ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَن يَدَعَ وِردَهُ المَشرُوعَ لِأَجلِ كَونِهِ بَينَ النَّاسِ، إِذَا عَلِمَ اللهُ مِن قَلبِهِ أَنَّهُ يَفعَلُهُ سِرًّا لِلَّهِ مَعَ اجتِهَادِهِ فِي سَلَامَتِهِ مِنَ الرِّيَاءِ، وَمُفسِدَاتِ الإِخلَاصِ»(١).

سَابِعًا: **سَلَامُ المَعرِفَةِ فِيهِ نَقصٌ فِي الإِخلَاصِ:**

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»(٢).

قَولُهُ: «أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟» أَي: أَيُّ خِصَالِهِ، وَأُمُورِهِ، وَأَحوَالِهِ؟(٣)

وَقَولُهُ: «**وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»؛ هَذَا أَفضَلُ أَنوَاعِ إِفشَاءِ السَّلَامِ(٤). أَي: تُسَلِّمُ عَلَى كُلِّ مَن لَقِيتَهُ، وَلَا تَخُصَّ بِهِ مَن تَعرِفُهُ، وَهَذَا العُمُومُ مَخصُوصٌ بِالمُسلِمِينَ(٥).

قَالَ الخَطَّابِيُّ (ت٣٨٨هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَجَعَلَ [ﷺ] خَيرَ أَفعَالِهَا، وَأَفضَلَهَا فِي الأَجرِ وَالمَثُوبَةِ: إِطعَامَ الطَّعَامِ، الَّذِي بِهِ قِوَامُ الأَبدَانِ

---

(١) «الفتاوى الكبرى» (٢/ ٢٦٣). (٢) رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

(٣) «السراج الوهاج» (١/ ٢٤٧).

(٤) «فتح الباري» (١/ ٤٤)، لابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٥) «الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج» (١/ ٥٦ - ٥٧)، للسيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ [دار ابن عفَّان].

وَالأَنفُسِ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى بَيَانِ مَا يَكُونُ بِهِ قَضَاءُ حُقُوقِهِم مِنَ الأَقوَالِ، فَجَعَلَ خَيرَهَا وَأَوسَعَهَا فِي البِرِّ وَالإِكرَام: إِفشَاءَ السَّلَامِ؛ وَجَعَلَهُ عَامًّا لَا يَخُصُّ بِهِ مَن عَرَفَ دُونَ مَن لَم يَعرِف، لِيَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، بَرِيئًا مِن حَظِّ النَّفسِ وَالتَّصَنُّعِ، لِأَنَّهُ شِعَارُ الإِسلَامِ، فَحَقُّ كُلِّ مُسلِمٍ فِيهِ شَائِعٌ»(١).

فَيَنبَغِي عَلَى الإِنسَانِ أَن يُسَلِّمَ «عَلَى كُلِّ مَنْ لَقِيَهُ عَرَفَهُ أَم لَم يَعرِفهُ، وَسَلَامُ المَعرِفَةِ فِيهِ نَقصٌ فِي الإِخلَاصِ؛ يَعنِي: الَّذِي لَا يُسَلِّمُ إِلَّا عَلَى مَن عَرَفَ، هَذَا إِخلَاصُهُ نَاقِصٌ، بَلِ المُخلِصُ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُ عَلَى مَنْ عَرَفَ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ»(٢).

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ، لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا لِلْمَعْرِفَةِ**»(٣).

ثَامِنًا: أَصلِح سَرِيرَتَكَ:

إِنَّ المُتَأَمِّلَ فِي نَفسِهِ وَمَنْ حَولَهُ مِنَ النَّاسِ بِكَافَّةِ طَبَقَاتِهِم، لَيَرَى اهْتِمَامًا بَالِغًا وَانْصِرَافًا تَامًّا - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ - إِلَى العِنَايَةِ بِالمَظَاهِرِ المَرئِيَّةِ، وَغَفلَةً تَكَادُ تَكُونُ عَامَّةً عَنِ العِنَايَةِ بِالأَعمَالِ القَلبِيَّةِ وَالذَّخَائِرِ الخَفِيَّةِ. فَالمَظَاهِرُ زَاهِيَةٌ، وَالسَّرَائِرُ خَاوِيَةٌ.

مَعَ أَنَّ إِصْلَاحَ السَّرِيرَةِ مِنَ المَطَالِبِ العَالِيَةِ، وَالمَقَاصِدِ

---

(١) «أعلام السُّنن في شرح صحيح البخاري» (١/ ٣٨).
(٢) «شرح بلوغ المرام» (٦/ ٣٨٩)، للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.
(٣) رواه أحمد (١/ ٤٠٥-٤٠٦ رقم ٣٨٤٨)، وقوَّاه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٦٤٨).

السَّامِيَةِ، وَالمَوَاهِبِ الغَالِيَةِ، وَأُمنِيَةٌ عَظِيمَةٌ، وَغَايَةٌ كَرِيمَةٌ، لَا تَصْلُحُ الأَحْوَالُ إِلَّا بِهَا.

عَن يَحيَى بنِ الجَزَّارِ، قَالَ: دَخَلَ نَاسٌ مِن أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالُوا: يَا أُمَّ المُؤمِنِينَ، حَدِّثِينَا عَن سِرِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَت: كَانَ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ سَوَاءً، ثُمَّ نَدِمْتُ فَقُلْتُ: أَفشَيتُ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ! قَالَت: فَلَمَّا دَخَلَ أَخبَرتُهُ، فَقَالَ: «أَحسَنتِ»(١).

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق]؛ أَي: تُختَبَرُ سَرَائِرُ الصُّدُورِ، وَيَظهَرُ مَا كَانَ فِي القُلُوبِ مِن خَيرٍ وَشَرٍّ عَلَى صَفَحَاتِ الوُجُوهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ فَفِي الدُّنيَا، يَنكَتِمُ كَثِيرٌ مِنَ الأَشيَاءِ، وَلَا يَظهَرُ عِيَانًا لِلنَّاسِ، وَأَمَّا يَومَ القِيَامَةِ، فَيَظهَرُ بِرُّ الأَبرَارِ، وَفُجُورُ الفُجَّارِ، وَتَصِيرُ الأُمُورُ عَلَانِيَةً(٢).

وَلِلَّهِ هَاتَيكَ القُلُوبُ، وَمَا انطَوَت عَلَيهِ مِنَ الضَّمَائِرِ، وَمَاذَا أَودَعَتهُ مِنَ الكُنُوزِ وَالذَّخَائِرِ؟! وَلِلَّهِ طِيبُ أَسرَارِهَا! وَلَا سِيَّمَا يَومَ تُبلَى السَّرَائِرُ:

سَيَبدُو لَهَا طِيبٌ وَنُورٌ وَبَهجَةٌ ... وَحُسنُ ثَنَاءٍ يَومَ تُبلَى السَّرَائِرُ(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٩)، بسندٍ حسنٍ.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٢٩٦ - ١٢٩٧).

(٣) «إغاثة اللهفان» (ص٨١).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي التَّعبِيرِ عَنِ الأَعمَالِ بِالسِّرِّ لَطِيفَةٌ، وَهُوَ أَنَّ الأَعمَالَ نَتَائِجُ السَّرَائِرِ البَاطِنَةِ، فَمَن كَانَت سَرِيرَتُهُ صَالِحَةً كَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا، فَتَبدُو سَرِيرَتُهُ عَلَى وَجهِهِ: نُورًا وَإِشرَاقًا وَحَيَاءً، وَمَن كَانَت سَرِيرَتُهُ فَاسِدَةً، كَانَ عَمَلُهُ تَابِعًا لِسَرِيرَتِهِ، لَا اعتِبَارَ بِصُورَتِهِ، فَتَبدُو سَرِيرَتُهُ عَلَى وَجهِهِ سَوَادًا وَظُلمَةً وَشَينًا. وَإِن كَانَ الَّذِي يَبدُو عَلَيهِ فِي الدُّنيَا، إِنَّمَا هُوَ عَمَلُهُ لَا سَرِيرَتُهُ، فَيَومَ القِيَامَةِ تَبدُو عَلَيهِ سَرِيرَتُهُ، وَيَكُونُ الحُكمُ وَالظُّهُورُ لَهَا»(١).

وَقَالَ أَيضًا فِي تَفسِيرِ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)﴾ [الطارق]: «أَي: تُختَبَرُ...، وَالسَّرَائِرُ جَمعُ سَرِيرَةٍ، وَهِيَ سَرَائِرُ اللهِ الَّتِي بَينَهُ وَبَينَ عَبدِهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ لِلَّهِ، فَالإِيمَانُ مِنَ السَّرَائِرِ، وَشَرَائِعُهُ مِنَ السَّرَائِرِ، فَتُختَبَرُ ذَلِكَ اليَومَ، حَتَّى يَظهَرَ خَيرُهَا مِن شَرِّهَا، وَمُؤَدِّيهَا مِن مُضَيِّعِهَا...؛ وَالمَعنَى: تُختَبَرُ السَّرَائِرُ بِإِظهَارِهَا، وَإِظهَارِ مُقتَضَيَاتِهَا مِنَ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ، وَالحَمدِ وَالذَّمِّ»(٢).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «الْمُعَوَّلُ عَلَى السَّرَائِرِ وَالْمَقَاصِدِ وَالنِّيَّاتِ وَالْهِمَمِ، فَهِيَ الْإِكْسِيرُ الَّذِي يَقْلِبُ نُحَاسَ الْأَعْمَالِ ذَهَبًا، أَوْ يَرُدُّهَا خَبَثًا ...؛ وَمَنْ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ، يَعْلَمُ قَدْرَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَشِدَّةَ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا، وَانْتِفَاعَهُ بِهَا»(٣).

وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قُطبُ الطَّاعَاتِ لِلمَرءِ فِي الدُّنيَا: هُوَ إِصلَاحُ السَّرَائِرِ، وَتَركُ إِفسَادِ الضَّمَائِرِ.

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (ص٦٧). (٢) المصدر السابق.
(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٤٢٧).

وَالوَاجِبُ عَلَى العَاقِلِ: الاِهتِمَامُ بِإِصلَاحِ سَرِيرَتِهِ، وَالقِيَامُ بِحِرَاسَةِ قَلبِهِ عِندَ إِقبَالِهِ وَإِدبَارِهِ، وَحَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ؛ لِأَنَّ تَكَدُّرَ الأَوقَاتِ، وَتَنَغُّصَ اللَّذَّاتِ، لَا يَكُونُ إِلَّا عِندَ فَسَادِهِ.

وَلَو لَم يَكُن لِإِصلَاحِ السَّرَائِرِ سَبَبٌ يُؤَدِّي العَاقِلَ إِلَى استِعمَالِهِ، إِلَّا إِظهَارُ اللهِ عَلَيهِ كَيفِيَّةَ سَرِيرَتِهِ، خَيرًا كَانَ أَو شَرًّا، لَكَانَ الوَاجِبُ عَلَيهِ قِلَّةَ الإِغضَاءِ عَن تَعَاهُدِهَا[١].

فَطَهِّر لِلَّهِ «سَرِيرَتَكَ فَإِنَّهَا عِندَهُ عَلَانِيَةٌ، وَأَصلِح لَهُ غَيبَكَ فَإِنَّهُ عِندَهُ شَهَادَةٌ، وَزَكِّ لَهُ بَاطِنَكَ فَإِنَّهُ عِندَهُ ظَاهِرٌ»[٢].

قَالَ ابنُ الحَاجِّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِذَا كَانَ بَاطِنُكَ كَظَاهِرِكَ، لَم تُبَالِ كَيفَ كَانَ أَمرُكَ؟! وَقُم عَلَى بَاطِنِكَ، أَشَدَّ مِن قِيَامِكَ عَلَى ظَاهِرِكَ، فَإِنَّهُ المَوضِعُ الَّذِي فِيهِ اللهُ مُطَّلِعٌ، فَنَظِّفهُ وَزَيِّنهُ، لِيَنظُرَ اللهُ إِلَيهِ أَشَدَّ مَا تُزَيِّنُ ظَاهِرَكَ لِنَظَرِ غَيرِهِ، فَافهَم مَا أَقُولُ لَكَ بِعِنَايَةٍ مِنكَ وَقَبُولٍ»[٣].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[٤].

فَلَا تُضَيِّع حَظَّكَ مِن أَعمَالِ السَّرَائِرِ، فَبِهَا الحَزمُ وَالفَضلُ العَظِيمُ، وَالوَصفُ يَقصُرُ عَن قَدرِهَا عِندَ الإِلَهِ ﷻ، وَتُؤجَرُ عَلَيهَا عِندَ تَحصِيلِ مَا فِي الصُّدُورِ، وَالنَّاسُ عَنهَا غَافِلُونَ.

وَاعْلَمْ بِأَنَّهُ «كُلَّمَا كَانَ وُجُودُ الشَّيءِ أَنْفَعَ لِلعَبدِ وَهُوَ إِلَيهِ

---

(١) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص٢٧). (٢) «طريق الهجرتين» (ص٤٢).
(٣) «المدخل» (٢/ ١/ ٤٥). (٤) رواه مسلم (٢٥٦٤).

أَحْوَجُ، كَانَ تَأَلُّمُهُ بِفَقْدِهِ أَشَدَّ، وَكُلَّمَا كَانَ عَدَمُهُ أَنْفَعَ لَهُ، كَانَ تَأَلُّمُهُ بِوُجُودِهِ أَشَدَّ، وَلَا شَيءَ عَلَى الإِطلَاقِ أَنفعُ لِلْعَبْدِ مِنْ»[١] إِصْلَاحِ سَرِيرَتِهِ، وَإِقبَالِهِ «عَلَى اللهِ، وَاشْتِغَالِهِ بِذِكْرِهِ، وَتَنَعُّمِهِ بِحُبِّهِ، وَإِيثَارِهِ لِمَرْضَاتِهِ، بَلْ لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا نَعِيمَ وَلَا سُرُورَ وَلَا بَهْجَةَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَعَدَمُهُ آلَمُ شَيءٍ لَهُ وَأَشَدُّهُ عَذَابًا عَلَيهِ»[٢].

وَاجعَل نُصبَ عَينَيكَ الحَدِيثَ التَّالِيَ:

عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عز وجل هَبَاءً مَنْثُورًا**». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ! صِفْهُم لَنَا، جَلِّهِم لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُم وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُم إِخْوَانُكُم وَمِنْ جِلْدَتِكُم، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُم أَقْوَامٌ، إِذَا خَلَوا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا**»[٣].

فَهَؤُلَاءِ قَامُوا بِأَعمَالٍ ظَاهِرَةٍ، وَاعتَنَوا بِالمَظَاهِرِ وَجَعَلُوهَا زَاهِيَةً، وَأَهمَلُوا سَرَائِرَهُم، وَبَوَاطِنَهُم، وَجَعَلُوهَا خَاوِيَةً، فَلَم يُرَاقِبُوا اللهَ فِي خَلَوَاتِهِم.

هَؤُلَاءِ يَنطَبِقُ عَلَيهِم قَولُ القَائِلِ:

أَظهَرَ بَينَ الخَلقِ إِحسَانَهُ ... وَخَالَفَ الرَّحمَنَ لَمَّا خَلَا[٤]

---

(١) «الداء والدواء» (ص٣٠٤). (٢) المصدر السابق.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٥٠٥).

(٤) هو قول يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله. أخرجه - ضمن قصة -: ابن الجوزي في «القصّاص والمذكِّرين» (رقم: ١٩٣).

أَفَلَم يَأنِ لِلَّذِينَ يَخلُونَ بِمَحَارِمِ اللهِ وَيَدخُلُونَ عَلَى المَوَاقِعِ الإبَاحِيَّةِ، وَيُشَاهِدُونَ الأَفلَامَ الخَلِيعَةَ، أَن يَتُوبُوا إِلَى اللهِ: مِن قَبلِ أَن يَأتِيَ يَومٌ تُبلَى فِيهِ السَّرَائِرُ، وَيُحَصَّلَ فِيهِ مَا فِي الصُّدُورِ. يَومَ يَدُومُ فِيهِ النَّدَمُ، لِمَن زَلَّت بِهِ القَدَمُ.

وَتَأَمَّل سَرِيرَةَ القَلبِ وَاستَحـ ـيِ مِنَ اللهِ يَومَ تُبلَى السَّرَائِرُ[(١)]

فَيَا مُهمِلًا إِصلَاحَ سَرِيرَتِكَ! «سَتَعلَمُ يَومَ الحَشرِ: أَيَّ سَرِيرَةٍ تَكُونُ عَلَيهَا، ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق]»[(٢)].

سَيَعلَمُ يَومَ العَرْضِ أَيَّ بِضَاعَةٍ أَضَاعَ وَعِندَ الوَزْنِ مَا كَانَ حَصَّلَا[(٣)]

أَلَا تَعْلَمُ بِأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ «هِيَ الَّتِي تُنَوِّرُ الوَجهَ، وَتَشرَحُ الصَّدرَ، وَتُحيِي القَلبَ، وَتُطَيِّبُ الحَيَاةَ عَلَى الحَقِيقَةِ، لَا مَحَبَّةَ الصُّوَرِ المُحَرَّمَةِ، وَإِذَا بُلِيَتِ السَّرَائِرُ يَومَ اللِّقَاءِ، كَانَت سَرِيرَةُ صَاحِبِهَا مِن خَيرِ سَرَائِرِ العِبَادِ، كَمَا قِيلَ:

سَيَبقَى لَكُم فِي مُضْمَرِ القَلبِ وَالحَشَا سَرِيرَةُ حُبٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ»[(٤)]

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «كُلُّ مَحَبَّةٍ لِغَيرِهِ فَهِيَ عَذَابٌ عَلَى صَاحِبِهَا وَحَسرَةٌ عَلَيهِ، إِلَّا مَحَبَّتَهُ وَمَحَبَّةَ مَا يَدعُو إِلَى مَحَبَّتِهِ، وَيُعِينُ عَلَى طَاعَتِهِ وَمَرضَاتِهِ، فَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تَبقَى فِي القَلبِ يَومَ تُبلَى السَّرَائِرُ»[(٥)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢).
(٢) «الفوائد» (ص١١٥).
(٣) «الداء والدواء» (ص٣١٤).
(٤) المصدر السابق (ص٣٦٢).
(٥) «روضة المحبين» (ص٢٨٧).

فَحَقِيقٌ بِمَنِ اتَّقَى اللهَ، وَخَافَ نَكَالَهُ: أَن يُصلِحَ سَرِيرَتَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ «تُنْسَفُ فِيهِ الْجِبَالُ، وَتَتَرَادَفُ فِيهِ الأَهْوَالُ، وَتَشْهَدُ فِيهِ الْجَوَارِحُ وَالأَوْصَالُ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ، وَتَظْهَرُ فِيهِ الضَّمَائِرُ، وَيَصِيرُ الْبَاطِلُ فِيهِ ظَاهِرًا، وَالسِّرُّ عَلَانِيَةً، وَالْمَسْتُورُ مَكْشُوفًا، وَالْمَجْهُولُ مَعْرُوفًا، وَيُحَصَّلُ وَيَبْدُو مَا فِي الصُّدُورِ، كَمَا يُبَعْثَرُ وَيَخْرُجُ مَا فِي الْقُبُورِ؛ وَتَجْرِي أَحْكَامُ الرَّبِّ تَعَالَى هُنَالِكَ عَلَى الْقُصُودِ وَالنِّيَّاتِ، كَمَا جَرَتْ أَحْكَامُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَلَى ظَوَاهِرِ الأَقْوَالِ وَالْحَرَكَاتِ، يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ بِمَا فِي قُلُوبِ أَصْحَابِهَا: مِنَ النَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْبِرِّ وَالصِّدْقِ وَالإِخْلَاصِ لِلْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ بِمَا فِي قُلُوبِ أَصْحَابِهَا: مِنَ الْخَدِيعَةِ وَالْغِشِّ وَالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ وَالِاحْتِيَالِ؛ هُنَالِكَ يَعْلَمُ الْمُخَادِعُونَ: أَنَّهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ كَانُوا يَخْدَعُونَ، وَبِدِينِهِمْ كَانُوا يَلْعَبُونَ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»[(١)].

عَن أُسَامَةَ بنِ شَرِيكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا كَرِهَ اللهُ مِنكَ شَيئًا، فَلَا تَفعَلهُ إِذَا خَلَوتَ»**[(٢)].

وَعَنْ سَعِيدِ ابنِ يَزِيدِ الأَنصَارِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: لِرَسُولَ اللهِ ﷺ أَوصِنِي، قَالَ: **«أُوصِيكَ أَن تَستَحِيَ اللهَ عز وجل، كَمَا تَستَحِي رَجُلًا صَالِحًا مِن قَومِكَ»**[(٣)].

---

(١) «إعلام الموقِّعين» (٣/ ٢١٤ - ٢١٥).
(٢) رواه ابن حبان (٤٠٣)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (٢١١٦).
(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٥٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٥٤١).

فَقُل لِنَفسِكَ: لَو كَانَ رَجُلٌ مِنْ صَالِحِي قَومِي يَرَانِي، أَو يَسمَعُ كَلَامِي، لَاستَحَيتُ مِنْهُ، فَكَيفَ لَا أَستَحِي مِن رَبِّي ﷻ، ثُمَّ لَا آمَنُ تَعجِيلَ عُقُوبَتِهِ وَكَشفَ سَترِهِ؟!

فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ يَرَاهُ حَيثُ كَانَ، وَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَاستَحضَرَ ذَلِكَ فِي خَلَوَاتِهِ، أَوجَبَ لَهُ ذَلِكَ تَركَ المَعَاصِي فِي السِّرِّ.

قَالَ القَحطَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَإِذَا خَلَوتَ بِرِيبَةٍ فِي ظُلمَةٍ ... وَالنَّفسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغيَانِ
فَاستَحِي مِن نَظَرِ الإِلَهِ وَقُلْ لَهَا إِنَّ ... الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي[1]

وَعَن رَجُلٍ مِن قُرَيشٍ - ذُكِرَ أَنَّهُ مِن وَلَدِ طَلحَةَ بنِ عُبَيدِ اللهِ - قَالَ: كَانَ ابنُ السَّمَّاكِ يَتَمَثَّلُ[2]:

يَا مُدمِنَ الذَّنبِ أَمَا تَستَحِي ... اللهُ فِي الخَلوَةِ ثَانِيكَا
غَرَّكَ مِن رَبِّكَ إِمهَالُهُ ... وَسَترُهُ طُولَ مَسَاوِيكَا[3]

عَن مُعَاوِيَةَ بنِ حَيدَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَورَاتُنَا مَا نَأتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ: «**احفَظ عَورَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوجَتِكَ، أَو مَا مَلَكَت يَمِينُكَ**» قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا كَانَ القَومُ بَعضُهُم فِي بَعضٍ؟ قَالَ: «**إِنِ استَطَعتَ أَن لَا يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ، فَلَا يَرَيَنَّهَا**» قَالَ: قُلتُ:

---

(١) نونية القحطاني (ص٩٠).

(٢) يتمثل: يستحضر كلامًا ليستشهد به، من شعر وغيره.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «كتاب االتوبة» (رقم: ١٠). وأورده ابن الجوزي في «التبصرة» (١/ ٥٥)، وابن رجب بنحوه في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٠٩ - ٤١٠).

يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا؟ قَالَ: «**اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُستَحيَىٰ مِنْهُ مِنَ النَّاسِ**»(١).

فَقَد «أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ الرَّجُلَ: أَن يَستُرَ عَورَتَهُ، وَإِن كَانَ خَالِيًا لا يَرَاهُ أَحَدٌ، أَدَبًا مَعَ اللهِ، عَلَى حَسَبِ القُربِ مِنْهُ، وَتَعظِيمِهِ وَإِجلَالِهِ، وَشِدَّةِ الحَيَاءِ مِنْهُ، وَمَعرِفَةِ وَقَارِهِ»(٢).

فَاللَّهَ اللهَ فِي إِصْلَاحِ السَّرَائِرِ؛ فَإِنَّهُ مَا يَنْفَعُ مَعَ فَسَادِهَا صَلَاحٌ ظَاهِرٌ.

«فَاللَّهَ اللهَ فِي الخَلَوَاتِ. البَوَاطِنَ البَوَاطِنَ. النِّيَّاتِ النِّيَّاتِ»(٣).

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٥١].

فَانظُر أَيُّهَا الأَخُ الحَبِيبُ: مَاذَا يَعلَمُ اللهُ مِن قَلبِكَ؟

دَاوِ قَلبَكَ وَأَصلِحهُ، وَأَخلِص وَصَحِّحِ النِّيَّةَ، وَأَخلِصِ الطَّوِيَّةَ؛ فَإِنَّ مُرَادَ اللهِ مِنَ العِبَادِ: صَلَاحُ قُلُوبِهِم.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(٤).

وَقَوْلُهُ: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَاطِنَ الأَمْرِ يَكُونُ بِخِلَافِ

---

(١) رواه أبو داود (٤٠١٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٩٩).
(٢) «تهذيب المدارج» (ص٧١١). (٣) «صيد الخاطر» (ص١٦١ - ١٦٢).
(٤) رواه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢). وفيه قصة.

ذَلِكَ، وَأَنَّ خَاتِمَةَ السُّوءِ تَكُونُ بِسَبَبِ دَسِيسَةٍ بَاطِنَةٍ لِلْعَبْدِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، فَتِلْكَ الخَصْلَةُ الخَفِيَّةُ تُوجِبُ سُوءَ الخَاتِمَةِ عِنْدَ المَوْتِ(١). وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غِشٌّ وَآفَةٌ، لَمْ يَقْلِبِ اللهُ إِيمَانَهُ.

عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَعجَبُوا بِعَمَلِ أَحَدٍ، حَتَّى تَنظُرُوا بِمَ يُختَمُ لَهُ؟!...**»(٢).

وَالمَعنَى: لَا تَقْطَعُوا بِنَجَاةِ أَحَدٍ، وَلَا بِعَدَمِ نَجَاتِهِ مِنَ العَذَابِ فِي الآخِرَةِ، حَتَّى تَعلَمُوا خَاتِمَةَ أَمرِهِ؛ وَحَيثُ إِنَّ الخَاتِمَةَ مَجهُولَةٌ، فَلَا نَقطَعُ لِأَحَدٍ بِجَنَّةٍ وَلَا بِنَارٍ، إِلَّا لِمَن قَطَعَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ(٣).

وَفِي خِتَامِ الحَدِيثِ عَنْ إِصلَاحِ السَّرِيرَةِ: يَطِيبُ لِي أَن أَذكُرَ «ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ كَانَ يَكتُبُ بِهَا بَعضُ السَّلَفِ إِلَى بَعضٍ، فَلَو نَقَشَهَا العَبدُ فِي لَوحِ قَلبِهِ يَقرَؤُهَا عَلَى عَدَدِ الأَنفَاسِ، لَكَانَ ذَلِكَ بَعضَ مَا يَستَحِقُّهُ، وَهِيَ: «**مَن أَصلَحَ سَرِيرَتَهُ، أَصلَحَ اللهُ عَلَانِيَتَهُ؛ وَمَن أَصلَحَ مَا بَينَهُ وَبَينَ اللهِ، أَصلَحَ اللهُ مَا بَينَهُ وَبَينَ النَّاسِ؛ وَمَن عَمِلَ لِآخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللهُ مُؤنَةَ دُنيَاهُ**»(٤).

وَهَذِهِ الكَلِمَاتُ بُرهَانُهَا وُجُودُهَا، وَكَمِيَّتُهَا آنِيَتُهَا، وَالتَّوفِيقُ بِيَدِ اللهِ، لَا إِلَهَ غَيرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ»(٥).

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٧٢ - ١٧٣).
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٢٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٣٣٤).
(٣) «شرح كتاب الشهاب» (ص١٨٥).
(٤) الأثر بنحوه: أخرجه وكيع بن الجرَّاح في «كتاب الزهد» (رقم: ٥٢٥)، وهو صحيح لغيره.
(٥) «الرسالة التبوكية» (ص٢٣٦).

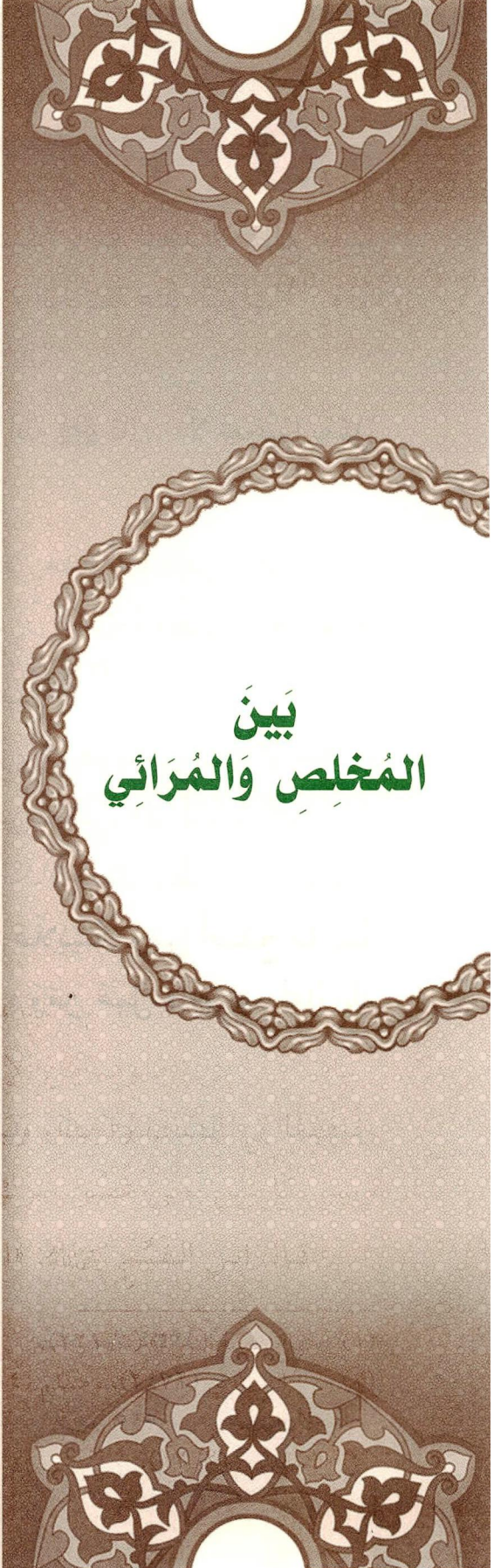

بين المُخلِص وَالمُرائي

الإِخلَاصُ مَأمُورٌ «بِهِ بِمَنزِلَةِ الغِذَاءِ الَّذِي هُوَ قِوَامُ حَيَاةِ العَبدِ»(١).
وَالرِّيَاءُ مَنهِيٌّ «عَنهُ بِمَنزِلَةِ السُّمِّ الَّذِي فِيهِ هَلَاكُ البَدَنِ»(٢).

المُخلِصُ: «مَنْ عَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى رَبِّهِ وَسَلَكَهَا قَاصِدًا الوُصُولَ إِلَيهِ، وَهَذَا هُوَ الكَرِيمُ عَلَى رَبِّهِ»(٣). وَالمُرَائِي «مَن لَم يَعرِفِ الطَّرِيقَ إِلَى رَبِّهِ وَلَم يَتَعَرَّفهَا، فَهَذَا هُوَ اللَّئِيمُ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨]»(٤).

المُخلِصُ «لَا يُبقِي مَجهُودًا فِي مُعَامَلَتِهِ لِرَبِّهِ، وَيَبذُلُ مَقدُورَهُ كُلَّهُ فِي تَحسِينِهِ وَتَزيِينِهِ وَإِصلَاحِهِ وَإِكمَالِهِ، لِيَقَعَ مَوقِعًا مِن رَبِّهِ، فَيَنَالَ بِهِ رِضَاهُ عَنهُ وَقُربَهُ مِنهُ»(٥).

المُرَائِي «يُعَامِلُ الخَلقَ بِأَفضَلِ مَا يَقدِرُ عَلَيهِ، وَإِن قَامَ فِي خِدمَةِ مَن

---

(١) «شفاء العليل في اختصار إبطال التحليل» (ص٨٦).
(٢) المصدر السابق.
(٣) «طريق الهجرتين» (ص٣٢١).
(٤) المصدر السابق (ص٣٢١ - ٣٢٢).
(٥) انظر: «طريق الهجرتين» (ص٣٨٨ - ٣٨٩).

يُحِبُّهُ مِنَ البَشَرِ قَامَ بِالجِدِّ وَالاِجتِهَادِ وَبَذلِ النَّصِيحَةِ، وَقَد فَرَّغَ لَهُ قَلبَهُ وَجَوَارِحَهُ، وَقَدَّمَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِن مَصَالِحِهِ، وَإِن عَامَلَ اللهَ عَامَلَهُ بِأَهوَنَ مَا عِندَهُ وَأَحقَرِهِ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِي حَقِّ رَبِّهِ، قَامَ قِيَامًا لَا يَرضَاهُ مَخلُوقٌ مِن مَخلُوقٍ مِثلِهِ»[1].

شَجَرَةُ المُخلِصِ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم]. وَشَجَرَةُ المُرَائِي مَغرُوسَةٌ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ.

شَجَرَةُ المُخلِصِ طُوبَى يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقطَعُهَا. وَشَجَرَةُ المُرَائِي شَجَرَةُ الحَنظَلِ، فَالنُّفُوسُ المُستَقِيمَةُ لَا تَتبَعُهَا.

قَلبُ المُخلِصِ يَطُوفُ حَولَ العَرشِ نَاظِرًا إِلَى الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ. وَالمُرَائِي قَدِ اتَّخَذَ قَلبَهُ لِوِقَايَةِ الحَرِّ وَالبَردِ بِبَيتِ العَنكَبُوتِ.

مِصبَاحُ المُخلِصِ يَتَوَقَّدُ ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]. وَمِصبَاحُ المُرَائِي قَد عَصَفَت عَلَيهِ الأَهوِيَةُ، فَلَا يَقتَبِسُ مِنهُ الأَنوَارَ.

المُخلِصُ قَلبُهُ مُتَعَبَّدٌ لِمَن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]. وَالمُرَائِي قَلبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالخَلقِ، فَهُوَ أَحقَرُ الحَقِيرِ.

المُخلِصُ كَبَائِعِ المِسكِ: إِمَّا أَن يُحذِيَكَ، وَإِمَّا أَن يَبِيعَكَ، وَإِمَّا أَن تَجِدَ مِنهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً. وَالمُرَائِي كَنَافِخِ الكِيرِ: إِمَّا أَن يُحرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَن تَجِدَ مِنهُ رِيحًا خَبِيثَةً.

---

(١) انظر: «الداء والدواء» (ص٢١٧).

المُخلِصُ قَد رَكِبَ سَفِينَةَ نُوحٍ، وَقَد صَاحَ بِهِ الرُّبَّانُ: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١﴾ [هود]. وَالمُرَائِي قَد تَخَلَّفَ عَن سَفِينَةِ النَّجَاةِ، وَلَم يَركَبهَا، فَأَدرَكَهُ الطُّوفَانُ.

مَشرَبُ المُخلِصِ ﴿مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان]. وَمَنهَلُ المُرَائِي ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، فَرَجَعَ خَاسِئًا حَسِيرًا[(١)].

المُخلِصُ «عَبدٌ ذَاهِبٌ عَن نَفسِهِ، مُتَّصِلٌ بِذِكرِ رَبِّهِ، قَائِمٌ بِأَدَاءِ حُقُوقِهِ، نَاظِرٌ إِلَيهِ بِقَلبِهِ»[(٢)]؛ فَإِن «نَطَقَ نَطَقَ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ، وَإِن سَكَتَ سَكَتَ لِلَّهِ، وَإِن تَحَرَّكَ فَبِأَمرِ اللهِ، وَإِن سَكَنَ فَسُكُونُهُ استِعَانَةٌ عَلَى مَرضَاةِ اللهِ؛ فَهُوَ لِلَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَمَعَ اللهِ»[(٣)]. قَد صَحِبَ اللهَ بِلَا خَلْقٍ، وَصَحِبَ النَّاسَ بِلَا نَفْسٍ، بَل إِذَا كَانَ مَعَ اللهِ، عَزَلَ الخَلَائِقَ عَنِ البَينِ، وَتَخَلَّى عَنهُم، وَإِذَا كَانَ مَعَ خَلقِهِ، عَزَلَ نَفسَهُ مِنَ الوَسَطِ وَتَخَلَّى عَنهَا. فَوَاهًا[(٤)] لَهُ! مَا أَغرَبَهُ بَينَ النَّاسِ! وَمَا أَشَدَّ وَحشَتَهُ مِنهُم! وَمَا أَعظَمَ أُنسَهُ بِاللَّهِ! وَفَرَحَهُ بِهِ! وَطُمَأنِينَتَهُ وَسُكُونَهُ إِلَيهِ![(٥)]

المُخلِصُ فِي هَذَا الزَّمَانِ العَصِيبِ يَشتَغِلُ بِتَربِيَةِ مَنزِلَتِهِ عِندَ اللهِ، فَهُوَ فِي شُغلٍ عَن طَلَبِ المَنزِلَةِ عِندَ الخَلقِ. فَلَيسَ عِندَهُ حُبٌّ لِلظُّهُورِ

---

(١) «الكافية الشافية» (ص١٦ - ١٧)، بتصرُّف يسير.

(٢) «تهذيب المدارج» (٢/ ٨١٣). (٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٨٩).

(٤) قال ابن الأثير الجزري: «قيل: معنى هذه الكلمة التَّلَهُّف. وقد تُوضَع مَوْضِعَ الإعْجاب بالشيء. يقال: وَاهًا له. وقد تَرِدُ بمعنى التَّوجُّع. وقيل: التَّوجُّع يقال فيه: آهًا». انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/ ١٤٤).

(٥) «تهذيب المدارج» (١/ ١٠٥).

- الَّذِي هُوَ قَاصِمٌ لِلظُّهُورِ - «بَل يَهرُبُ مِنهُ أَشَدَّ الهَرَبِ، وَيَفِرُّ أَشَدَّ الفِرَارِ، خَشيَةَ أَن يَقطَعَهُ الخَلقُ عَنِ الحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ»(١).

وَالمُرَائِي هَمُّهُ حِفظُ مَنزِلَتِهِ «عِندَ الخَلقِ وَمُلَازَمَتُهَا وَتَربِيَتُهَا، وَالخَوفُ مِن زَوَالِهَا»(٢).

المُخْلِصُ «لَا يُطَالِبُ وَلَا يُخَاصِمُ، وَلَا يُعَاتِبُ، وَلَا يَرَى عَلَى أَحَدٍ لَهُ فَضْلًا، وَلَا يَرَى عَلى أَحَدٍ لَهُ حَقًّا»(٣). وَالمُرَائِي بِخِلَافِ ذَلِكَ.

المُخْلِصُ يَرْحَمُ الصَّغِيرَ وَيُوَقِّرُ الكَبِيرَ، وَالمُرَائِي لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ.

المُخْلِصُ هَيِّنٌ لَيِّنٌ سَهْلٌ كَالجَمَلِ الأَنِفِ: إِنْ قِيدَ انْقَادَ، وَإِنِ استُنِيخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ. وَالمُرَائِي بِخِلَافِ ذَلِكَ.

المُخلِصُ «خَائِفٌ وَجِلٌ حَزِينٌ مُتَوَاضِعٌ مُنتَظِرٌ لِلفَرَجِ مِن عِندِ اللهِ، يَوَدُّ أَنَّهُ نَجَا كَفَافًا لَا لَهُ وَلَا عَلَيهِ»(٤)؛ وَالمُرَائِي «فَرِحٌ فَخُورٌ مُتَكَبِّرٌ مُدلٍ بِعَمَلِهِ»(٥).

المُخلِصُ «يُحِبُّ أَنْ لَا يُرَى شَخْصُهُ، وَلَا يُحْكَى قَوْلُهُ، وَيَوَدُّ أَنَّهُ أَفْلَتَ كَفَافًا: فَمَعْرِفَتُهُ بِنَفْسِهِ بَلَغَتْ بِهِ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ، وَتَمَسُّكُهُ بِهَذِهِ الْعَزَائِمِ أَوْصَلَهُ إِلَى مَحْضِ الْإِيمَانِ»(٦)؛ وَالمُرَائِي «يُحِبُّ أَنْ يُعْرَفَ بِالْخَيْرِ، وَيَنْتَشِرَ عَنْهُ، وَيُنْشَرَ ذِكْرُهُ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُزْرَى عَلَيْهِ فِي قَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، بَلْ يُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيُوَطَّأَ عَقِبُهُ، وَإِنْ لَمْ يُزْرِ

---

(١) شرح حديث: «مَا ذِئبَانِ جَائِعَانِ» (ص٥٥).
(٢) المصدر السابق (ص٥٤).
(٣) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/ ٩٨١).
(٤) «المدخل» (٢/ ١/ ٤٥).
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.

لَهُمْ شَيْئًا؛ وَإِنَّمَا شِدَّةُ حُبِّهِ لِذَلِكَ لِحَلَاوَةِ الثَّنَاءِ، وَالْحُبِّ لِإِقَامَةِ الْمَنْزِلَةِ، وَالْفِتْنَةُ فِي هَذَا عَظِيمَةٌ، وَالْمُؤْنَةُ عَلَيْهِ شَدِيدَةٌ»(١).

المُخلِصُ فِي غُربَةٍ شَدِيدَةٍ، لَكِنَّهُ «لَا يَستَوحِشُ مِن قِلَّةِ الرَّفِيقِ، وَلَا مِن فَقدِهِ، إِذَا استَشعَرَ قَلبُهُ مُرَافَقَةَ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ، ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء]»(٢). فَلَا يَكتَرِثُ بِمُخَالَفَةِ مُحِبِّي الظُّهُورِ وَالشُّهرَةِ لَهُ. «فَإِنَّهُم هُمُ الأَقَلُّونَ قَدرًا، وَإِن كَانُوا الأَكثَرِينَ عَدَدًا»(٣).

المُخلِصُ هُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي لَو خَرَجَ كُلُّ قَدرٍ لَهُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِن أَجلِ صَلَاحِ قَلبِهِ مَعَ اللهِ ﷻ، وَلَا يُحِبُّ أَن يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَى مَثَاقِيلِ الذَّرِّ مِن عَمَلِهِ(٤).

المُخلِصُ نَادِرٌ وُجُودُهُ، كَالغُرَابِ الأَعصَمِ - وَهُوَ أَحمَرُ المِنقَارِ وَالرِّجلَينِ - وَهَذَا الوَصفُ فِي الغُربَانِ عَزِيزٌ قَلِيلٌ.

إِنَّ المُخلِصَ الَّذِي لَا يُرِيدُ إِلَّا وَجهَ اللهِ وَثَوَابَهُ، لَا يُبَالِي بِلَومِ اللَّائِمِينَ، إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ رِضًا لِرَبِّ العَالَمِينَ، فَيُقْدِمُ عَلَى قَولِ الحَقِّ، غَيرَ مُبَالٍ بِانتِقَادِ مَنِ انتَقَدَهُ فِي مَوضُوعِهِ، أَو لَفظِهِ، أَو فَصَاحَتِهِ، أَو عَدَمِهَا، لَا يَعُدُّ المَدحَ مِنَ النَّاسِ شَيئًا، فِي جَانِبِ قِيَامِهِ بِالحَقِّ.

أَمَّا المُرَائِي المُتَزَيِّنُ لِلنَّاسِ، الوَاقِفُ فِي هِمَّتِهِ عَلَى مَدحِهِم وَذَمِّهِم: فَمَا أَسرَعَ خَوَرَهُ فِي المَقَامَاتِ الرَّهِيبَةِ! وَمَا أَعظَمَ هَلَعَهُ

---

(١) «المدخل» (٢/ ١/ ٤٥).
(٢) «موارد الأمان» (ص١٣٢- ١٣٣).
(٣) «تهذيب المدارج» (١/ ٤٣).
(٤) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٦٠).

وَهَيبَتَهُ إِذَا رَمَاهُ النَّاسُ بِأَبصَارِهِم! وَمَا أَقَلَّ ثُبُوتَهُ عِندَ اعتِرَاضِ المُعتَرِضِينَ وَذَمِّ الذَّامِّينَ! وَالسَّبَبُ فِي هَذَا: أَنَّهُ جَعَلَ تَعظِيمَ الخَلقِ، وَمَدحَهُم وَثَنَاءَهُم: نُصبَ عَينَيهِ وَقِبلَةَ قَلبِهِ، وَهُوَ غَايَتُهُ الَّتِي يَطلُبُ، وَمَعلُومٌ أَنَّ مَن كَانَت هَذِهِ حَالُهُ: أَنَّ أَقوَالَهُ وَأَفعَالَهُ تَقَعُ عَلَى هَذَا النَّحوِ الَّذِي يَنحُو، وَالطَّرِيقَةِ الَّتِي إِلَيهَا يَصبُو؛ وَمَعَ ذَلِكَ: لَو قَامَ فِي مَقَامٍ مِن مَقَامَاتِهِ الوَضِيعَةِ، لَكَانَت أَقوَالُهُ وَأَفعَالُهُ قَلِيلَةَ البَرَكَةِ، غَيرَ مَأمُونٍ مِن ثُبُوتِهِ عَلَيهَا، وَلَو تَأَمَّلتَ الغَايَةَ الَّتِي يَسعَى إِلَيهَا، وَهِيَ إِرَادَةُ تَعظِيمِ الخَلقِ، لَوَجَدتَ هَذَا التَّعظِيمَ أَوِ الثَّنَاءَ - إِذَا فُرِضَ وُجُودُهُ - نِفَاقًا وَتَزَيُّنًا وَاتِّبَاعًا لِلأَغرَاضِ المُتَنَوِّعَةِ، فَمَا أَسرَعَ مَا يَنقَطِعُ وَيَتَبَدَّلُ بِضِدِّهِ!

أَمَّا المُخلِصُ لِلَّهِ القَاصِدُ لِوَجهِهِ، الَّذِي غَرَضُهُ نَفعُ عِبَادِ اللهِ: فَإِنَّ اللهَ يَجعَلُ فِي أَعمَالِهِ وَكَلَامِهِ الخَيرَ وَالبَرَكَةَ، وَلَو قُدِّرَ أَن يَعتَرِضَهُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ لَومُ اللَّائِمِينَ وَطَعنُهُم، فَيَا سُرعَانَ مَا يَزُولُ! ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٧]. كُلُّ عَمَلٍ لِغَيرِ اللهِ: فَهُوَ مُضمَحِلٌّ بَاطِلٌ، وَكُلُّ سَعيٍ لِلَّهِ وَلِنَفعِ الخَلقِ: فَإِنَّهُ بَاقٍ وَنَفعُهُ مُتَوَاصِلٌ؛ مَا أَخسَرَ المُرَائِينَ! وَمَا أَسوَأَ حَظَّ المُتَشَبِّعِينَ بِالبَهرَجِ المُتَزَيِّنِينَ! وَمَا أَعظَمَ حَظَّ المُخلِصِينَ! وَمَا أَعظَمَ دَرَجَاتِهِم عِندَ رَبِّ العَالَمِينَ![١]

كَم بَينَ مَنْ هِمَّتُهُ الكُبرَى دَائِرَةٌ حَولَ مَرَاضِي اللهِ، وَالسَّعيِ فِي نَفعِ

---

(١) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ٤٠٣ - ٤٠٤)، للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

عِبَادِ اللهِ، وَاستِحلَاءِ المَشَاقِّ فِي هَذَا السَّبِيلِ؟! وَبَينَ مَنْ هِمَّتُهُ الدَّنِيئَةُ حَولَ الأُمُورِ الدَّنِيئَةِ، وَغَايَتُهُ التَّقَرُّبُ إِلَى الخَلقِ وَالتَّزَيُّنُ لَهُم؟! قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦][١].

قَالَ جَعفَرٌ الخُلدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: المُرَائِي يَعمَلُ لِيُرَى، وَالمُخلِصُ يَعمَلُ لِيَصِلَ[٢].

فَسُبحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ! كَم بَينَ الفَرِيقَينِ مِنَ التَّفَاوُتِ؟! المُخلِصُونَ فِي العُلُوِّ عِندَ اللهِ، وَالمُرَاؤُونَ فِي السُّفْلِ.

فَاختَرْ لِنَفسِكَ إِحدَى الخُطَّتَينِ، وَأَنزِلهَا فِي إِحدَى المَنزِلَتَينِ.

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «...**كُلُّ النَّاسِ يَغدُو فَبَائِعٌ نَفسَهُ، فَمُعتِقُهَا، أَو مُوبِقُهَا**»[٣].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَينَ العَبدِ وَبَينَ اللهِ وَالجَنَّةِ قَنطَرَةٌ تُقطَعُ بِخُطوَتَينِ: خُطوَةٍ عَن نَفسِهِ، وَخُطوَةٍ عَنِ الخَلقِ، فَيُسقِطُ نَفسَهُ، وَيُلغِيهَا فِيمَا بَينَهُ وَبَينَ النَّاسِ، وَيُسقِطُ النَّاسَ وَيُلغِيهِم فِيمَا بَينَهُ وَبَينَ اللهِ، فَلَا يَلتَفِتُ إِلَّا إِلَى مَن دَلَّهُ عَلَى اللهِ، وَعَلَى الطَّرِيقِ المُوصِلَةِ إِلَيهِ»[٤].

فَتَأَمَّل مَا أَجَلَّ هَذَا الكَلَامَ مَعَ اختِصَارِهِ! وَمَا أَجمَعَهُ لِقَوَاعِدِ السُّلُوكِ وَلِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ!

---

(١) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ٤٠٤)، للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٨١). (٣) قطعة من حديث: رواه مسلم (٢٢٣).

(٤) «فوائد الفوائد» (٤٨٠).

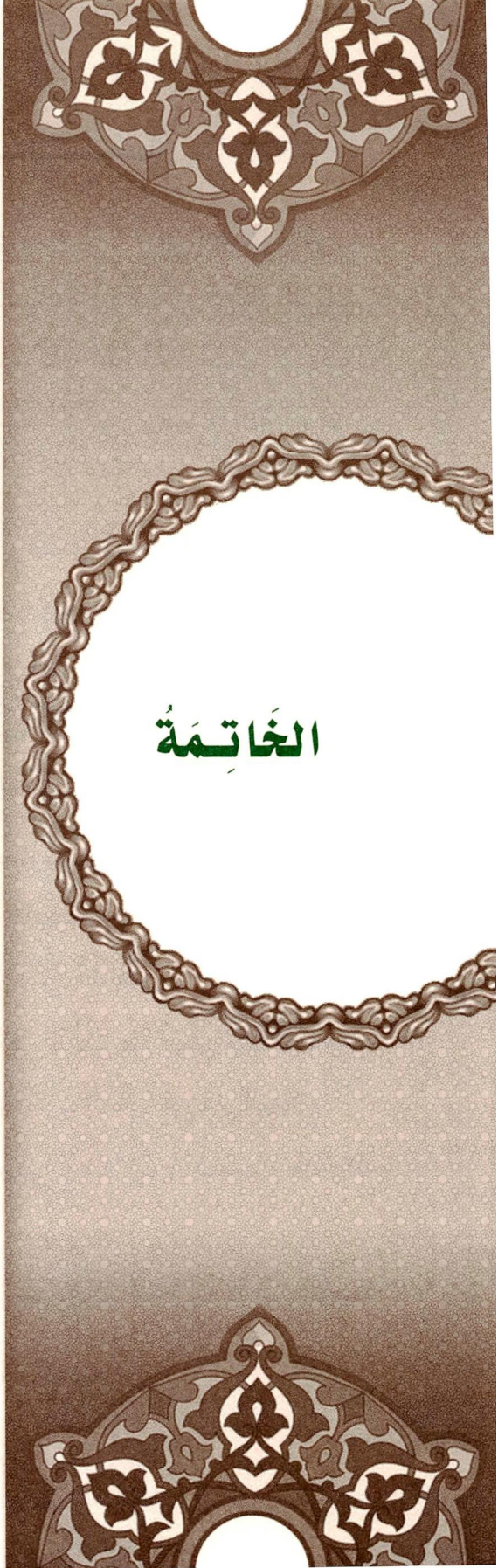

الخَاتِمَةُ

الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِلإِسلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَينَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَيرِ الأَنَامِ.

إِذَا اتَّصَفَ العَبدُ بِالإِخلَاصِ نَالَ صَاحِبُهُ خَيرَ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَإِن فَقَدَهُ فَالخَيبَةُ وَالخِذلَانُ.

«**الإِخـلَاصُ** هُوَ السَّبَبُ الوَحِيدُ المُنجِي مِنَ المَكَارِهِ، المُحَصِّلُ لِلمَحَابِّ كُلِّهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى لَم يَخلُقنَا إِلَّا لِنُخلِصَ لَهُ الدِّينَ، وَنَقُومَ بِعُبُودِيَّتِهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»[(١)].

الإِخلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَةُ وَجهِهِ: «رَأسُ مَالِ العَبدِ وَمَلَاكُ أَمرِهِ وَقِوَامُ حَيَاتِهِ الطَّيِّبَةِ، وَأَصلُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ وَنَعِيمِهِ وَقُرَّةُ عَينِهِ، وَلِذَلِكَ خُلِقَ، وَبِهِ أُمِرَ، وَبِذَلِكَ أُرسِلَتِ الرُّسُلُ، وَأُنزِلَتِ الكُتُبُ، وَلَا صَلَاحَ لِلقَلبِ وَلَا نَعِيمَ إِلَّا بِأَن تَكُونَ رَغبَتُهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحدَهُ، فَيَكُونَ هُوَ وَحدَهُ مَرغُوبَهُ وَمَطلُوبَهُ وَمُرَادَهُ»[(٢)].

---

(١) «المجموعة الكاملة» (٥/١/٤٨١) بتصرُّف، للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) «روضة المحبين» (ص٤٠٨).

وَمَن كَانَ كَذَلِكَ «كَفَاهُ اللهُ كُلَّ مُهِمٍّ، وَتَوَلَّاهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَدَفَعَ عَنهُ مَا لَا يَستَطِيعُ دَفعَهُ عَن نَفسِهِ، وَوَقَاهُ وِقَايَةَ الوَلِيدِ، وَصَانَهُ مِن جَمِيعِ الآفَاتِ. وَمَن كَانَ لِلَّهِ كَانَ اللهُ لَهُ، حَيثُ لَا يَكُونُ لِنَفسِهِ»[١]. وَمَن أَخلَصَ لِلَّهِ «فِي جَمِيعِ الأُمُورِ، صَنَعَ اللهُ لَهُ فَوقَ مَا يَصنَعُ لِغَيرِهِ»[٢].

وَالمُخلِصُونَ «هُم خُلَاصَةُ الخَلقِ وَصَفوَتُهُم، وَهَل يُوجَدُ أَكمَلُ مِمَّن خَلُصَت إِرَادَتُهُم وَمَقَاصِدُهُم لِلَّهِ وَحدَهُ، طَلَبًا لِرِضَاهُ وَثَوَابِهِ، وَتَفَرَّعَت أَعمَالُهُمُ الظَّاهِرَةُ وَالبَاطِنَةُ، عَلَى هَذَا الأَصلِ الطَّيِّبِ الجَلِيلِ؟! وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم]»[٣].

وَالمُخلِصُونَ «هُم أَهلُ الهِمَمِ العَالِيَةِ وَالأُجُورِ الفَاضِلَةِ، وَإِنَّ الجَزَاءَ بِحَسَبِ الإِخلَاصِ، وَالأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ؛ وَالعَمَلُ القَلِيلُ مِنَ المُخلِصِ، يَزِنُ الأَعمَالَ الكَثِيرَةَ مِمَّن لَم يَكُن كَذَلِكَ.

وَالمُخلِصُونَ هُمُ الَّذِينَ يُخلِصُهُمُ اللهُ فِي الدُّنيَا مِنَ الفِتَنِ وَالآثَامِ، وَمِنَ العُقُوبَاتِ وَالآلَامِ، وَبِإِخلَاصِهِم يُحِلُّهُمُ المَقَامَاتِ العَالِيَةَ فِي دَارِ السَّلَامِ»[٤].

كُن مِن أَهلِ الإِخلَاصِ: فِي سِرٍّ وَفِي إِعلَانٍ، وَاقصِد وَجهَ اللهِ بِالأَقوَالِ وَالأَعمَالِ وَالطَّاعَاتِ.

كُن مِن أَهلِ الإِخلَاصِ: وَقَدِّمِ «الِاستِعَانَةَ بِاللَّهِ وَإِخلَاصَ القَصدِ

---

(١) «روضة المحبين» (ص٤٠٨). (٢) المصدر السابق.

(٣) «فتح الرحيم الملك العلَّام» (ص١٠٠).

(٤) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ٤٨١) بتصرُّف، للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

فِي نُصرَةِ الحَقِّ، دُونَ التَّزَيُّنِ وَالتَّحسِينِ لِلخَلقِ»[١].

كُن مِن أَهلِ الإِخلَاصِ: الَّذِينَ أَخلَصُوا الأَعمَالَ وَحَقَّقُوهَا، وَخَلَّصُوا أَعمَالَهُم مِن أَشرَاكِ الرِّيَاءِ وَأَطلَقُوهَا.

كُن مِن أَهلِ الإِخلَاصِ: الَّذِينَ «أَعمَالُهُم كُلُّهَا لِلَّهِ، وَأَقوَالُهُم لِلَّهِ، وَعَطَاؤُهُم لِلَّهِ، وَمَنعُهُم لِلَّهِ، وَحُبُّهُم لِلَّهِ، وَبُغْضُهُم لِلَّهِ»[٢].

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَزَفُوا القُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا ... قَد فَرَّغُوهَا مِنْ سِوَى الرَّحمَنِ

حَرَكَاتُهُمْ وَهُمُومُهُم وَعُزُومُهُم ... لِلَّهِ لَا لِلخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ[٣]

كُن مِن أَهلِ الإِخلَاصِ: الَّذِينَ «مُعَامَلَتُهُم ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لِوَجهِ اللهِ وَحدَهُ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ مِنَ النَّاسِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، وَلَا ابتِغَاءَ الجَاهِ عِندَهُمْ، وَلَا طَلَبَ المَحمَدَةِ، وَالمَنزِلَةِ فِي قُلُوبِهِم، وَلَا هَرَبًا مِن ذَمِّهِم، بَل قَد عَدُّوا النَّاسَ بِمَنزِلَةِ أَصحَابِ القُبُورِ، لَا يَملِكُونَ لَهُم ضَرًّا وَلَا نَفعًا، وَلَا مَوتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا»[٤].

كُن مِن أَهلِ الإِخلَاصِ: فَإِنَّ اللهَ سُبحَانَهُ إِنَّمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ عِبَادَةً خَالِصَةً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۝٥﴾ [البَيِّنَة].

«فَكُلُّ أَحَدٍ لَم يُؤمَر إِلَّا بِعِبَادَةِ اللهِ بِمَا أَمَرَ، وَالإِخلَاصِ لَهُ فِي العِبَادَةِ»[٥].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١١٢٢).
(٢) «تهذيب المدارج» (١/ ٩٧).
(٣) «الدرة الفاخرة» (ص٢٩).
(٤) «تهذيب المدارج» (١/ ٩٧ - ٩٨).
(٥) المصدر السابق (١/ ١٠٠).

فَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ فِي عِبَادَتِهِ، لَم يَفْعَلْ مَا أُمِرَ بِهِ، بَلِ الَّذِي أَتَى بِهِ شَيءٌ، غَيرُ الَّذِي أُمِرَ بِهِ؛ فَلَا يَصِحُّ، وَلَا يُقبَلُ مِنهُ[١].

فَلَا يَقبَلُ اللهُ مِنَ العَمَلِ، إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجهِهِ، عَلَى مُتَابَعَةِ أَمرِهِ. وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَردُودٌ عَلَى عَامِلِهِ، يُرَدُّ عَلَيهِ - أَحوَجَ مَا هُوَ إِلَيهِ - هَبَاءً مَنثُورًا[٢].

كُن مِن أَهلِ الإِخلَاصِ: وَاجعَلِ الإِخلَاصَ نُصبَ عَينَيكَ فِي كُلِّ مَا تَأتِي وَمَا تَذَرُ، وَفِي كُلِّ مَا تَقُولُ وَتَفعَلُ؛ «بِحَيثُ تَكُونُ الحَرَكَاتُ الفِعلِيَّةُ وَالقَولِيَّةُ، كُلُّهَا خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَى، مُرَادًا بِهَا ثَوَابُهُ وَفَضلُهُ»[٣]؛ حَتَّى يَكُونَ الإِخلَاصُ لَكَ نَعتًا، وَتَضمَحِلَّ عَن قَلبِكَ جَمِيعُ المَقَاصِدِ وَالأَغرَاضِ المُنَافِيَةِ لِلإِخْلَاصِ.

فَإِن شِئتَ وَصلَ القَومِ فَاسلُك طَرِيقَهُم ... فَقَد وَضَحَت لِلسَّالِكِينَ عِيَانًا[٤]

فَلنَحرِص عَلَى الإِخلَاصِ وَحُسنِ النِّيَّاتِ، وَمُرَاقَبَةِ اللهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ اللَّحَظَاتِ، وَبِذَلِكَ تَنفَتِحُ عَلَينَا أَبوَابُ المَعَارِفِ، وَتَنشَرِحُ صُدُورُنَا، وَيُبَارِكُ اللهُ لَنَا فِي عِلمِنَا وَحَالِنَا، وَيُوَفِّقُ اللهُ فِي أَفعَالِنَا وَأَقوَالِنَا.

نَسأَلُ اللهَ البَرَّ الرَّحِيمَ ﷻ: أَنْ يَمُنَّ عَلَينَا وَعَلَيكُم: بِالإِخلَاصِ فِي الأَقوَالِ، وَالأَفعَالِ، وَالأَعمَالِ، فِي جَمِيعِ الأَحوَالِ، إِنَّهُ كَبِيرٌ مُتَعَالٍ.

---

(١) «الداء والدواء» (ص ٢٠٢).
(٢) «تهذيب المدارج» (١/ ٩٨).
(٣) «المجموعة الكاملة» (٥/ ١/ ٤٨٩)، للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.
(٤) «الرسالة التبوكية» (ص ٥٧).

وَلنَقتَصِر عَلَى هَذَا القَدرِ ، فَإِنَّهُ مَا أُطِيلَ الكَلَامُ فِي عِبَادَةِ الإِخلَاصِ، إِلَّا لِفَرْطِ الحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ إِلَى مَعرِفَتِهَا، وَمَعرِفَةِ آثَارِهَا، فَليَتَأَمَّلهَا اللَّبِيبُ، وَليَجعَلهَا سَيرَهُ وَسُلُوكَهُ، وَليَبنِ عَلَيهَا عُلُومَهُ وَأَعمَالَهُ وَأَقوَالَهُ وَأَحوَالَهُ، فَمَا نَتَجَ مَنْ نَتَجَ إِلَّا مِنهَا، وَلَا تَخَلَّفَ مَنْ تَخَلَّفَ إِلَّا مِنْ فَقدِهَا.

وَاللَّهُ المُوَفِّقُ لِمُرَاعَاةِ ذَلِكَ، وَالقِيَامِ بِهِ عَمَلًا وَحَالًا، كَمَا وَفَّقَ لَهُ عِلمًا وَمَعرِفَةً، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالمَانُّ بِهِ، وَهُوَ حَسبُنَا وَنِعمَ الوَكِيلُ.

وَأَنَا أَرغَبُ إِلَى اللهِ - سُبحَانَهُ - أَن يَجعَلَهُ خَالِصًا لِوَجهِهِ الكَرِيمِ، مُجَازِيًا عَلَيهِ بِفَضلِهِ فِي دَارِ النَّعِيمِ.

وَإِلَى مَن وَقَفَ مِنهُ عَلَى سَهوٍ أَن يُصلِحَهُ؛ أَو رَأَى فِيهِ مُبهَمًا أَن يُوَضِّحَهُ، فَالمَعصُومُ مَعدُومٌ، وَالمُهَذَّبُ قَلِيلٌ.

وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُم مَعشَرَ الإِخوَانِ لِمَا يُرضِيهِ، وَجَمَعنَا وَإِيَّاكُم فِي الدَّارِ الآخِرَةِ، مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا[1].

وَنَحمَدُهُ حَمدًا يَلِيقُ بِطَوْلِهِ وَنَسأَلُهُ الإِخلَاصَ فِي كُلِّ مَقصَدِ[2]

الراجي عفو ربه
عبد الهادي بن حسن وهبي

(١) «الشافي في شرح مسند الشافعي» (٥/ ٥٧٢).
(٢) «الألفية في الآداب الشرعية» (ص٢٣)، لابن عبد القوي رَحِمَهُ اللَّهُ.

الفِهرِسُ

الموضوع	الصفحة
المُقَدِّمَةُ	٥
أَهَمِّيَّةُ الإِخلَاصِ	١٤
تَعرِيفُ الإِخلَاصِ	١٩
مَجَالَاتُ الإِخلَاصِ	٢٣
١- الإِخلَاصُ فِي طَلَبِ العِلمِ:	٢٣
٢- الإِخلَاصُ فِي تِلَاوَةِ القُرآنِ:	٣١
٣- الإِخلَاصُ فِي التَّوحِيدِ:	٣١
٤- الإِخلَاصُ فِي النِّيَّةِ:	٣٥
٥- الإِخلَاصُ فِي الصَّومِ:	٤٠
٦- الإِخلَاصُ فِي الصَّدَقَةِ:	٤٠
٧- الإِخلَاصُ فِي الحُبِّ:	٤٤
٨- الإِخلَاصُ فِي الزِّيَارَةِ فِي اللهِ:	٥٥
٩- الإِخلَاصُ فِي إِطعَامِ الطَّعَامِ:	٥٦
١٠- الإِخلَاصُ فِي الدُّعَاءِ لِلمَيِّتِ:	٥٨
١١- الإِخلَاصُ فِي الحُبِّ وَالبُغضِ وَالعَطَاءِ وَالمَنعِ:	٥٨

الموضوع الصفحة

١٢- الإِخلَاصُ فِي كَظمِ الغَيظِ: ٥٩
١٣- الإِخلَاصُ فِي بِنَاءِ المَسَاجِدِ: ٦٠
١٤- الإِخلَاصُ فِي تَركِ المَعصِيَةِ لِلَّهِ: ٦١
١٥- الإِخلَاصُ فِي الأُضحِيَةِ: ٦٣
١٦- الإِخلَاصُ فِي الحَجِّ: ٦٤
١٧- الإِخلَاصُ فِي الصَّبرِ: ٦٥
١٨- الإِخلَاصُ فِي الجِهَادِ: ٦٥
١٩- الإِخلَاصُ فِي الدَّعوَةِ: ٦٧
٢٠- الإِخلَاصُ فِي التَّوبَةِ: ٦٩
٢١- الإِخلَاصُ فِي قِيَامِ اللَّيلِ: ٧٠
٢٢- الإِخلَاصُ فِي التَّوَاضُعِ: ٧٠
قَوَادِحُ الإِخلَاصِ وَعِلَاجُهَا ٧٥
١- العُجبُ بِالنَّفسِ: ٧٦
٢- الرِّيَاءُ: ٨٠
أ - الرِّيَاءُ أَخطَرُ عَلَى المُسلِمِينَ مِن فِتنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ: ... ٨٢
ب- الرِّيَاءُ هُوَ الشِّركُ الخَفِيُّ: ٨٤
ج- الرِّيَاءُ مُحبِطٌ لِلأَعمَالِ: ٨٦
د- الرِّيَاءُ سَبَبٌ لِدُخُولِ النَّارِ: ٨٧
هـ- الرِّيَاءُ أَشَدُّ فَتكًا مِنَ الذِّئبِ فِي الغَنَمِ: ٩٢

الموضوع	الصفحة

كَيفِيَّةُ تَحصِيلِ الإِخلَاصِ؟ ١٠١
١- الزُّهدُ فِي مَدحِ النَّاسِ وَذَمِّهِم: ١٠٣
٢- الدُّعَاءُ: ١٠٧
٣- مُصَاحَبَةُ أَهلِ الإِخلَاصِ، وَالِانتِفَاعُ بِإِخلَاصِهِم: ١٠٨
٤- إِدمَانُ النَّظَرِ فِي سِيَرِ المُخلِصِينَ الصَّادِقِينَ:............ ١٠٩
٥- أَكثِر مِنَ الأَعمَالِ الخَفِيَّةِ: ١١١
أ- البُكَاءُ مِن خَشيَةِ اللهِ: ١١٤
ب- الدُّعَاءُ بِظَهرِ الغَيبِ: ١١٥
ج- الإِكثَارُ مِنَ النَّوَافِلِ فِي البَيتِ:................ ١١٦
د- حُبُّ المَسَاكِينِ:........................ ١١٦
هـ- الإِكثَارُ مِن صِيَامِ النَّفلِ:................ ١١٧
٦- المُحَافَظَةُ عَلَى صَلَاتَيِ الفَجرِ وَالعِشَاءِ: ١١٨
٧- المُجَاهَدَةُ: ١١٩
ثَمَرَاتُ الإِخلَاصِ........................ ١٢٠
١- الفَوزُ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الآخِرَةِ:................ ١٢٠
٢- الرِّفعَةُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ: ١٢١
٣- العَمَلُ عَلَى المَقصَدِ الأَعلَى وَالمَطلَبِ الأَسنَى: ١٢١
٤- المَنعُ مِن قَصدِ مُرَاءَاةِ النَّاسِ وَطَلَبِ مَحمَدَتِهِم: ١٢٢
٥- عَدَمُ انتِظَارِ الجَزَاءِ وَالثَّنَاءِ مِنَ النَّاسِ: ١٢٢

الموضوع الصفحة

٦- رِضَى اللهِ تَعَالَى: ١٢٣
٧- النَّجَاةُ مِنَ الفِتَنِ: ١٢٤
٨- المَوْتُ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ: ١٢٧
٩- انتِفَاءُ الخَوفِ وَالحَزَنِ: ١٢٨
١٠- قَبُولُ الأَعمَالِ: ١٢٩
١١- مَحَبَّةُ اللهِ ﷻ لِلمُخلِصِينَ: ١٣٣
١٢- بُلُوغُ النِّيَّةِ الخَالِصَةِ مَبلَغَ العَمَلِ: ١٣٤
١٣- الإِخلَاصُ سَبَبُ الِانتِصَارِ: ١٤١
١٤- قَلبُ المُبَاحَاتِ إِلَى طَاعَاتٍ: ١٤٤
١٥- مَغفِرَةُ الذُّنُوبِ: ١٤٧
١٦- تَنقِيَةُ القَلْبِ مِنَ الغِلِّ: ١٤٩
١٧- تَفرِيجُ الكُرُبَاتِ: ١٥٠
١٨- عُلُوُّ الهِمَّةِ: ١٥٢
١٩- الحِفظُ مِنَ الشَّيطَانِ: ١٥٣
٢٠- الإِظلَالُ فِي ظِلِّ عَرشِ الرَّحمَنِ: ١٥٥
٢١- الفَوزُ بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ: ١٥٥
٢٢- النَّجَاةُ مِن عَذَابِ الآخِرَةِ: ١٥٥
٢٣- نَيلُ قَبُولِ النَّاسِ وَمَحَبَّتِهِم: ١٥٦
٢٤- قَاصِدُ فِعلِ الخَيرِ يُثَابُ، وَإِن لَم يُصِبِ المُرَادَ: ١٦٣

الموضوع الصفحة

٢٥- التَّمكِينُ فِي الأَرضِ: ١٦٤
٢٦- صَلَاحُ الأَعمَالِ: ١٦٥
٢٧- الفَلَاحُ: ١٦٦
٢٨- السَّعَادَةُ فِي الدُّنيَا: ١٦٧
فَوَائِدُ مُهِمَّةٌ ١٦٨
أَوَّلًا: هَل سُرُورُ العَبدِ عِندَ ثَنَاءِ النَّاسِ يَقدَحُ فِي إِخلَاصِهِ؟ ١٦٨
ثَانِيًا: إِن قُمتَ بِالنَّصِيحَةِ فَلَا تُخبِر أَحَدًا ١٦٩
ثَالِثًا: مِن دَقَائِقِ أَبوَابِ الرِّيَاءِ ١٦٩
رَابِعًا: فَليَكُن خُرُوجُكَ مِنَ المَنزِلِ فِي سَبِيلِ اللهِ ١٧١
خَامِسًا: حَاسِب نَفسَكَ قَبلَ العَمَلِ ١٧٢
سَادِسًا: لَا تَترُكِ العَمَلَ مِن أَجلِ النَّاسِ ١٧٣
سَابِعًا: سَلَامُ المَعرِفَةِ فِيهِ نَقصٌ فِي الإِخلَاصِ ١٧٣
ثَامِنًا: أَصلِح سَرِيرَتَكَ ١٧٤
بَينَ المُخلِصِ وَالمُرَائِي ١٨٤
الخَاتِمَةُ ١٩١
الفِهرِسُ ١٩٦